

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمّد بن
محمّد بن الفضل بن حسين

دار الكتب والوثائق
بيروت - لبنان

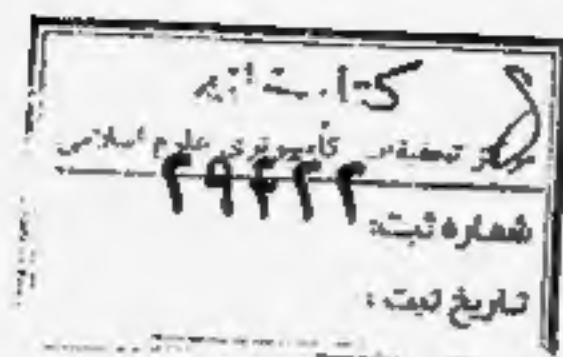
شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



الجزء الحادي عشر

دار الفکر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



الطبعة الثانية
(۱۳۸۷ هـ - ۱۹۶۷ م)
جميع الحقوق محفوظة

مركز تحقيق و نشر

منشورات مکتبه آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ۱۴۰۴ هـ ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(١٩٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَتَعَذُّوا مِنْ تَمَرٍّ كُمْ لَتَقَرَّ كُمْ؛
وَلَا تَهْتِكُوا أَسْطَارَ كُمْ، عِنْدَ مَنْ يَكْتُمُ أَسْرَارَ كُمْ، وَآخِرُ جَوَائِمِ الدُّنْيَا قُلُوبُكُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا أُخْتَبِرْتُمْ، وَلَفِيهَا خُلِقْتُمْ.
إِنَّ لَرَأٍ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ! وَقَالَتِ لِللَّائِيكَةِ : مَا قَدَّمْتَ ! اللَّهُ آهَاؤُكُمْ !
قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ، وَلَا تُخْلِفُوا كَلًّا يَكُونُ قَرْصًا قَدْتُمْكُمْ.

...

الشرح :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد اللبّرد في "الكامل" (١) عن الأصمعي، قال :
خطبنا أعرابي بالبادية، فحمد الله واستغفره، ووصّاه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم؛
فأبلغ في إيجاز، ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بِلَاحٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَتَعَذُّوا
لَتَقَرَّ كُمْ مِنْ تَمَرٍّ كُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْطَارَكُمْ، عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. فِي الدُّنْيَا أَنْتُمْ،

(١) الكامل ١ : ١٠٨ (خُطبة نهضة مصر).

وانغيرها خلقتم . أفول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، والصل على رسول الله ، والدموع

الحليفة^(١) ، والأمير جعفر بن سليمان

وذكر غيره الزيادة التي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وهي : « إن للمرء إذا
هلك ... » ، إلى آخر الكلام .

وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين عليه السلام .

ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم .

قوله عليه السلام : « دار مجاز » ، أي يجاز فيها إلى الآخرة ، ومنه سمى المجاز في
الكلام مجازاً ، لأن التكلم قد عجز الحقيقة إلى غيرها ، كما يعبّر الإنسان من موضع
إلى موضع .

ودار القرار : دار الاستقرار الذي لا آخر له

تخذوا من عمركم ، أي من الدنيا . لقرتكم ! وهو الآخرة .

قوله عليه السلام : « قال الناس : مارك ! » ، يريد أن بني آدم مشغولون بالعاجلة ،
لا يفكرون في غيرها ، ولا يتساءلون إلا عنها ، فإذا هلك أحدكم ، فإنما قولهم بعضهم
لهمض : ما الذي ترك فلان من المال ؟ ما الذي خلف من الولد ؟ وأما الملائكة فإنهم
يعرفون الآخرة ، ولا تسهويهم شهوات الدنيا ، وإتمام مشغولون بالذكور والنسبيح ،
فإذا هلك الإنسان ، قالوا : ما قدم ؟ أي أي شيء قدم من الأعمال ؟

ثم أسروهم عليه السلام ، بأن قدموا من أموالهم بعضها صدقة ، فإنها تبقى لهم ، ونهاهم
أن يخلقوا أموالهم كلها بعد موتهم ، فتكون وبالاً عليهم في الآخرة .

(١) يريد به أبا جعفر النعمان ؛ وقد ولي ابن عمه جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس المدينة
سنة ست وأربعين واثنتين .

(١٩٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ما ينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُوْدِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ ، وَأَقْبِلُوا الْمَرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا ،
وَأَقْبِلُوا بِصَالِحِ مَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ الزَّادِ ؛ فَإِنْ أَمَّاكُمْ عَقِبَةٌ كَثُودًا ، وَمَنَازِلَ تَخُوفَةٍ
مَهُولَةٍ ، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا ، وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَ لِلنِّيَّةِ نَحْوَكُمْ دَائِبَةٌ ^(١) ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ
فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِمَاتُ الْأُمُورِ ، وَمُضْلِمَاتُ ^(٢) الْمَحْذُورِ .
فَقَطَّعُوا عِلَاقَتِ الدُّنْيَا ، وَأَسْتَظْهِرُوا بَرَادَ التَّقْوَى .

مركزية كبرى على يد

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيها قدَّم بخالف هذه الرواية .

• • •

الشرح :

تَجَهَّزُوا الكذا ، أى تَهَيَّئُوا له .

والمَرْجَةُ : التمريج ، وهو الإقامة ، تقول : مالى على ربك عَرْجَةٌ ^(٣) ، أى إقامة ، وعَرْجٌ

فلان على المنزل ، إذا حبس عليه مَطْلَبُهُ .

(١) مَطْلُوعَةُ النِّهَجِ : « دَائِبَةٌ » .

(٢) مَطْلُوعَةُ النِّهَجِ : « لَمُضْلِمَاتُ » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عَرْجَةٌ [مثاقفة العين مع إسكان الراء] ، ولا عَرْجَةٌ [بفتح العين] ، ولا تمريج ، ولا عرج ، أى مقام ، وقيل : حبس » .

والعقبة الكثود: الشاقة المصد. ودائبة: جاذبة. والمقلب للسمع بمنزلة الغفر للإنسان.
وأفزع الأمر، فهو مفضح، إذا جاوز المقدار شدة.

ومضلمات المحذور: الخطوب التي تُضليح، أي تجعل الإنسان ضليعا، أي معوجا،
والماضي ضليح بالكسر بضلع ضلعا.

ومن رواها بالفاء، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالما، أي يضر في مشيه لثقلها
عليه، والماضي ظلم بالفتح، بظلم ظالما، فهو ظالم.



مرکز تحقیق ونگارش و نشر اسناد

(١٩٨)

الأنزل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة ، وقد عتبا عليه ^(١) من ترك مشورتها والاستمارة في الأمور بها :

لَقَدْ قَسَمْتُكُمْ بِيَوْمٍ ، وَأَرْجَا نَعْمًا كَثِيرًا . أَلَا تُخَيِّرَانِي أَيْ شَيْءَ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَقَقْتُكُمْ عَنْهُ ، أَمْ أَيْ قَسَمِ اسْتَأْذَنْتُ عَنْكُمْ بِهَذَا أَوْ أَيْ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ السَّيِّئِينَ ضَمَمْتُ عَنْهُ ، أَمْ جِهَلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ .

وَاللَّهُ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزَّةٌ ؛ وَلَكِنْ كُنْتُ دَعَاؤُكُمْ إِلَيْهَا ، وَتَحَلُّسُوكَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أَفَضْتُ إِلَيْكُمْ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا ، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَنْتُ ^(٢) النَّاسَ مِثْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْقَضَتْ . فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمْ ، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمْ ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جِهَلْتُهُ فَاسْتَشِيرْتُكُمْ ، وَإِنْ خَوَّيْتُمُ السَّيِّئِينَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأَسْوَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ، وَلَا وَلِيَّتُهُ هُوَ يَمْنِي ، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمْ فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسِيمٍ ، وَأَمَضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهُ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمْ فِي هَذَا عُنَقٌ .

أَخَذَ اللَّهُ يَهْلُوِينَا وَقُلُوبَكُمْ إِلَى الْخُلُقِ ، وَالْهَيْمَةِ وَإِنَّا لَمُ الْهَيْمَةِ .

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ .

• • •

الشرح :

نَقِمْتُ عَلَيْهِ ، بِالْفَتْحِ أَنْقِمَ ، هَذِهِ اللفظة الغصيبة ، وجاءت نَقِمْتُ بالكسر ، أَنْقَمَ .
وَأَرْجَأْتُمَا : أَخَّرْتُمَا ، أَيْ نَقِمْتُمَا مِنْ أَحْوَالِ الْبَسِيرِ ، وَتَرَكْنَا الْكَثِيرَ الَّذِي لَيْسَ لِسَا
وَلَا لغيرِ كافيهِ مَطْمَئِنٌ ، فَلَمْ تَذْكُرَاهُ ، فَهَلَّا اغْتَضَرْتُمَا الْبَسِيرَ الْكَثِيرَ !
وَلَيْسَ هَذَا اعْتِرَافًا بِأَنْ مَانَقَاهُ مَوْضِعَ الْعَطْمِ وَالْعَيْبِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ الْجِدَالِ
وَالاحتجاج ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَطْمَئِنُّ فِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ شَاعِرٍ مشهور : لَقَدْ ظَلَمْتَهُ إِذْ تَعَلَّقَ
عَلَيْهِ بِهَذَا الْبَيْتِ ، وَتَنَسَّى مَا لَهُ مِنَ الْحَاسِنِ الْكَثِيرَةِ فِي غَيْرِهِ !
ثُمَّ ذَكَرَ وَجْهَ الْقِتَابِ وَالاستِزَادَةَ^(١) ، وَهِيَ أَقْسَامُ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقٌّ يَدْفَعُهَا
عَنْهُ ، أَوْ اسْتَأْثَرُ عَلَيْهِمَا فِي قَسْمٍ ، أَوْ ضَعُفٌ عَنِ السِّيَاسَةِ ، أَوْ جَهْلٌ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ
الشَّرِيعَةِ ، أَوْ أَخْطَا بِأَبِيهِ .

فإن قلت : أَيْ فَرَقَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ؟

قلت : أَمَّا دَفْعُهَا عَنْ حَقِّهَا ، فَتَنْفَعُهَا عَنْهُ ؛ سِوَاهُ صَارَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ ،
أَوْ لَمْ يَصِرْ إِلَى أَحَدٍ ، بَلْ بَقِيَ بِحَالِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

(١) الاستزادة : طلب الرجوع واللين والاعتدال ، ومنه المحدث : فاستزاد لأمر الله ، أَيْ رَجَعَ وَانْزَعَجَ . (البيان) .

وأما القسم الثاني فهو أن يأخذ حقها لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثاني الخش من الأول .

فإن قلت : فأى فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » ؟
قلت : جهل الحكم أن يكون الله تعالى قد حكم بحرمة شيء ، فأحله الإمام أولئك ، وكونه يخطئ بابه ؛ هو أن يصيب في الحكم ويخطئ في الاستدلال عليه .
ثم أقسم أنه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا لذة ، بكسر الهمزة ، وهي الحاجة .
وصدق عليه السلام ! فهذا نقل أصحاب التواريخ وأرباب علم الشر كلهم ، وروى الطبري في التاريخ ورواه غيره أيضاً أن الناس غشوه ونكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تثبت عليه القول ، ولا تقوم له القلوب . قالوا : ننفذك الله ! ألا ترى الفتنه ! ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام ! الا تخاف الله ! قال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتكم فإني أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم إليه . فقالوا : مانحن بمفارقك حتى نبايعك . قال : إن كان لابد من ذلك ففي السجد ؛ فإن ييمتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفي ملأ وجماعة . فقام والناس حوله ، فدخل للسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلحة والزبير ^(١) .

قلت : قوله : « إن ييمتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا في السجد بمحض من جمهور الناس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس لما ساءمه مد يد له البيعة : إني أحب أن أصير بها ^(٢) ، وأكره أن أبايع من وراء رتاج .

(١) تاريخ الطبري ٥ : ١٥٦ (الطبعة الحسينية) مع تصريف .

(٢) أصغر : من قولهم : أصغر الأمر وبه ، إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنه لما بُوجِعَ عَمِلُ بَكْنَابِ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ، وَلَمْ يَحْتِجْ إِلَى رَأْيِهَا وَلَا رَأْيِ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يَجْعَلْ حُكْمَ بِحُكْمِهِ فَيَسْتَشِيرُهَا ، وَلَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لاسْتَشَارَهَا وَغَيْرَهَا ، وَلَمْ يَأْتِ مِنْ ذَلِكَ .

ثم تكلم في معنى التَّغْفِيلِ فِي الْعَطَاءِ ، قُلْتُ : إِنِّي عَمِلْتُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي ذَلِكَ . وَصَدَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ! فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ سَوَى فِي الْعَطَاءِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ .

وَالْمُنْتَهَى : الرِّضَا ، أَيْ لَسْتُ أَرْضِيكَ بِأَرْكَابٍ مَا لَا يَحِلُّ لِي فِي التَّشْرِعِ ارْتِكَابَهُ .
وَالصَّبْرُ فِي « صَاحِبِهِ » ، وَهُوَ الْمَاءُ الْمَحْرُورَةُ يَرْجِعُ إِلَى الْجَوْرِ ، أَيْ وَكَانَ هَوْنًا بِالْعَمَلِ عَلَى صَاحِبِ الْجَوْرِ .



[مِنْ أَخْبَارِ طَلْعَةِ وَالزَّيْرِ]

قَدْ تَقَدَّمَ مِنَّا ذِكْرُ مَا عَتَبَ بِهِ طَلْعَةُ وَالزَّيْرِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُمَا قَالَا : مَا نَرَاهُ يَسْتَشِيرُنَا فِي أَمْرٍ ، وَلَا يَفَاوِضُنَا فِي رَأْيٍ ، وَيَقْطَعُ الْأَمْرَ دُونَنَا ، وَيَسْتَبْدِي بِالْحُكْمِ عَنَّا ! وَكَانَا يَرْجَوَانِ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَأَرَادَ طَلْعَةُ أَنْ يُولِّيَهُ الْبَصْرَةَ ، وَأَرَادَ الزَّيْرُ أَنْ يُولِّيَهُ الْكُوفَةَ ، فَلَمَّا شَاهَدَا صَلَافَتَهُ فِي الْإِيمَانِ ، وَقُوَّتَهُ فِي الْعَزْمِ ، وَهَجَرَتَهُ الْإِدْهَانُ وَالْمِرَاقِبَةُ ، وَرَفَضَهُ الْمُدَالَسَةُ وَاللُّوَارِبَةُ ، وَسَلُوكَهُ فِي جَمِيعِ مَسَالِكِهِ مِنْهُجِ الْكُتْلَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ كَانَ يَطْلُبَانِ ذَلِكَ قَدِيمًا مِنْ طَبْعِهِ وَسَجِيَّتِهِ ، وَكَانَ عَمْرًا قَالَهَا وَلِغَيْرِهَا : إِنَّ الْأَجْلَحَ ^(١) إِنَّمَا وَلِيَّتُهَا نِيصَلَّتْكُمْ عَلَى الْحَبَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ

(١) الْأَجْلَحُ ، مِنَ الْجَلْحِ ، وَهُوَ ذُعَابُ الشَّعْرِ مِنْ مَقْدَمِ الرَّأْسِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

من قبل قال : وإن تولوها علياً ، تجدوه هدياً مهدياً ، ، إلا أنه ليس الخبر كاليمان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالاً عنه ، وتكراراً له ، ووقفاً فيه ، وعاباً وعصاه^(١) ، وتطلباً له الملل والتأويلات ، وتفقماً عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلاً من ذلك إلى الوقفة فيه بمساواة الناس في قسمة المال ، وأثنيًا على عمر ، وحيداً سيرته ، وصوتاً رآه ، وقال : إنه كان يفصل أهل السوابق ، وضللاً علياً عليه السلام فيما رآه ، وقال : إنه أخطأ ، وإنه خالف سيرة عمر ، وهي السيرة المحمودة التي لم تنضجها النبوة ، مع قرب عهدنا منها ، واتصالها بها . واستنجداً عليه بالرساء من المسلمين ، كان عمر يفضلهم ويفضلهم^(٢) في القسم على غيرهم . والناس أبناء الدنيا ، ويحبون للذل حباً جماً . فتكررت على أمير المؤمنين عليه السلام بتكررها قلوب كثيرة ، ونفست^(٣) عليه نيات كانت من قبل سليمة ، ولقد كان عمر موقفاً حثيثاً مع قريش والمهاجرين وفدى السوابق من الخروج من المدينة ، ونهاهم عن مخالطة الناس ، ونهى الناس عن مخالطتهم ، ورأى أن ذلك أسوأ الفساد في الأرض ، وأن الفجور والفساد قد أضررت المسلمين ، متى بعد الروس والكبراء منهم عن دار الهجرة ، وانحدوا بأنفسهم ، وخالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسبوا لهم الوثوب ، وطلب الإمرة ومفارقة الجماعة ، وحل نظام الألفة ، ولكنه رضى الله عنه حص هذا الرأي الشديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى ، فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضى الدنيا وقد قدمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل في نفس كل من الستة من ترشيحه للخلافة .

■ ■ ■

(١) عصاه : تهاونا بحقه .

(٢) يفضلهم : يعطيهم الفضل .

(٣) نفست : طمعت .

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه ، قال : كان عمر قد حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال :
 ألا إني قد سئلتُ الإسلام من البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ^(١) ، ثم يكون
 رباعياً ^(٢) ، ثم سدسياً ، ثم بازلاً ^(٣) . ألا فهل يُنظر بالبارك إلا نقصان الأول وإن الإسلام
 قد صار بازلاً ، وإن قريشا يريدون أن يتغنوا مال الله معوناتٍ على ما في أنفسهم .
 ألا إني في قريش من بضير الفرقة ، وبروم خنع الرُبُعة . أما وابنُ الخطاب حَيٌّ فلا إني
 قائم دون شعب الخيرة ، آخذ بحلاليهم قريش وحسبها أن يتم افتوا في النار .

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً : فلما وليَ عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر
 يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزحوا ورأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، خمل من لم يكن له
 طول ولا قدم في الإسلام ، ونه أصحاب السراويل والمصل ، فاقطع إليهم الناس ، وصاروا
 أوزاعاً معهم ، واسلمهم ، وتقرَّبوا إليهم ، وقالوا : يمشكون فيكون لنا في ملكهم حظوة ،
 فكان ذلك أولَ ومن على الإسلام ، وأولَ فتنة كانت في العامة .

وروى أبو جعفر الطبري ، عن الشعبي ، قال : لم يمضِ عمر حتى ملته قريش ، وقد كان
 حصَّرم بالمدينة ، وسأله أن يأذن لهم في الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إن
 أخوف ما أخافُ على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، حتى إن الرجلَ كان يستأذنه في
 غزو الروم أو الفرس ، وهو بمن حبه بالمدينة من قريش ، ولا سيما من المهاجرين فيقول له :
 إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ونحسبك ^(٤) ، وهو
 خير لك من المرو اليوم ، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك .

(١) الثني : الذي يلي التثنية .

(٢) الرباعي : هو الذي أتى رباعيته ، والرباعية : الس التي بين التثنية والنايب .

(٣) البازل : البعير فطرقه والفق ، ويكون ذلك في السنة التاسعة .

(٤) يقال : أحسبه إذا أَرْضاه أو أعطاه ما يرضيه وكعاد .

فلما مات عمر وولى عثمان خلى عنهم فانتشروا في البلاد واضطربوا ، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسن رأى عمر في منع المهاجرين وأهل السابقة من قريش من مخالطة الناس والخروج من المدينة ، وبان لك أن عثمان أرخى لهم في الطول ^(١) ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحسبوا إليهم للثروة والامارة والرئاسة ، لاسيما مع الثروة المظنية التي حصلت لهم ، والثراء مفسدة وأى مفسدة ! وحصل لطبعة والزبير من ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروة وبسارا ، وقدما في الإسلام ، وصار لهما لقب عظيم من المسلمين يمتنونهما الخلافة ، ويحسبون لها طلب الإمرة ، لاسيما وقد رشعها عمر لها ، وأقامها مقام نفسه في تحملها ، وأى امرئ منى بها قط تغته فغارها حتى يثبت في القعد ! ولا سيما طلعة ، فقد كان يحدث بها نفسه وأبو بكر حتى ، ويروم أن يحملها فيه ، يشبهه أنه ابن عمه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبي بكر : ما تقول لك وقدوليت علينا فطنا غليظا ، وكان له في أيام هرقوم مجلسون إليه ، ويحادثونه سرا في معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لهايمناك بعتة ، جلب الله هرقا علينا ما جلب ! وبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بالكلام لاشهور ، إن قوما يقولون : إن بيعة أبي بكر كانت قلنة ، وإنه لو مات عمر لعلنا وفعلنا ، أما أن بيعة أبي بكر كانت قلنة ، إلا إن الله وثق شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأي بكر ، فأى امرئ بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين ، أمرها بغرة أن يقتلها ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلعة بعد أن كان رضىها ، وأظهر مافى غسه ، وألب عليه حتى قُتل ، ولم يشك أن الأمر له ، فلما صارت إلى علي عليه السلام ، حدث منه ما حدث ، وآخر الهواء الكى . وأما الزبير فلم يسكن إلا غلوى الرأى ، شديد الولاء ، جاريا من الرجل مجرى نفسه .

(١) الطول : الجبل ، يريد أنه لا يترك لهم الجبل على النارب ، حتى فعلوا ما فعلوا .

ويقال : إنه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين مخيب يوم السقيفة وما جرى فيه ، وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلا على حذر ، وابناها بين يدي الحار ، وهو عليه السلام يسوقه فيطرق بيوت الأنصار وغيرهم ، ويسألم النصرة واللمونة ، أجا به أربعمون رجلا ، فبايعهم على اللوت ، وأسرهم أن يصبحوا بكرة عتقى ، وسهم ومعه سلاحهم ، فأصبح لم يوافهم منهم إلا أربعة : الزبير ، ولقدا ، وأبوذر ، وسدنان . ثم أتاهم من الليل ، فناداهم ، فقالوا : نصبحك غدوة ؛ فلما جاءهم منهم إلا أربعة ، وكذلك في الليلة الثالثة ، وكان الزبير أشدهم نصرة ، وأنفذهم في طاعته بصيرة ، حلق رأسه ، وجاء مرارا وفي عنقه سيفه ، وكذلك الثلاثة الباقيون ، إلا أن الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد قل الناس حذر الزبير لما هجم عليه بيت فاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه في حفرة ضربت به ، ونقلوا احتصاصه بسيفه عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، معشقا محبا ومودته ، حتى نشأ ابنه عبد الله وشبهه ، فخرج به هريقا من الأم ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحنة الوالد للولد معروفة ، فاحرف الزبير لاحرافه ؛ على أنه قد كانت حرت بين علي عليه السلام والزبير هتلت في أيام عمر كدرت القلوب به من التكدير ، وكان سببا قصة موالى صفية ومنازعة علي الزبير في نلرات ، فتضى عمر الزبير ، فأذن علي عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوما مما كان يذهب إياه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزبير ، على أن شوحننا أبا جعفر الإسكافي رحمه الله ذكر في كتاب " قصص العثمانيه " عن الزبير كلاما ، إن صح ، فإنه يدل على انحراف شديد ، ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخر علي عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمت بالنا ، وأسلمت طفلا ، وكنت أول من سل سيفي في سبيل الله بمكة وأمت مستخفي في الشعب^(١) ، يكفلك الرجال ،

(١) هو عصب أبي يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٢٠

وَيَمُوتُكَ الْأَقَارِبُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ . وَكَنتُ قَارِئًا ، وَكَنتُ رَاجِلًا ، وَفِي هَيْئَتِي نَزَلْتُ لِللَّائِكَةِ ، وَأَنَا حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مقتول مكذوب ، ولم يجر بين علي والزبير شيء من هذا الكلام ، ولكنه من وضع العثمانية ، ولم يسمع به في أحاديث المشوية ، ولا في كتب أصحاب السيرة .

ولعل عليه السلام أن يقول : طفل مسلم خبر من بالغ كافر ، وأما سل سيف بمكة ، فلم يكن في موضعه ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ... ﴾ (١) الآية ، وأما على منهاج الرسول في الكف والإقدام ، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشعب عازا على ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب بكفالة الرجال والأقارب . وأما حربك قاريا ، وعريه راجلا ، فهلا غنت فروسيك يوم عمرو ابن عبدود في الخندق او هلا غنت فروسيك يوم طلحة بن أبي طلحة في أحد او هلا غنت فروسيك يوم مرجب بخيبر ما كانت فرسك التي تحارب عليها في هذه الأيام إلا أذل من العنز الجرباء ، ومن سلط عليه لللائكة أفضل ممن نزلت في هيئته ، وقد نزلت لللائكة في صورة دحية الكلبي ، فيجب من ذلك أن يكون دحية أفضل مني ، وأما كونك حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو حددت خصائص في مقابلة هذه اللفظة الواحدة لك ، لاستفرقت الوقت ، وأضيت الزمان ، ورب صحت أبلغ من نطق (٢) .

• • •

ثم نرجع إلى الحديث الأول ، فنقول : إن طلحة والزبير لما أسيا من جهة علي عليه

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة الثانية ٧٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قبله ، قَدْ لَهُ ظَهْرُ الْجَنِّ ، فكاشفاه وطائباه قبل المفارقة
جانباً لادما ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحة والزبير إلى علي عليه السلام قبل خروجهما إلى مكة مع محمد بن طلحة ،
وقالا : لا نقل : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل : « يا أبا الحسن » ، لقد قال فيك
رأينا ، وخاب ظننا . أصلحنا لك الأمر ، ووطدنا لك الإمرة ، وأجلبنا على عثمان حتى
قتل ، قلما طلبك الناس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وبابناك ، وقُدنا إليك أعناق
العرب ، ووطئ المهاجرون والأنصار أقدبنا في يَمَّتِكَ حتى إذا ملكت عنانك ،
استبددت برأيك عسا ، ورفضتنا رفض التريكة ^(١) ، وأدلتنا إذالة ^(٢) الإمام ، وملكك
أمرك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونزاع الأمصار ، فكذلك يمارجوناه
منك ، وأملناه من ناحيتك ، كما قبل الأول : ()

فَكُنْتُ كَمُهْرِيْقٍ لَدَى فِي سَفَانِهِ لِرَقْرَاقٍ آلِ فَوْقَ رَابِيَةِ صَلْدٍ

فلما جاء محمد بن طلحة ، أبلغه ذلك ، فقال : اذهب إليهما ، فقل لهما : فإني
برضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : وَلَاحِدُنَا الْبَصْرَةُ وَالْآخَرُ الْكُوفَةُ !
فقال : لاها الله ! إِنْ يَحْلُمُ الْأَدِيمُ ، وبسبب شري السداد ، وتنقض على البلاد من أقطارها ،
والله إلى لا آمهما وها عندي بالمدينة ، فكيف آمهما وقد وليتهما المراقين ! اذهب
إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سَطْوَةِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ ، ولا تهضبا للمسلمين فائله وكيداء ،
وقد سمعنا قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَكُمَا قَدْ بَيَّنَّ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) . فقام محمد بن طلحة فأنابها ، ولم يمد إليه ،
وتأخرا عنه أياما ، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذن لهما بعد أن أحلفهما

(٢) الإزالة : الإهانة .

(١) التريكة : التي تترك فلا يتروحها أحد .

(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألا يتقضا بيعته ، ولا يفسد رآيه ، ولا يشقا عصا المسلمين ، ولا يؤقعا الفرقة بينهم ، وأن
يمودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالدينة ، لحنفا على ذلك كله ثم خرجا فضلا ماصلا .

• • •

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لما خرج طلحة والزبير إلى مكة ، وأوزها الناس أنهما
خرجا للعمرة ، قال علي عليه السلام لأصحابه : والله ما يريدان العمرة ، وإنما يريدان
الفدرة (فَمَنْ سَكَتَ فَلَا تَمَّا بِسَكَّتْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى عَاهِدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْوْنِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ^(١)) .

وروى الطبري في التاريخ ، قال : لما بايع طلحة والزبير عليا عليه السلام ، سألاه أن
يؤتمرها على الكوفة والبصرة ، فقال : بل تكونان عندي أتجمل بكما ، فإنني
أستوحش لفراقكما .

قال الطبري : وقد كان قال لما قبل بيعتهما له : **إِنْ أَحْبَبْتُمَا أَنْ تَبَايَعَا نِي ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمَا
بَايَعَكُمَا ؛ فَقَالَا : لَا ؛ بَلْ نَبَايَعُكَ ؛** ثم قالَا بعد ذلك : **إِنَّمَا بَايَعَاهُ خَشْيَةً عَلَى أَنْفُسَاهُ ، وَقَدْ
عَرَفْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِهَيَايَاهُ .** ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبري أيضا في التاريخ قال : لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتم له الأمر ، قال
طلحة والزبير : **مَا أَرَى أَنْ لَنَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا كَيْتَةٌ ^(٢) أَفْ الْكَلْبِ .**

وروى الطبري أيضا في التاريخ ، قال : لما بايع الناس عليا عليه السلام بعد قتل
عثمان ، جاء علي إلى الزبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير : **فَاعْلَمْتُهُ بِهِ ، فَسَلَّ
السَّيْفَ ، وَوَضَعَهُ تَحْتَ فَرَاشِهِ ، وَقَالَ : ائْذَنْ لَهُ ، فَأَذْنَتْ لَهُ ، فَدَخَلَ فَلَمَّ عَلَى الزَّبِيرِ وَهُوَ
وَاقِفٌ .** ثم خرج ، فقال الزبير : **لَقَدْ دَخَلَ لِأَمْرِ مَقْصَاهُ ، قِمِّ مَقَامَهُ وَانْظُرْ : هَلْ تَرَى مِنْ**

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا في تاريخ الطبري ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوربا) ، والكلمة غير واضحة في الأصول .

(٢ - نهج - ١١)

السيف شيئا ! فقامت في مقامه ، فرأيت ذُباب السيف ، فأخبرته وقلت : إن ذُباب
السيف ليظهر لمن قام في هذا الموضع ، فقال : ذاك أمجل الرجل .

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك :
مِنْ مُصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ : سَلامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ
اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ :

سَتَمَسُّمْ يَا فَتَى الزُّرْقَاءِ أَنِّي سَأَهْنِكَ عَنْ حِلَالِكَ الْحِجَابِ
وَأَتْرِكَ بِلَدَةً أَصْبَحَتْ فِيهَا نَهْوَرُ مَنْ جَوَانِبُهَا حَرَامًا

أَمَا إِنَّ قِيَامَ عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ ؛ إِلَّا أَنْ تَرَجِعَ أَوْ تَتَوَبَّأَ وَلِعَمْرِي مَا لَمْتُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الزَّبِيرِ ، وَلَا مَرْوَانَ كَالزَّبِيرِ بْنِ الْمَوَازِ ، حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَابْنِ عَمَّتِهِ .
فَسَلِّمُ الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَإِنَّ عَمَانِكَ تَفْصِيكَ أَكْثَرُ الْعَنِيَمَتَيْنِ . وَالسَّلَامُ .
فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ عَبْدِ الْمَلِكِ :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَدَّالِ الَّذِي أَحْطَأَ مِنْ سَمَاءِ الْمُصْطَبِ ؛ سَلامٌ
عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ :

أَتُوَعِدُنِي وَلَمْ أَرَ مِثْلَ يَوْمِي خَشَّاشَ الطَّيْرِ بِوَعْدِنِ الْمُقَابَا
مَتَى تَلْقَى الْمُقَابَ حَشَّاشَ طَيْرٍ يَهْتِكُ عَنْ مَقَاتِلِهَا الْحِجَابَا
أَتُوَعِدُ بِالذَّنَابِ أَسْوَدَ غَابٍ وَأَشْدُّ الْعَابِ تَلْتَهُمُ الْقَذَابَا

أَمَا مَا ذَكَرْتُ مِنْ وَفَائِكَ ، فَلِعَمْرِي لَقَدْ وَفَّى أَبُوكَ لَتَيْمٍ وَعَدَى تَعْدَاءِ قَرِيشٍ وَزَعَافِهَا ،
حَتَّى إِذَا صَارَتِ الْأُمُورُ إِلَى صَاحِبِهَا عُمَانَ ، الشَّرِيفِ النَّسَبِ ، الْكَرِيمِ الْحَسَبِ ، بِمَاءِ
النَّوَائِلِ ، وَأَعْدَلِهِ الْخَفَاتِلِ ، حَتَّى نَالَ مِنْهُ حَاجَتُهُ ، نَمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى عَلِيٍّ وَبَايَعَهُ ، فَلَمَّا

دانت له أمور الأمة ، وأجمت له الكلمة ، وأدركه الحد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهده ، ونكت بيعته بعد توكيدها ، «فَكَرُّوا قَدْرًا ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدْرًا» ؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع . ولعمري إنك تعلم يا أخا بني عبد المزني بن قصي ؛ أنا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم تراث ذلك عن كلاله ، بل عن أيبك ، ولا أظن حصدك وحصد أحيك يؤول بكما إلا إلى ما آل إليه حصد أيبك من قبل ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْكَرُّ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ^(١) ؛ ﴿ وَسَيَمْلَأُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْمُنًا مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) .

وروي أبو عثمان أيضا ، قال : دخل الحسن بن علي عليهما السلام على معاوية ، وعند عبد الله بن الزبير - وكان معاوية يحب أن يفرغ من قريش - فقال : يا أبا محمد ، أيتها ما كان أكبر سنا ؛ علي أم الزبير ؟ فقال الحسن : ما فرقت ما بينهما ، وعلي أسن من الزبير ارحم الله عليا ! فقال ابن الزبير رحم الله الزبير - وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ، فقال : يا عبد الله ، وما يبهحك من أن يترحم الرجل على أبيه ؟ قال : وأنا أيضا ترحت على أبي ! قال : أنظنه نداه وكفوا ؟ قال : وما يمدل به عن ذلك اكلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتم له . قال : دع ذاك عك با عبد الله ؛ إن عليا من قريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولما دعا إلى نفسه أتبع فيه ، وكان رأسا ، ودعا الزبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما ترامت الفشتان نكص على عقبيه ، وولى مدبرا قبل أن يظهر الحق فيأخذ ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضائه لكان أصغر ، ف ضرب عنقه ، وأخذ قلبه ، وجاء برأسه ، ومضى على قدم ما كعادته مع ابن عمه ، رحم الله عليا !

(١) سورة طه ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

قال ابن الزبير : أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد ، لم أقال : إن الذي
تعرض به يرغب عنك . وكفه معاوية ، فسكتوا .

وأخبرت عائشة بمقاتلتهم ، ومرت أبو سعيد بختائها ، فعادته : يا أبا سعيد ، أنت للقائل
لابن أخى كذا ؟ فالتفت أبو سعيد ، فلم ير شيئا ، فقال : إن الشيطان يرانا ولا نراه !
فضحكت عائشة ، وقالت : لله أورك أما أدنى لسانك !

(١٩٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام
حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ تَوَصَّفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ،
وَذَكَّرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَأَنَّ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَعَ فِي الْمَذِرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ
سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

أَلَهُمْ أَحَقُّ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلَحَ دَأْبُ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ، وَأَهْدَى مِنْ صَلَاتِهِمْ ،
مَنْ يَعْرِفُ أَلْحَقَ مَنْ جِهَهُ ، وَيَرْحَمِي عَنِ الْغَىِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ !

• • •

الشرح :

السب : الشتم ، سبه بسبه بالضم ، والنسب : النشام ، ورجل مسب بكسر الميم :
كثير السباب ، ورجل سبة ، أى بسبه الناس ، ورجل سببة ، أى بسب الناس ، ورجل
سب : كثير السباب ، وسبك : الذى بسبك ، قال :

لَا تَسْبِقْنِي فَلَنْتَ سِيقِي إِنْ سِيقِي مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ^(١)

والذى كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتمون أهل الشام ، ولم يكن بكره
منهم لعنهم إياهم ، والبذاءة منهم ، لا كما يتوهم قوم من المشوبة ، فيقولون : لا يجوز

(١) لحد الرحمن بن حسان ، وانظر الصحاح ١ : ١٤٥ .

لمن أحذر ممن عليه اسم الإسلام ، وينكرون قَلَى مَنْ يلمن ، ومنهم مَنْ يُنَالِي في ذلك ، فيقول : لا أَلْمَن الكافر ، ولا أَلْمَن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحذر يوم القيامة : لم لم تلمن ؟ وإنما يقول : لَمْ كَلَمْت ؟

واعلم أن هذا خلاف نص الكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال في إبليس : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ آمَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ ^(٤)

وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر العذر بمن يجب العذر منه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ ^(٥) وإنما يجب النظر فيمن قد اشبهت حاله ؛ فإن كان قد عارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة ؛ فلا ضير على مَنْ يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد عارف كبيرة لم يجز لعنه ، ولا البراءة منه .

ومما يدل على أن مَنْ عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه ، بل يجب في وقت ، قول الله تعالى في قصة القنان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .

(٢) سورة البقرة ١٥٩ .

(٣) سورة من ٧٨ .

(٤) سورة الأحزاب ٦١ .

(٥) سورة الممتحنة ٤ .

لَيْنَ الصَّادِقِينَ • وَأَتْلَافِيسَةٌ أَنْ لَمَنَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (١) .
 وقال تعالى في القاذف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِينُوا فِي أَهْثِنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .
 فهاتان الآيتان في المكلفين من أهل القبة ، والآيات قبلهما في الكافرين والنافقين ؛
 ولهذا قنّت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، راعينهم في
 أديار الصلوات .

فإن قلت : فما صورة السب الذي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟
 قلت : كانوا يشتمونهم بالآباء والأمهات ، ومنهم من يظن في سب قوم منهم ،
 ومنهم من يذكرهم بالثوم ، ومنهم من يسيّرهم بالجن والبخل وبأنواع الأهاجي التي
 يتهاجى بها الشراء ، وأساليبها معلومة ، فيها من عليه السلام عن ذلك ، وقال : إلى أكره
 لكم أن تكونوا سبائين ؛ ولكن الأصوب أن تصفوا لهم أعمالهم ، وتذكروا حالهم ؛
 أي أن تقولوا : إنهم فساق ؛ وإنهم أهل حلال وباطل .

ثم قال : اجملوا عيوض سبهم أن تقولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم !
 حقت الدم أحقنه ، بالصم : منعت أن يسفك ، أي ألحيمهم الإنابة إلى الحق والعدل
 عن الباطل ؛ فإن ذلك إذا تم حقت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يعله ؟ أليس من أصولكم أن الله
 تعالى لا يضطر للكف إلى اعتقاد الحق ، وإعما يكله إلى نظره ؟ !
 قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلا أن المكلفين قد تعبدوا بأن يدعوا الله تعالى

(١) سورة النور ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور ٢٣ .

بنك، لأنّ في دعائهم إلهة منك لطفاً لم ومصالح في أديانهم ؛ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل .

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ بمعنى أحوالنا وأحوالهم . ولما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدور قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : استغنى ذا إيمانك لما كان ما فيه من الشراب ملابسا له ، ويقولون للعتبر قد وضع ذا بطنه ؛ وللعيل تضع : ألفت ذا طائها .
وارعوى عن النفي : رجع وكف .

لمحج به بالكسر ، لمحج : أعرى به وثار عليه .

(٢٠٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صيفين وقد رأى الحسن ابنه عليه
السلام يتسرع إلى الحرب :

أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْفَلَامَ لَا يَهْدِيَنِي ؛ فَإِنِّي أَنفُسُ يَهْدِيَنِي - يَمْنِي الْحَسَنُ
وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام - عَلَى الْوَتِّ لِنَلَّا بِنَفْطِخَ بِيهَا نَتْلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ الرَّضِيُّ أَبُو الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْفَلَامَ »
مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَأَمَّا :

• • •

الشرح :

الألف في « أَمْلِكُوا » ألف وصل ، لأن الماضي ثلاثي ، من ملكت الفرس والعبد
والدار ، أَمَلِكُ بالكسر ، أى احصروا عليه كما يحصرُ للالك على مملوكه .

وعن ، متعلقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأسدوه عني . ولما كان الملك سبب
الحجر على المملوك هجر بالسبب من المصَّب ، كما عبر بالسكاح من النقد ، وهو في الحقيقة
اسم الوطاء ، لما كان العقد طريقاً إلى الوطاء ، وسببها .

ووجه علو هذا الكلام وفصاحته أنه لما كان في : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بين ، وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد أبدروه عنه؛ ألا ترى أنك إذا حشرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ؛ فذلك قال : املكوا على هذا الملام ، واستصحب الشارحون قول أي الطيب :

إذا كان شتم المروءح أدنى إليكم فلا يرحتني روضة وقبول^(١)

قالوا : ولما كان في « فلا يرحتني » معنى « فارتحتني » عدوى اللفظة ، وإن كانت لازمة ، نظرا إلى المعنى^(٢) .

قوله : « لا يهدني » أي ثلاث يهدني ، لحذف كما حذف معرفة في قوله :

• ألا أهدى الزاحري أحصر الوقي^(٣) •

أي لأن أحضر

وأفس : أبخل ، نفقت عليه بكثرا ، بالكسر

فإن قلت : يجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : يا أبناء رسول الله وولد رسول الله ، وخدية رسول الله ، ونسل رسول الله ؟

قلت : نعم ؛ لأن الله تعالى سماهم « أبناء » في قوله تعالى : (ندع أبناءنا وأبناءكم)^(٤) ، وإنما عني الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بما دخل فيه أولاد البنات ، وسمى الله تعالى عيسى خدية إبراهيم في قوله : (ومن ذريته داود وسليمان)^(٥) إلى أن قال : (ويحيى وإسحق) ؛ ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل .

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من اللطاة - بفتح التهميزي ٨٠ ، وبجته :

• وأن أشهد ألقذات هل أنت محلي •

(٣) سورة آل عمران ٦٦ .

(٤) سورة الأسم ٨٤ .

فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) ؟ قلت :
أسألك عن أبوته لإبراهيم بن مارية ؛ فكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابي عن الحسن
والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عني زيد بن حارثة ؛ لأن العرب كانت تقول : « زيد بن محمد »
على مادتهم في نفي المبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنة الجاهلية ، وقال : إن محمداً
عليه السلام ليس أباً لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتري إليه بالنبوة ،
وذلك لا ينفى كونه أباً لأطفال ، لم تطلق عليهم لفظة الرجال ، كما إبراهيم وحسن وحسين
عليهم السلام .

فإن قلت : أقول إن ابن البنّات ابنٌ على الحقيقة الأصلية أم على سبيل الجوار ؟
قلت : لذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية ؛ لأن أصل الإطلاق الحقيقة ، وقد يكون
اللفظ مشتركاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر ، ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألا
يكون حقيقة في الآخر .

ولذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرقية ، وهي التي كثر استعمالها ؛ وهي في الأصل كثر
مجاز ؛ حتى صارت حقيقة في العرف ، كالرارية للزادة ، والسماء للمطر .
ولذاذهب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع ، مجاز إطلاقه في كل حال ؛
واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدل على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافة بالنهي عليه السلام ، أنه ما كان
يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ،
وإن بُعِذَ وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبيين وغيرهم ؛
وهذا يدل على مزيد الأقرنية ، وهي كوسم أولاده ، لأنه ليس هناك من القرّبي غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخيه ، ولا هناك وجه يقتضى حرصهم عليه إلا كونه والياً لهم ، وكونهم أولاداً له ، فإن قلت قد قال الشاعر :

مَنُونًا بَنُو أَبْنَانًا وَبَنَاتُنَا • بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبْعَادِ

وقال حكيم العرب أكنم بن صيفى فى الهنات يذمتهم : إسن يلدن الأعداء ، وبورثن المعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس فى قول أكنم ما يبدل على نقي نوتهم ، وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً ، قال الله تعالى :

(إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ) (١) ، ولا ينفى كونه عدواً كونه ابناً ، قيل لحمد ابن الحنفية عليه السلام : لم يمزرك أبوك فى الحرب ، ولم ياهرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناها ؛ وأنى يحينه ، فهو يكب من عينيه يمينه .

(٢٠١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قال لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة :
أيها الناس ، إنه لم يزل أمرى منكم على ما أحب ، حتى نهكتكم الحرب ،
وقد والله أخذت منكم وتركت ، ومن ليدوكم أنهلك .
لقد كنت أمر أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت أمر ناهياً ، فأصبحت
اليوم منيهاً . وقد أحببتكم البقاء ؛ وليس لي أن أجعلكم على ما تكرهون .

(...)

الشرح :

نهكتكم ، بكر الهاء : أدقنكم وأذاجمكم ، ويجوز فتح الهاء ، وقد نهك الرجل
أي دنف وضى ، فهو منهوك . وعليه نهكة للرض ، أي أثره الحرب ، مؤثثة .
وقد أخذت منكم وتركت ، أي لم نتأصلكم ، بل فيكم بعد بقتية ، وهي لعدوكم
أسك ، لأن القتل في أهل الشام كان أشد استعزارا ، والوهم فيهم أظهر ، ولولا فساد
أهل العراق برفع الصحاف ، لاستوصل الشام ، وخلص الأشتر إلى معاوية ، فأخذ بهنقه ،
ولم يكن قد بقي من قوة الشام إلا كعركة ذنب الوزغة عند قتلها ، يضطرب يميناً وشمالاً ؛
ولكن الأمور السماوية لا تغالب .

فأما قوله : « كنت أمر أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً » ، فقد قدمنا شرح عالم
من قبل ، وأن أهل العراق لما رفع عمرو بن العاص ومن معه للصحاف على وجه المكيدة

حين أحسّ بالمطب وعلوّ كلمة أهل الحقّ ، أزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأيدي عن القتال ، وكانوا في ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وعلب على غلته أن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقاً ودعاءً إلى الدين وموحب الكتاب ، فرأى أن الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب ، وآثر السُّلم ، فصا رأى شبهة ما يسوغ التمتع بها في رفض المحاربة وحبّ العافية أحله إليهم .

ومنهم مَنْ كان يتعصّب علماً عليه السلام بباطنه ، ويطيعه بظاهره ، كما يطيع كثير من الناس السلطان في الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلما وجدوا طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته ، أمرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكري عليه السلام وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم المكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، وإني أعرف ما تقوم منكم ، إنيهم ليسوا بأصحاب قرأت ولا دين ، قد صعبتهم وهرقهم صغيراً وكبيراً ، عرفت منهم الأمراض عن الدين ، والركون إلى الدنيا ، فلا تراخوا برفع المصاحف ، وصتموا على الحرب ، وقد ملكتموم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذمّاء قليل . فأبوا عليه ، وألحوا وأصرّوا على القمود والخذلان ، وأمهروا بالإغاذل إلى المحاربين من أصحابه ، وعليهم الأشر أن يأمرهم بالرجوع ، وتهذّبوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشر يأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمرات الظفر أقولوا له : « ليمهل ساعة واحدة » ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت . فلما عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا وغرّوا وشغبوا ، وقالوا : أنشدت إلى الأشر من أوطانك ، تأمره بالتصميم ، ونهاه عن الكفّ ، وإن لم تيمدّ الساعة ، وإلّا قتلنا عثمان ، فرجعت الرّسل إلى الأشر فقالوا له : أحبّ أن تظهر بمكانك وأمر المؤمنين قد سلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخير ؟ قل : إن الجيـش بأسره قد أحـرق به ، وهو قاعد
بينهم على الأرض ، تحته يطع ، وهو مطرق ، والبارقة تلع على رأسه ، يقولون : لنـ لم تـمد
الأشتر قتلـك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت
حين رأيتها رفعت أنها ستوقع فرقة وفئة .

نم كرت راجعا على عقبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر ، قد رده
أصحابه بين أمرين : إما أن يسلموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلا ولده
وابن عمه وشر قليل لا يهلمون عشرة ، فلما رأاهم الأشتر ستم وشتمهم ، وقال : ويحكم !
أمد الظنم والتعمر صب عليكم الخذلان والفرقة ! يا ضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء !
يا سفهاء العقول ! فشتبوه وسبوه ، وقهروه وقظروا : المصاحف المصاحف ! والرجوع إليها ،
لا رى غير ذلك ! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعا للمحذور الأعظم
بارتكاب المحذور الأصغر ، فلذلك قل : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت
نأهما فصرت منيها » . وقد سبق من شرح حال التحكيم وما جرى فيه ما يعنى من إعادته .

(٢٠٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على الملاء بن زياد الحارثي ؛
وهو من أصحابه يموده ، فلما رأى سعة داره قال :

مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا ، أَمَا أَنْتَ إِنِّي فِي الْآخِرَةِ كُنْتُ أَخْرَجُ
وَعَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَدْتُ بِهَا الْآخِرَةَ : تَقْرَى فِيهَا الصَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ
مِنْهَا الْمَلُوقَ مَطْلَامَهَا ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَدْتَ بِهَا الْآخِرَةَ !
قَالَ لَهُ الْمَلَاءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَحْيَى عَاصِمَ بْنِ زِيَادٍ .
قال : وما له ؟

قال : لَيْسَ الْعَبَاءُ ، وَتَحْمَلُ مِنَ الدُّنْيَا .

قال : قُلْ بِهِ . فلما جاء ، قال :

يَا أَعْدَى نَفْسِي ! أَقْدِرْ أَشْتَهَامَ بَيْتِ الْخَلِيفَةِ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللَّهَ
أَحْلَ لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ بِكَرَّةٍ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ !
قال :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلِكِكَ ، وَجُشُونَةِ مَا كَلِمَةٍ !

قال :

وَبِحَمْدِكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللَّهَ نَمَالَ فَرَضَ عَلَى أُمَّةٍ أَلْقَى أَنْ يُخَدَّرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِضَعْفَةِ النَّاسِ ، كَثِيلًا يَتَّبِعُ بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ !

الشرح

كنت هاهنا زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ^(١) .

وقوله : « وبلى إن شئت بلمت بها الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنه استدرك ، وقال : وبلى هل أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها صلة إلى بلى الآخرة .
بأن تقرى فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : ضيوف وأضياف . والرحيم : القرابة .

ونطلع منها الحقوق مطالعها : نوقمها في مغان استحقاقها .
والمباء جمع عبادة ، وهي الكمال وقد تثنى ، كقَالُوا : قِطَاءً وَهَنَابَةً ، وصلاة وصلاة .
وتقول : على بخلان ، أى أحضيرة ، والأصل أهمل به على ، لحذف فصل الأمر ، ودلّ الباقي عليه .

وبأعدى نفسه ، تصير « عدو » ، وقد يمكن أن يراد به التقدير المحض هاهنا ، ويمكن أن يراد به الاستعظام لعداوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التعنن والشفقة ، كقولك : يا بنى .

واستهام بك الخبيث ، بنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالاً ، والهاء زائدة .
فإن قيل : ما معنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟
قلت : لأنّ فى الشاهد قد يحلّ الواحد منا لصاحبه فضلاً مخصوصاً ، بحبابة ومراقبة ،

(١) سورة مريم ٢٩ .

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهون على الله تعالى من أن يحلّ لهم أمراً مجاملة واستصلاحاً للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ! » ، أى فإنا نراك حشاً لللبس ! والتقدير : « فها أنت تفعل كذا ، فكيف تنهى عنه ! »

وطعام جشيب ، أى عليظ ، وكذلك عشوب ، وقيل : إته الذى لا أؤمّ معه .

قوله عليه السلام : « أن يهذروا أنفسهم بصفة الناس » ، أى يشبهوا ويمثلوا .
وتبّع الدم بصاحبه ، وتبوّغ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالخعامه لا يتبّغ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبّع » يتبّغى ، قلب ، جذب وجذب ، أى يجب على الإمام العادل أن يشبه نفسه فى لباسه وطعامه بصفة الناس - جمع ضيف - لكيلا يهلك العقراء من الناس ، فإنهم إذا رأوا إمامهم تلك الهيئة وبذلك المطعم ، كان أدعى لهم إلى سلوان لذات الدنيا والعصر عن شهوات القموس .

• • •

[ذكر بعض مقامات العارفين والزهاد]

وروى أن قوماً من المتصوفة دخلوا خراسان على بن موسى الرضى ، فقالوا له : إن أمير المؤمنين فكر فى ولاء الله من الأمور ، فرآكم - أهل البيت - أولى الناس أن تؤمّوا الناس ، ونظر فىك من أهل البيت ، فرآك أولى الناس بالناس ، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك ، والإمامية تحتاج إلى من يأكل الجشيب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحمار ، ويمرود المريض . فقال لهم : إن يوسف كان نبياً ، يلبس أقمية الديباج المرورة بالذهب ، ويجلس على متكآت آل فرعون ، ونحسكم ؛ إنا نريد من الإمام قسطة وعدله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إن الله لم يحرم لبوساً ولا طعاماً ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَعَامَهُ وَالزَّيْنَةَ مِنَ الرِّزْقِ . . . ﴾ ^(١) الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه ، وفلاسفة في هذا الباب كلام لا بأس به ، وقد أشار إليه أبو علي بن سينا في كتاب " الإشارات " وعليه يخرج قول أمير المؤمنين وعلي بن موسى الرضى عليهما السلام . قال أبو علي في مقامات العارفين : « العارفون قد يختلفون في المهم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي المير ، فربما استوى عند العارف الكشف والتعرف ، بل ربما أثر الكشف ، وكذلك ربما سوى عنده التفضل والمطر ، بل ربما أثر التفضل ، وذلك عند ما يكون المهاجس بهالة ، استحقار ما هذا الحق ، وربما صاعا إلى الرينة ، وأحب من كل شيء عقيلته ^(٢) ، وكره الخداج والسقط ، وذلك عندما يستمر عذته من محبته الأحوال الطاهرة ، فهو يرناد إليها في كل شيء ، لأنه مرتبة خطوة من العناية الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا في عارفين ، وقد يختلف في عارف بحسب وقتين .

واعلم أن الذي رويته عن الشيوخ ، ورأيت بخط عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله ، أن الربيع بن زياد الحارثي ، أصابته شابة في جبينه ، فكادت تنقص عليه في كل عام ، فأناه على عليه السلام عائداً ، فقال : كيف تحمك أبا عبد الرحمن ؟ قال : أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما لي إلا مذهب نصرى لتميت دهابه ، قال : وما قيمة بصرك عندك ! قال : لو كانت لي الدنيا نقدتني بها ، قال : لا جرم أيعطيتك الله على قدر ذلك . إن الله تعالى يعطي على قدر الأمل والمصيبة ، وعنده نصيف كثير . قال الربيع :

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) الثبلة من كل شيء . أسكرمه ، جميعها غلائل

بأمر المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخى ؟ قال : ماله ، قال : لبس للعباء، وترك الللاء ، وغنم أهله ، وحزن ولده .

فقال على : لاذعوا لى عاصما ، فلما أناه عبس فى وجهه ، وقال : ويحك يا عاصم ان ترى الله أباح لك الذات، وهو يكره ما أخذت منها ! لأنك أهون على الله من ذلك. أو ما سمعته يقول : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ^(١) ، ثم يقول : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُوءُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُؤٍ تَكُونُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْفَخُ جُودَ حِلْيَةٍ تَلْبَسُونَهَا ﴾ ^(٣) ، أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من اجتذالها بالمقال ، وقد سمعتم الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بَيْتَةُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، إن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ^(٥) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ^(٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض سائيه : « مالى أرايك شعثاء مرهأ سلقاء » ^(٧) .

قال عاصم : فلم أقصرت بأمر المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشيب ؟ قال : إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم ما لقوام ، كيلا يتبجح بالفقير فقره . فاقام على عليه السلام حتى رجع عاصم للعباء ، ولبس ملأة .
والزبيح بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر : دُلُونى على رجل إذا كان

(١) سورة الرحمن ١٩ .

(٢) سورة الرحمن ٢٢ .

(٣) سورة طهر ١٢ .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) سورة البقرة ١٧٢ .

(٦) سورة المؤمنون ٥١ .

(٧) المرهأ : التى لا تكتمل . والسقاء : التى لا تحضب .

في القوم أميراً فكانه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير فكانه الأمير بعينه !
وكان خيراً متواضعاً، وهو صاحب الوقفة مع عمر لما أحضر العمال فوختش له الربيع،
وتقشف وأكل معه الخشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرف الباقي، وقد ذكرنا
هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان : إن أمير المؤمنين
معاوية كتب إلى يأمرك أن تحرر الصفراء والبيضاء وتقسّم الحرثي^(١) وما أشبهه على أهل
الحرب . فقال له الربيع : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى في
الناس : أن اغدوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين ، ثم دعا الله أن يعينه ؛
فاجمع حتى ملت .

وهو الربيع بن زياد بن أسد بن دينار بن قطم بن زياد بن الحارث بن مالك بن
ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وهلة بن خالد بن مالك
ابن أدد .

وأما العلاء من زياد الذي ذكره الرضى رحمه الله فلا أعرفه ، لعلّ غيري يعرفه .

(١) الحرثي : أردأ النجاع .

(٢٠٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، ومما في أيدي
الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام :

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا ، وَصِدْقًا وَكَذِبًا ، وَنَاسِيحًا وَمَنْفُوحًا ، وَعَامًّا
وَخَاصًّا ، وَنَحْسَكًا وَمُنْشَأِيًّا ، وَحِفْظًا وَوَهْمًا .

وَقَدْ كَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا ،
فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَقْبَلُوا مَقْعَدُكُمْ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَنْتَ بِالْحَدِيثِ
أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ حَاسِبٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُتَعَمِّدٌ بِالْإِسْلَامِ ، لَا يَتَأَنَّمُ وَلَا يَتَعَرَّجُ ،
يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّدًا ، قُلُوْا عِلْمَ النَّاسِ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ
لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَأَاهُ وَتَمِيعَ مِنْهُ ، وَلَقِيتُ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنْ
الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ قُلُوبُكَ ، ثُمَّ يَقُولُوا تَعْدَهُ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَلِيَّةِ
الضَّلَالَةِ ، وَالذُّهَاءِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْهَتَائِ ، قَوْلُهُمْ الْأَعْمَالُ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا
عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا يَوْمَ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْفُلُوكِ وَالْذُّنُبِ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ
اللَّهُ . فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ تَمِيعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْفَظُهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَيْمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كُذِّبًا فَهُوَ فِي بَدْيِهِ ، وَبِرُؤْيِهِ وَبِمَلِّ يَدِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قُلُوا عِلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عِلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، تَمِيعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، بِأَمْرٍ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ حَيَّ عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ النَّسُوحَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، قُلُوا عِلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوحٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عِلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوحٌ لَرَفَضُوهُ .

وَأَخْرُ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْتِغِيًا لِكُذِّبِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ ، وَتَمْطِيلًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَتِمَّ ، بَلْ حَفِظَ مَا تَمِيعَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى تَمِيعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَقِيلَ بِهِ ، وَحَفِظَ النَّسُوحَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَغَرِبَ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ، وَالْحُكْمُ وَالْمُنَاشَاةُ ، فَوَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ ، فَكَلَامٌ حَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْتَمِعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَحِيلُهُ السَّامِعُ ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى عَذْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ ، وَمَا نَصَدَّ بِهِ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَخْلِهِ ، وَلَيْسَ كُنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَيَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَخْبِيَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ إِلَّا سَأَلَتْهُ عَنْهُ ، وَحَفِظَتْهُ .

فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعِلْمِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

الشرح :

الكلام في تفسير الألفاظ الأصولية ؛ وهي العام والخاص ، والناسخ والنسوخ ، والصدق والكذب ، والحكم والنشأ ، موكول إلى فن أصول الفقه ، وقد ذكرناه فيما أمليناه من الكتب الأصولية ، والإطاقة بشرح ذلك في هذا الموضع مستهجنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا ووهما » الهاء مفتوحة ، وهي مصدر وهت ، بالكسر ، أَوْهَمَ ، أى غلطت ومهوت ، وقد روى : « وَهْمًا » بالتسكين ، وهو مصدر وهت بالفتح أَوْهَمَ ، إذا ذهب وهْمُك إلى شيء وأنت تريد غيره ، والمعنى متقارب .

وقول النبي صلى الله عليه وآله : « فلينبوا مقدمه من النار » كلام صيفته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا »^(١) ، وتبوءات المنزل : نزله ، وبوءاته منزلا : أركبته فيه .

والقائم : الكف عن موجب الاسم ، والتعرج مثله ، وأصله الضيق ، كأنه بضيق حل نفسه .

ولَقِفَ عنه : تناول عنه .

وجَنَّبَ عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إن » في قوله : « حتى إن كانوا ليعتبون » محففة من الثبوت ، ولذلك جاءت اللام في الخبر .

والطارى ، بالهمز : الطالع عليهم ، طرأ أى طلع ، وقد روى : « عظمهم » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجزم عطفا على « اختلاهم » .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان في أيام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون ، وبُغُوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إن التفريق مات بموته ، والسبب في استنثار حالم بعده أنه صلى الله عليه وآله كان لا يزال بذكرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنه مشعرون بذكرهم ، ألا ترى أن أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين ، فكان السبب في انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن ، فلما انقطع الوحي بموته صلى الله عليه وآله لم يبق من يثنى عليهم سقطينهم ويؤنبهم على أعمالهم ، ويأسر بالحدود منهم ، ويحاهرهم تارة ، ويعاملهم تارة ، وصار المتولى للأمر بعده يحيل الناس كلهم على كاهل المحاملة ، ويعاملهم بالطاهر ، وهو الواجب في حكم الشرع والسياسة النبوية ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان تكليفه معهم غير هذا التكليف ، ألا ترى أنه قيل له : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ ^(١) فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلا كان النهي له عن الصلاة عليهم تكليف مالا يطاق ، والوالى بعده لا يعرفهم بأعيانهم ، فليس محاطباً بما خوطب به صلى الله عليه وآله في أمرهم ، ولسكون الخلقاء عنهم بعده خجل ذكرهم ، فكان قصارى أمر المنافق أن يسير ما في قلبه ، ويعامل المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فتحت عليهم البلاد ، وكثرت الضائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات التي كانوا يعتمدونها أيام رسول الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم ، فألهتهم الدنيا عن الأمور التي كانت تنفعهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم من استقام اعتقاده ، وحلصت نيته ، لما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا أولاد كبدتها من الأموال المغلوبة ، والسكنوز الجليلة إليهم ، فقالوا : لو لم يكن هذا الدين

حقاً لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . وبالجملة لما تركوا تركوا ، وحيث سكبت عنهم سكتوا
عن الإسلام وأهله ؛ إلا في دسيسة حثية بعملوها ، نحو الكذب ، الذي أشار إليه أمير
الؤمنين عليه السلام ، فإنه خالط الحديث كذب كثير ، صدر عن قوم غير صحيحين
العقيدة ، قصدوا به الإحلال ونخبط القلوب والمقائد ، وقصد به نصهم القنوية بذكر
قوم كان لهم في القنوية بذكرهم غرض دسوي . وقد قيل : إنه اقتيل في أيام معاوية
خاصة حديث كثير على هذا الوجه ، ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن
هذا ، بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبينوا وضعها ؛ وأن رواها غير
موثوق بهم ، إلا أن المحدثين إنما يطمنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتعاسرون في
الطمن على أحاديث الصحابة ؛ لأن عليه لطم « الصحبة » ؛ هل أنهم قد طعنوا في قوم
لهم صحبة كبشر بن أرطاة وغيره ()

بار قلت : من مائة الصلاة ، الذين يجترئون عليهم الماضون الذين رأوا رسول الله
صلى الله عليه وآله ، ومحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هذا إلا تصريح بما تذكره
الإمامية ، وتستفده ؟

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنوا ، وإنما ينو معاوية وعمر بن العاص ومن
شابههما على الضلال ، كالكثير الذي رواه من رَوَاهُ في حق معاوية : « اللهم قهر العذاب
والحساب ، وعلم الكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرأ بها إلى قلب معاوية : « إن آل
أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما وآتي الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم في أيام معاوية
أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرأ بها إلى معاوية بها ، ولست أجد فضل عثمان وسابقته ،
ولكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كغير عمرو بن مرة فيه وهو مشهور ،
وعمر بن مرة ممن له صحبة ، وهو شامي .

[ذكر بعض ما مئني به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إن بعض الأحبار الواردة في حق شخص فاضل مفتعلة أن تكون قاذبة في فصل ذلك الفاضل ؛ فإننا مع اعتقادنا أن علياً أفضل الناس ، نعتقد أن بعض الأحبار الواردة في فضائله مفتعل ومخلق .

وقد روى أن أبا حمزة محمد بن علي الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يا فلان ، ما كنا من ظلم قريش إلاننا ، وتطاهروا علينا ، ومالنا شيعتنا ومحبونا من الناس ! إن رسول الله صلى الله عليه وآله قيس وقد أحرأنا أولى الناس بالناس ، قتالنا هلبنا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه ، واحتجعت على الأنصار محققنا وحققنا . ثم تداولتها قريش ، واحد بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فلكنت بيقتنا ، ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحب الأمر وصمود كنود ، حتى قتل ، فبوج الحسن ابنه ومعه عذره ، وأسلم ، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه ، ونهبت عسكره ، وعلجت حلاليل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقق دمه ودماء أهل بيته ، وهم قليل حتى قليل . ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً ، ثم غدروا به ، وخرجوا عليه ، وبيمته في أعناقهم وقتلوه ، ثم لم يزل - أهل البيت - نستدل ونستصام ، ونقصي ونمهن ، ونحرم وقتل ، ونحاف ولا نأمن على دمانا ودماء أوليانا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم ومخوادم موضعاً يتفرون به إلى أوليائهم وقضاة السوء ، وعمال السوء في كل بلدة ، مخدعون بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عتاً مالم تقه وما لم تفعله ، ليبعضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فهتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأبدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر محبتنا والاضطهاد إلينا سجين أو نهب ماله ، أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد ،

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتيعة ، وأخذهم بكل غيلة وشبهة ، حتى إن الرجل ليقال له : زنديق أو كافر ، أحب إليه من أن يقال : شيعي علي ، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير حوله يكون ورعاً صديقاً . يحدث بأحاديث عظيمة مجيبة ، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق ! لكثرة من قد رَوَاهَا مَنْ لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع .

وروى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف اللدائني في كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمار الجعفي : أن رئت الذئبة ممن روى شيئاً من فصل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كل منبر ، يلتمنون علياً ويبرهون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ؛ وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة من بها من شيعي علي عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سموة ، وضم إليه البصرة ، فكان يتبع الشبهة وهو يرمي طرف ؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام ؛ فقتلهم تحت كل حَجَرٍ وَمَذْرَأَةٍ ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصَلَبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية إلى عمار في جميع الأفاق : ألا يجيزوا لأحد من شيعي علي وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا من قبلكم من شيعي عثمان ومعبيهم وأهل ولايته ؛ والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فأدنوا بحالهم وقرَّبوهم وأكرمواهم ، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم ، واسم واسم أبيه وعشيرته .

فعلوا ذلك ، حتى أكتروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يمتد إليهم معاوية من الصلوات والسيكاه والحجاء والقطائع ، وفيضه في العرب منهم والموالي ؛ فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في النازل والهدنيا ، فليس يحى أحد مردود من الناس عاملاً من

عمال معاوية ، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه . فليثوا بذلك حيناً .

ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وقتاً في كل معروفي كل وجه وتاحية ؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا حبراً يرويه أحد من المسلمين في أي تراب إلا وتأتوني بمنافس له في الصحابة ؛ فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ، وأشد إلبهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة معتلة لا حقيقة لها ، وجدت الناس في رواية ما يحرى هذا الجري حتى أشادوا بذكر ذلك على الناس ، وألقوا إلى معلى الكتابيب ؛ فعملوا حيلهم وغلصامهم من ذلك الكثير الواسع حتى زووه وتعلموه كما يعظمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونسائهم وخدماهم وحشهم ، فليثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته ، فاحموه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من آهنتوه عموالة هؤلاء القوم ، فذكروا به ، واهدوا داره . فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام كيأتيه من يثق به ، فيدخل بيته ، فيلقى إليه سره ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان المليظة ، ليكتمن عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك التفهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء للراعيون ، وللمستضعفون ، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيتمثلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم ، ويقرروا بحالهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع

والمنازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها وزووها ، وهم يظنون أنها حق ، ولو عدوا أنها باطلة لما زووها ، ولا تدبئوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو حائف على دمه ؛ أو طريد في الأرض .

ثم تعاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، ووُلِّيَ عبد الملك بن مروان ، فاشهد على الشيعة ، ووُلِّيَ عليهم الحجاج بن يوسف ، فقترب إليه أهل التمسك والصلاح والدين ببعض على وموالاة أعدائه ، وموالاة من بدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضيلهم وسوابقهم ومناقضهم ، وأكثروا من المعنى من علي عليه السلام وعييه ، والظن فيه ، والشأن له ، حتى إن إنساناً وقع بالحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي - عبد الملك بن قُريب - فصاح به : أيها الأمير إن أهل عتري فسؤني علياً ، وإني فقير بئس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج . فصاحك له الحجاج ، وقال : لِلْطُفِّ ما توسلت به قد وأيتك موضع كذا .

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر الحديث وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُتلت في أيام بني أمية ، تقرُّباً إليهم بما يظنون أنهم يرعون به أنوف بني هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علي عليه السلام يسوء أن يذكر الصحابة ولتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبني أمية كانوا يبنون الأمر من هذا على ما يظنون في علي عليه السلام من أنه عتوٌّ من تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر في الحقيقة كما

يظنونه ، ولكنه كان يرى أنه أفضل منهم ، وأنهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم ، ولا براءة منهم .

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا في الخبر الذي رواه عبد الله بن عمر : « إن الثبوت ليعذب بكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لما روى له هذا الخبر ، قال : ذهل ابن عمر ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهودي ، فقال : إن أهله ليكون عليه ، وإنه ليعذب .

وقالوا أيضاً : إن عائشة أنكرت ذلك ، وقالت : ذهل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل في خبر قليب بدر ، إنما قال عليه السلام : « إنهم ليكون عليه » ، وإنه ليعذب بحرمة . قالوا : وموضع غلظه في حجر قليب أنه روى ابن أبي عمير عن النبي صلى الله عليه وآله وقف على قليب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » ؟ ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت : إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ (١) .

فأما الرجل الثالث ، وهو الذي يسمع للتسوخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيراً ، وكثرت الحديث والفقه مشعونة بذلك ، كالقنبر أبا حوا لحوم الحمر الأهلية ظهر رواه في ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم .

وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام »

« وجهان » ، فهذا داخل في القسم الثاني وغير خارج عنه ، ولكنه كالنوع من الجنس ، لأن النوع والغلط جنس تحت أنواع .

• • •

واعلم أن أمر المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصلوات ورضوان الله عليهم بخلافات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما ، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتداء النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتتقيد ولم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم من يهابه أن يسأله ، ومن الذين يحبون أن يسألوا في الأمور أو الطاريء فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم من كان بليداً بعيد الفهم قليل الخطة في النظر والبحث ، ومنهم من كان مشغولاً عن طلب العلم وفهم المعاني ، إما بعبادة أو دنيا ، ومنهم للقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم المنهض الثاني الذي ليس للذين عنده من الموقع ما يرضيهم وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر انحصار بطل عليه السلام ذكوره وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحلل قابلاً منتهيًا ، كان الفاعل للثبوت موجوداً ، وللوانع مرتفعة ، حصل الأمر على أتم ما يمكن ؛ فلذلك كان على عليه السلام - كما قال الحسن البصري - رباني هذه الأمة وذا فضلها ؛ ولذا نسبته الفلاسفة : لإمام الأئمة وحكيم العرب .

[فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث]

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث المضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا

في مداد الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حلهم على وضعها عدواة خصومهم ، نحو حديث « السطل » وحديث « الرمانة » وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين ، وتعرف كما زعموا بـ « ذات الملم » ، وحديث غسل سنان الفارسي ، وطلت الأرض ، وحديث الجحمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البكرية ما صنعت للشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، نحو « لو كنت متخذاً حليلاً » ، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء ، ونحو مدّ الأبواب؛ فإنه كان لعلّ عليه السلام قلبته البكرية إلى أبي بكر، ونحو « اتقوني بدواة وبياضاً » كتب فيه لأبي بكر كتباً لا يختلف عليه اثنان . ثم قال: « يأبى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه : « اتقوني بدواة وبياضاً » كتب لكم ما لا تصلون بعده أبداً ، فاحتفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوح ، حسداً كتب الله ونحو حديث : « أما راضٍ عليك فهل أنت عفي راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلما رأت الشيعة ما فعلت للبكرية أوسعوا في وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه فعله في عُق خالده ، وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غداة الحنفية أم محمد ، وحديث : « لا يظنّ خالد ما أمر به » ، وحديث الصحيفة التي صلفت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بوم أبو بكر ، فسبق الناس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي فساد قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم للبكرية بمطاعن كثيرة في عليّ وبي ولديه ، وسوء تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان في غنية مما اكتسباه واجترأه ، ولقد كان في فضائل عليّ عليه السلام الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبي بكر الحقيقة

للعلومة ما ينبغي من تكلف المصيبة لها ، فإن المصيبة لها أخرجت الفرقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تمديد الحسن إلى تمديد المساوي والمقارن . وسأل الله تعالى أن يعصمنا من الليل إلى الهوى وحب المصيبة ، وأن يجرينا على ما عودنا من حب الحق أين وجد وحيث كان ؛ سقط ذلك من سقط ، ورضى به من رضى ،
بنته وأطفه !

(٢٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَكَانَ مِنْ أَفْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صُنْعِهِ ، أَنْ جَمَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ
الْأَخِيرِ الْمَقْرَأِ الْكَفِّ الْمُتَقَاصِفِ ، بَبَسًا جَامِدًا ، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْلَاقًا ، فَفَتَقَهَا شَمْعَ سَمَوَاتِ
بَعْدَ أَرْتِاقِهَا ، فَاسْتَنْسَكْتَ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ بِحَمِيلِهَا الْأَخْمَرُ الْمُتَشَجِّرُ ،
وَالْقَتَمُ الْمُتَحَرُّ .

فَذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذَعَنَ لِطَيْبِهِ ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشْبَتِهِ . وَجَعَلَ جَلَامِيدَهَا ،
وَنُشُورَ مُتُونِهَا ، وَأَطْوَادَهَا ؛ فَارْتَمَاهَا فِي بَرٍّ لِيَسْهَلَ وَالزَّمَاهَا قَرَارَتَهَا ، فَتَصَدَّرَتْ وَهَبُهَا
فِي الْهَوَاءِ ، وَرَزَتْ أَصُولَهَا فِي الْمَاءِ ، فَأَهْدَتْ جِبَانَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَائِدَهَا فِي
مُتُونِ أَطْطَارِهَا ، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا ، فَأَشْبَقَ فَلَاتُهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَارُهَا ، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ
عِمَادًا ، وَأَرْزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا ، فَكَتَبَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَعِيدَ بِأَهْلِهَا ، أَوْ تَسِيحَ
بِعَمَلِهَا ، أَوْ تَرُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

فَسُبَّحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا تَمَدُّ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأَجَدَهَا تَمَدُّ رُطُوبَةٍ أَكْثَافِهَا ؛
فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِيَادًا ، وَتَسَطَّهَا لَهُمْ فِرَاشًا ، وَنَوَقَ غَيْرَ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَانِيمٍ
لَا يَسْرِي ، تُكْرَى كِرُهُ الرِّيحُ الْمَوَاضِعُ ، وَتَخْصُهُ الْمَمَامُ الدَّوَارِفُ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى !

الشبح :

أراد أن يقول : « وكان من اقتداره » فقال : « وكان من اقتدار جبروته » ، تعظيما
وتفخيا ، كما يقال للملك : أمرت الحصرة الشريرة بكذا .

والبحر الزاهر : الذي قد امتد جداً وارتفع .

والترام : المجتمع بعضه على بعض .

والنقاصف : الشديد الصوت ، قصف الرعد وغيره قصيفا .

واليبس ، بالتعريبك : للكان يكون رطبا ثم يبس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْرَبُ
لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْأَشْجِرِ يَبَسًا ﴾ ^(١) ، واليبس : لكون : اليابس حنقة ، حطب يابس ، هكذا يقوله
أهل اللغة وفيه كلام ، لأن الحطب ليس يابسا حنقة بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن
يقال : لا تكون هذه اللفظة بحركة إلا في المكان خاصة .

ومطر : خلق ، والمصارع بمطر بالضم ، مطرا .

والأطباق : جمع طلق ، وهو أحرأ ، محتمة من جراد أو هم أو ناس أو غير ذلك من
حيوان أو جماد ، يقول : خلق منه أجساما محتمة مرتقة ، ثم فتقها سبع سموات . وروى :
« ثم فطر منه طباقا » أي أجساما منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض ،
وهي من ألفاظ القرآن ^(٢) المجيد .

والضمير في « منه » يرجع إلى ماء البحر في أظهر النظر ، وقد يمكن أن يرجع
إلى اليبس .



واعلم أنه قد تكرر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى في سورة الملك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، وقوله في
سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقْنَا أَفْئِدَةً سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملقب، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبد، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١). قال شيخنا أبو علي وأبو الفاسم رحمهما الله في تفسيريهما: هذه الآية دالة على أن الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالوا: وكان الماء على الهواء، قالوا: وهذا يدل أيضاً على أن لللائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والأرض، لأن الحكماء سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجاد على خلق المكلفين، لأنه يكون عبثاً.

وقال علي بن عيسى الرماني من مشايخنا: إنه غير ممتنع أن يخلق الجاد قبل الحيوان، إذا علم أن في إخبار المكلفين بذلك لطفهم، ولا يصح أن يخبرهم إلا وهو صادق فيما أخبر به، وإلما يكون صادقاً إذا كان الخبر خبره على ما أخبر عنه، وفي ذلك حسن تقديم خلق الجاد على خلق الحيوان. وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدل على أنه كان يذهب إلى أن الأرض موضوعة على ماء البحر، وأن البحر حامل لما بقدرته الله تعالى، وهو معنى قوله: «يحملها الأخضر للظهير، والقمقام المسخر»، وأن البحر الحامل لما قد كانت جارية فوق تحتها، وأنه تعالى خلق الجبال في الأرض، فجعل أصولها راسحة في ماء البحر الحامل للأرض وأعلىها شامخة في الهواء، وأنه سبحانه جعل هذه الجبال عماداً للأرض، وأوتاداً تمنعها من الحركة والاضطراب، ولولاها لما جئت واضطربت، وأن هذا البحر الحامل للأرض تصد فيه الرياح الشديدة فتحرّك حركة خفيفة، وتموج السحب التي تنترف الماء منه لتطر الأرض به، وهذا كله مطابق لما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية، والنظر الحكيم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ^(١) ، وهذا هو صريح قوله عليه السلام : « ففتقها سبع سموات بعد ارتقاها » ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ ﴾ ^(٢) ، وإلى ماورد في الخبر من أن الأرض مدحوة على الماء ، وأن الرياح تسوق السحب إلى الماء مازلة ، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ، ثم تمطر

وأما النظر الحكيم فطابق لكلامه إذا تأمله المتأمل ، وحمله على الحمل العقلي ، وذلك لأن الأرض هي آخر طبقات العناصر ، وقبلها عنصر الماء ، وهو يحيط بالأرض كلها إلا ما رز منها ، وهو مقدار الربع من كرة الأرض ، على ما ذكره علماء هذا الفن وبرهنوا عليه ، فهذا تفسير قوله عليه السلام : « يَحْمِلُهَا الْأَحْضَرُ الْمُسْتَحْجِر » .

وأما قوله : « ووقف الجارى منه نخيبته » ، فلا يدل دلالة قاطعة على أنه كان جارياً ووقف ، ولكن ذلك كلامٌ خرج لمخرج التعظيم والتبجيل ، ومعناه أن الماء طبعه الجريان والسيلان ، فهو جارٍ بالقوة ، وإن لم يكن جارياً بالفعل ، وإنما وقف ولم يحرك بالفعل بقدرة الله تعالى ، الماسة له من السيلان ، وليس قوله : « ورست أصولها في الماء » مما ينافي النظر العقلي ، لأنه لم يقل : « ورست أصولها في ماء البحر » ، ولكنه قال : « في الماء » ، ولا شبهة في أن أصول الجبال راسية في الماء المتعلق بين أجزاء الأرض ، فإن الأرض كلها يتعلحل الماء بين أحرائها على طريق استعانة البحار من الصورة الهوائية إلى الصورة المائية .

وليس ذكره للجبال وكونها ماسة للأرض من الحركة بمنافٍ أيضاً للنظر الحكيم لأن الجبال في الحقيقة قد تنزع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة ، فيكون ثقلها ماساً من الهدء والرجفة .

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ٣١

وليس قوله : « تكرر الرياح » منافياً للنظر الحكيم أيضاً، لأن كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تعصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم ، فيتموج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتعصف العمام الدوارف » صريحاً في أن السحب تنزل في البحر ، فمتعرف منه ، كما قد يستفاد في المشهور المأثور ، نحو قول الشاعر :

كالبهرِ تُعْطِرُهُ السَّحَابُ وَمَا لَهَا فَصْلٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهَا مِنْ مَائِهِ

بل يجوز أن تكون العمام الدوارف تعصف وتحرك عما ترسل عليه من الأمطار السائلة معها ، فقد ثبت أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام موجه ؛ إن شئت فسمه بما يقوله أهل الظاهر ، وإن شئت فسمه بما يستفاد من الحكمة .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الذين كفروا راين ذلك ؛ حق يقول لم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا في قوله : « اعلوها أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أن الأمر صرف حاجبه البينة من بابه ؛ أي اعلم ذلك إن كنت خير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء - ويقال : إنه مذهب سقراط - إلى تفسير القيامة وجهم بما يتنى على وضع الأرض على ماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والبارق حشو الأفلak ؛ ولما كان المنصران الخفيفان ، سوها الهواء والنار - يقتضيان صعوداً محيطان به ، والمنصران الثقيلان اللذان في وسطهما ، سوها

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقمت للمانة والمدانة ، فلزم من ذلك وقوف
الماء والأرض في الوسط .

قالوا : ثم إن النار لا تزال بتزايد تأثيرها في إسخان الماء ، وينضاف إلى ذلك حر الشمس
والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائي غايتهما في الغليان والقوران ، فيتصاعد
بخار عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حر فلك الأثير الملاصق للأفلاك
فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتهاوت وتنافط وتصبح كالمهل الشديد الحرارة .
ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما نحو مقر وصار محررا بطريق العلوم والمعارف وقطع
العلائق الجسمانية حيث كانت مديرا للبدن ، والآخر ما بقى على جسمانيته بطريق حلوله
من العلوم والمعارف ، وانما في القدرات والشهوات الجسمانية ، فأما الأول فإنه ياتحق
بالنفس الكلية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم الكلية . وأما الثاني فإنه تنصب
عليه تلك الأجسام الملكية الدنيوية ، فيحترق بالكلية ، ويتعذب ويلقى آلاما شديدة .
قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرواية من العذاب عليها ، وحرب العالم
والأفلاك وانهدامها .

ثم تعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « فاستسكت » ، أى وقفت وثبتت .

والماء في « حده » تعود إلى أمره ، أى قامت على حد ما أمرت به ؛ أى لم تتجاوز
ولا تعدته .

والأخضر : البحر ، ويسمى أيضا « حصار » مرفعة غير مصروفة ، والعرب تسميه بذلك ؛
إما لأنه يصف لون السماء فيرى أحضر ، أو لأنه يرى أسود لصفاته فيطلقون عليه لفظ

الأخضر؛ كما سموا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿مُدَاهَمْتَانِ﴾^(١)، ونحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها وكثرة شعرها، ونحو قولهم للديزج^(٢) من الدواب أحصر.

المنعرج : السائل، ثم عرفت الدم وغيره فأنعرج، أى صدمته فانصب، وتصغير المنعرج مُنْعِج ومُنْعِجَج.

والقصفام، بالفتح : من أسماء البحر، ويقال لمن وقع في أمر عظيم : وقع في قصفام من الأمر، تشبيها بالبحر.

قوله عليه السلام : « وَجَبَلْ جَلَامِدَهَا » ، أى وحلق صخورها ؛ جمع جلود.

والنُشُوز : جمع نُشَز، وهو المرتفع من الأرض . ويحور فتح الشين .

ومتوسها : جوانبها . وأطوادها : جهالها : « ويروي » : « وأطوادها » بالجر عطفا على متوسها .

فأرساها في مراسيها ، أثبتها في أطرافها ، رُكِبَ الشئ : رُسُو : ثبت . ورست أقدامهم في

الحرب : ثبتت ، ورست السفينة ترسو رسوا ورُسُو ، أى وقفت في البحر . وقوله تعالى :

﴿ نَسَمِ اللَّهُ يُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾^(٣) ؛ بالصم من أجريت وأرسيت ، ومن قرأ بالفتح

فهو من « رست » هى ، « وجرت » هى .

وألزمها قراراتها : أمسكها حيث استقرت .

قوله : « فأنهد جبالها » ، أى أعلاها . نهديدى الجارية بنهد بالضم ، إذا أشرف وكعب ،

فهى ناهد وناهدة .

وسهولها : ما نظامن منها عن الجبال .

وأساخ قواعدها ، أى غيب قواعدها الجبال في جوانب أقطار الأرض ، ساحت قوائم

(٢) في اللسان : « يقال : فرس أخضر ، وهو الديزج » .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

(٣) سورة هود ٤١ .

الفرس في الأرض نَسُوخ ونَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاحت ، وأسعتهما أنا مثل أنحمتها .

والأنصاب : الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصْبَ يضم النون والصاد ، ومنه سميت الأصنام نُصُبًا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا دُعِيَ عَلَى النَّصْبِ ﴾ ^(١) ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله ، قال الأعشى :

وذا النُصْبُ المنصوب لا تنسكته لمأقبة ، والله ربك فاعبدا ^(٢)

أى وأساخ قواعد الجبال في متون أقطار الأرض ؛ وفي اللواصع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب المائلة ، وهى الجبال أغصها .

قوله : « فاشفق قلاها » ، جمع قَلَةٍ وهى ما علا من رأس الجبل ، أشفقها : جعلها شاهقة ، أى عالية .

وآرزها : أثبتها فيها ، ررت الحرافقة ترزرها ، وهو أن تدخل دسها في الأرض فتلقى بيصها ، وآرزها الله : أثبت ذلك منها في الأرض ، ويجوز « أرزت » ، لارما غير متعد ، مثل رزت ، وأرزت السهم في القرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولهم : شجرة آرزة ، أى ثابتة في الأرض ، أرزت بالفتح ، تأريز بالكسر ، أى ثبتت ، وآرزها بالمد - غيرُها ، أى أثبتها .

وتيمد : تتحرك . ونسيخ : تنزل وتهوى .

فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تيمد بأهلها ، أو نسيخ بحملها ، أو نزول عن مواضعها ؟

قلت : لأنها لو تحركت لسكت إما أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

(١) سورة اللاتفة ٣ .

(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأول هو المراد بقوله : « نعيد بأهسها » ، والثاني تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت ، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله : « أو نسيخُ بحملها » والقسم الثاني هو المراد بقوله : « أو تنزل عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » و قوله : « فكنت على حركتها » ؟ .

قلت : هي هيئة الحال ، كما نقول عفوت عنه على سوء أده ، ودخلت إليه على شره ، أى سكنت ، على أن من شأها الحركة ؛ لأنَّ محمولة على سائل متموج .
قوله : « مَوْجَان مياهما » ، بناء « فَمَلَان » لما فيه اضطراب وحركة كالعليان والنزوان والخفغان ، ومحو ذلك .

وأحدها ، أى حماما جامدة . وأكافها . حوانبها . والمهاد : الفراش

فوق بحر جلى : كثير الماء ، منسوب إلى القلعة ، وهي معظم البحر .

قوله : « يكركرة الرياح » ، والكركرة : تصريف الريح السحاب إذا جمعت بمدتفريق وأصله « يكرتر » من التكرير ، فأعادوا الـ « ك » ، كركرت الفارس على أى دفعته ورددته .
والرياح العواصف : الشديدة المهبوب . وتمخضه ، بمحوز فتح الغلاء وضمتها وكسرهما ، والفتح أفصح ؛ لكان حرف الخلق ، من تحضت اللبن ، إذا حركته لتأخذ زبدته .

والعمام : جمع ، والواحدة غمامة ، وذلك قال : « الدّوارف » ، لأنَّ « فواعل » أكثر ما يكون لجمع المؤنث ، فزفت فيه أى جمعت ، أى السحب المواطر ، والمضارع من « زرفت » عينه « تنزرف » بالكسر ، ذَرَفًا وَذَرَفًا . والمذارف : اللداعم .

(٢٠٥)

الأمنل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَللّهُمَّ أَيُّهَا عَبْدُكَ تَمِيعَ مَقَاتِمَا الْعَادِلَةِ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ
وَالْمُنِيَّةَ غَيْرَ الْمُعِدَّةِ ، فَأَيُّ بَعْدَ تَمِيمٍ لَهَا إِلَّا الْفُكُوسَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالْإِنطَاءَ عَنْ
إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَتَشَبَّهُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَنَتَشَبَّهُ عَنْتِهِ
بِجَمِيعِ مَا أَسْكَنَتْهُ أَرْضُكَ وَتَمَوَاتِكَ . ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ الْمُنِيَّ عَنْ أَنْصَرِهِ ،
وَالْأَحِيدَ لَهُ بِذَمِّهِ .

الشرح :

ما في « أَيُّهَا » زائدة مؤكدة ، وما في الفصل وعيد من استنصره فقد عن نصره ،
ووصف لقالة بأنها مائة ، إما تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإما ذات عدل ،
كما قالوا : رجل تامر ولاين ، أي ذو ثمر وابن ، ويجوز أيضاً أن يريد بالمادة المستقيمة
التي ليست كاذبة ولا محرقة عن جهتها ، والجائرة تقيضها وهي النعرة ، جار فلان عن
الطريق ، أي انحرف وعدل .

والفكوس : النافر .

قوله عليه السلام : « نَتَشَبَّهُكَ عَلَيْهِ » ، أي نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبر الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾^(١) ،
بقول : اللهم إنا نستشهدك على حذلان من استنصرناه ، واستنفرناه إلى نصرتك ، والجهاد
عن دينك فإني التهوض ، ونكث عن القيام بواجب الجهاد ، ونستشهد عبادك ، من البشر
في أرضك ، وعبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المنقذ لنا من
نصرتنا ونهضته ، بما تتبعه لنا من النصر ، وتؤيدنا به من الإحراز والقوة ، ولأخذ له
بذنبه في القمود والتخلف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَلَكُمْ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنعام ١٩

(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَتَلَمُّدُ اللَّهِ أَلَمِي عَنْ شَبِّهِ لِلْخُلُوقِينَ ، أَلْعَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الطَّاهِرِ بِعَجَائِبِ
تَذْيِيرِهِ لِلنَّاطِلِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِرَّتِهِ مِنْ فِكْرِ التَّوَهُّمِينَ . أَلْعَالِمِ بِأَلَا كُفْيَابِ
وَلَا أَرْذَابَادِ ؛ وَلَا عِلْمِ مُسْتَفَادِ ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا رَوْبَةِ وَلَا ضَمِيرِ ، الَّذِي
لَا تَفْشَاءُ الظُّلُمُ ، وَلَا يَسْتَفْضُوهُ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلَا يَجْرِي عَنْبَهُ نَهَارٌ .
لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِحْكَارِ .

الشرح :

يحموز شبه وشبهه ، والرواية هاهنا بالفتح ، وتعالیه سبحانه من شبهه المخلوقين ؛ كونه قديما
واجب الوجود ، وكل مخلوق محدث ممكن الوجود .

قوله : « العالِب لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ » ، أي إن كنهه جلاله وعظمته ، لا يستطيع الوصفون
وصفه وإن أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالعالم لأقوالهم أمجزها من إيضاحه وبلوغ منتهاه ،
والظاهر بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال : إنه غير مكتسب كما يكتسب الواحد منا علومه بالاستدلال
والنظر ، ولا هو علم يزاد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منا ومعارفه ، وتكثر
لكثرة الطرق التي يتطرق بها إليها .

ثم قال : « وَلَا عِلْمُ مُسْتَفَادٍ » ، أى ليس يعلم الأشياء علم محدث مجدد كما يذهب إليه
جهنم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .
ثم ذكر أنه تعالى قدر الأمور كلها بعير روية ، أى سير فسكر ولا ضمير ، وهو ما يطويه
الإنسان من الرأى والاعضاء والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لا يشاء ظلاماً ، لأنه ليس بجسم ، ولا يستضيء بالأنوار ؛ كالأجسام
ذوات البصر . ولا يرهقه ليل ، أى لا يثقله . ولا يحرقه عليه نهار ، لأنه ليس بزمانى .
ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأن ذلك يستدعى للقبالة . ولا علمه بالإخبار
مصدر أحر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن يخبره الملائكة بأحوال المكلفين ، بل هو
يعلم كل شيء ، لأن ذاته ذات واجب لها أن تعلم كل شيء لحرود ذاتها المخصوصة ، من
غير زيادة أمر على ذاتها .



الأصل :

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضُّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَضْيَاءِ ، فَرَّتْ بِهِ الْغَائِقُ ، وَسَاوَرَهُ مِنَ الْمَغَالِبِ ،
وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوتَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحَزُونََ ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

...

الشرح :

أَرْسَلَهُ بِالضُّيَاءِ ، أى بالحق ، وسمى الحق ضياءً ، لأنه يهتدى به ، أو أَرْسَلَهُ بِالضُّيَاءِ
أى بالقرآن .

وقدّمه في الإصطفاء ، أى قدّمه في الاصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قریش :
 ﴿ تَوَلَّا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْغُرَبَاءِ ﴾ ^(١) ، أى على رجل من رجلين من
 القرىين عظيم ؛ أى إماما على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفي
 من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ﴾ ^(٢) ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة
 في إرسال الرسل ، وتقديم من يرى في الاصطفاء على غيره .
 فرتق به المقاتق ، أى أصلح به الفاسد ، والرتق ضد التفتق ، والمقاتق : جمع مفتق ،
 وهو مصدر ؛ كالضرب والقتل .

وساور به المعالب : ساورت زيدا أى واثبته ، ورجل سوار ، أى وثاب ، وسورة الحمرة
 وثوبها في الرأس .

والحزونة ضد السهولة ، والحزني : ما غطت من الأرض . والتسهل : ما لا نساء واستعير
 أنفیر الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : ﴿ حَقَّ سِرْحَانًا ﴾ ، أى طرده وأسرع به ذهابا .
 عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سرح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ،
 أى تطليقها .

(١) سورة الزخرف ٣١

(٢) سورة الزخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ بِعَدْلِهِ ، وَحَكَمٌ فَصْلٌ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ،
وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ تَخْلُقَ فِرْقَتَيْنِ جَنَّتْ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسَيِّمَ فِيهِ هَاهِرٌ ،
وَلَا صَرْبٌ فِيهِ قَاحِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَلَ لِلْحَيْرِ أَهْلًا ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ،
وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا ، وَإِنْ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ عَلَى الْآلِ إِنَّهُ ؛
وَيُنْتِثِرُ بِهِ الْأَفْنِدَةَ ؛ فِيهِ كَمَا لِمُسْتَكْتَفٍ ، وَثِقَافٍ لِمُسْتَفٍ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ لِلْمُحْتَظِّينَ عِصْمٌ ، بِصَوَابِ مَصُونَةٍ ، وَيُفَضَّرُونَ عُيُونَهُ ؛
يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ ، وَيَتَلَاقُونَ بِالسَّعَةِ ، وَهَيَّاسُونَ بِكَاسِ رَوْيَةٍ ، وَيَصْدُرُونَ
بِرَبِيَّةٍ . لَا تَشُوْبُهُمُ الرِّبَةُ ، وَلَا تُسْرِخُ فِيهِمُ الْغِيْبَةُ ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقْدَ حَلَقَتِهِمْ
وَأَخْلَاقَتِهِمْ ، فَعَمَلِيَّةٌ بِتَحَابُونٍ ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ ، فَكَانُوا كَغَفَاضِ الْبَذْرِ يُنْفَتِقُ ، فَيُؤَاخِذُ
مِنْهُ وَيُبْلِغُ ، قَدْ مِيزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَدَّيْتُهُ التَّنْجِيصُ .

فَلْيَقْبَلِ أَمْرُؤُكَ كَرَامَةً يَفْضُولِهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرِ أَمْرُؤُكَ
فَصِيرَ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنَزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنَزِلًا ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ ،
وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ .

فَطُوبَى لِمَنْ لَدَى قَلْبٍ سَلِيمٍ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدُهُ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ
السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ ، وَطَاعَةَ هَادِي أَمْرِهِ ، وَبَادَرَ الْهَدْيَ قَبْلَ أَنْ تُفْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتَقَطَّعَ أَسْبَابُهُ ، وَأَسْتَفْتَحَ الْقُوَّةَ ، وَأَمَّا طِ الْخُزْبَةُ ، فَقَدْ أَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدًى
نَهْجَ السَّبِيلِ

• • •

الشرح :

الضمير في « أنه » يرجع إلى القضاء والقدر اللذين ذكر في صدر هذه الخطبة ، ولم يذكره
الرضي رحمه الله ؛ يقول : أشهد أن قضاءه تعالى عدلٌ وحكمٌ بالحق ، فإنه حكمٌ
فصل بين العباد بالإصاف ، ونسب للعدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو
بالحقيقة منسوب إلى ذي القضاء ، والقاضي به هو الله تعالى .

قوله : « وسيد عباده » ، هذا كالجمع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه
شدود مريم ، واحتج الجمهور بقوله : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، ويقول : « ادعوا إلى
سيد العرب علياً » ، فقالت عائشة : أأنت سيد العرب ؟ فقال : « أنا سيد البشر ، وعلى
سيد العرب » ، ويقول : « آدم ومن دونه تحت لوائى » .

واحتج المخالف بقوله عليه السلام : « لا تفصلوني على أخى يونس بن متى » .
وأجاب الأولون تارة بالظن في إسناد الخبر ، وتارة بأنه حكاية كلام حكاها صلى الله
عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارة بأن النهى إنما كان من العلوة فيه كما غلت الأمم في
أبيائهما ، فهو كما ينهى الطيب للريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس
مصادره تحريم أكل الدرهم والدرهمين ، بل تحريم ما يستغنى به عن الدرهم ، وليس

قوله عليه السلام : « كلما نسخ الله الخلق فرقتين جملة في خيرهما » ، النسخ : النقل ،
ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نسخ الرِّيحُ آثار القوم ، ونسخت الشمس الظل ، يقول :

لقسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام ، وسمى ذلك نسخا ، لأن البطن الأول ينزل ، ويخفف البطن الثاني ، ومنه مسائل المناجيات في الفرائض .

وهذا المعنى قد ورد مرفوعاً في عدة أحاديث ، نحو قوله صلى الله عليه وآله :
« ما افترقت فرقتان منذ نزل آدم ولده إلا كنت في خيرهما » .

ونحو قوله : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مُصْرَ ، واصطفى من مُصْرَ كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش هاشماً ، واصطفاني من بني هاشم » .

قوله : « لم يُسمَّ فيه طاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسم : لم يضرب فيه طاهر يسم ، أى بنصيب ، وحمه سُهمان ، (الماهر : ذو المهر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا ، ويحوز تسكين الماء ، مثل سهر ونهر ، وهذا هو المصدر ، وللأخى عهر بالفتح ، والاسم المهر ، بكسر العين وسكون الماء ، والمرأة طاهرة ومماهرة وعيْرة ، وتعيّر الرجل إذا زنى ، والفاجر كالماهر هائناً ، وأصل الفجور : الميل ، قال كبيد :

فإن تَنَقَّضَ تَنَشَّ مِنْهَا مَقْدَمًا غَلِيظًا ، وإن أَخْرَجْتَ الْكَفْلَ فَاجِرًا^(١)
يقول : مقعد الرديف مائل .

• • •

[ذكر بعض المطاعن في النسب وكلام للجاحظ في ذلك]

وفي الكلام رمز إلى جماعة من الصعابة في أساهم طعن ، كما يقال : إن آل سعد ابن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب ، وإتاهم من بني عُسْدرة من قحطان ،

وكما قالوا : إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط ، وليسوا من بني أسد بن عبد المزني . قال الهيثم بن عدي في كتاب " مثالب العرب " : إن خويلد بن أسد بن عبد المزني كان آبي مصر ثم انصرف منها بالموام ، فبنناه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خويلد :

بني أسد ما بال آل خويلد يحتمون شوقاً كل يوم إلى القبط^(١)
مق يذكروا مقى يحتموا له كرها وللرمث المقرون والستك الرقط
همون كأمثال الزجاج وضربة^(٢) تحالف كعابى لى كثره^(٣) قط
يرى ذلك في الثبان والشيب منهم^(٤) ميسا وفي الأطلال والجملة الشط
لعمري أبي العوام إن خويلد^(٥) عداة تبناه لثوق في الشرط^(٦)
وكما يقال في قوم آخرين : رفع هذا الكتاب عن ذكر ما يظن به في أنسابهم ، كي لا يظن بنا أننا نحب المقالة في الناس .

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب " معاجرات قريش " : لا حيد في ذكر العيوب إلا من ضرورة ، ولا يحد كتاب مثالب قط إلا لادعي أو شعوبي ، ولست واجده لصحيح النسب ، ولا لقليل الحمد ، وربما كانت حكاية الفحش الخش من الفحش ، ونقل الكذب أقبح من الكذب . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اعف عن ذي قبر » ، وقال : « لا تؤدوا الأحياء بسب الأموات » ، وقيل في المثل : « يكفيك من شر سماعة » . وقالوا : أسمك من أيلعك ، وقالوا : من طلب عيبا وحده ، وقال القابعة :

وَلَسْتُ بِمُتَّبِعِي أَحَدٍ لَا تَلُهُ عَلَى شَعْبٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ لِلْهَذَبِ^(٧)

(١) ديوانه ٢٣٩ .

(٢) يقال : رجل قط وأشط ؛ إذا جرى وجهه من الشعر إلا طافات في أسفل سلمه .

(٣) يريد شرط الخليفة .

(٤) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمر بن الخطاب أن أبا من رُواة الأشعار وتحسلة الآثار يعيبون الناس ، ويثلبونهم في أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : إياكم وذكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، هل قلت : لا يخرج اليوم من هذه الأبواب إلا من لا وصة فيه لم يخرج منكم أحد . فقام رجل من قريش - سكره أن يذكره - فقال : إذا كذبت أما وأنت يا أمير المؤمنين تخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، يا قين ابن قين ، انمدا قلت : الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة الخزومي ، كان عمره يهيفه لهيفه أباه خالدا ، ولأن المهاجر كان عويّ الراي جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صفين مع علي عليه السلام ، وشهدا عبد الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع علي عليه السلام في يوم الجمل ، وفشت ذلك اليوم عيه . ولأن الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن المهاجر ، وكانت الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش - وكونه يسمى ربحانة قريش ، ويسمى قهذل ، ويسمى الوحيد - حدادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب " المعارف " (١) .

وروى أبو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب " أمهات الخلفاء " وقال : إنه روى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لاتفه يا ابن أخي ، إنه أشفق أن يُحدّج (٢) بقصة نُفيل بن عبد المرى وصهاك أمة الزبير من عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمر ! فإنه لم يصد السنة ، وتلا : ﴿ إِنَّ الدِّينَ يُحْبَوْنَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الدِّينِ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

أما قول ابن جرير الأملّي الطبرستاني في كتاب " المشرّد " : إن عثمان والله

(١) المعارف ٢٥٠

(٢) يقال : حدّجه بذهب فيه ؛ أي عزاه إليه

(٣) سورة البور ١٩

أبي بكر الصديق كان ناكحاً أم الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ، ولكنها ابنة عمه ، لأنها ابنة صخر بن عامر ، وثمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والمعجب لمن أتبعه من فضلاء الإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لما من كتب الأسباب ، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش ، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسياً ولا يهودياً ، ولا كان من مذهبهم جل نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

ثم تعود لإتمام حكاية كلام شيعنا أي ثمان ، قال : ومتى بقدر الناس - حفظك الله - على رجل مسلم من كل أمة ، ومراً من كل آفة ؛ في جميع آثاته وأمهاته وأسلابه وأمهاته ، حتى نسله أخواله وأعمامه ، وخالاته وعماته ، وأخواته وبناته ، وأمهات نسائه ، وجميع من يناسبه من قتل جداته وأجداده ، وأمهاته وأخواته ؛ ولو كان ذلك موجوداً لما كان نسب رسول الله صلى الله عليه وآله قصبة في النقاء والتعذيب ، وفي التصفية والتنقيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما مني بمرق سيفاً قط ، وما زلت أقتل من الأصحاب للسلامة من الوصوم ^(١) ، ولأرحام العريضة من الميوب » ، فلست أقضي لأحد بالنقاء من حميم الوجوه ، إلا لنسب من صدقه القرآن ، واحتاره الله على جميع الأنام ، وإلا فلا بد من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفه ، أو في بعض أسلافه ، أو في بعض أمهاته ؛ ولكنه يكون ممطى بالصلاح ، ومحسوبا بالفضائل ، ومسورا بالمناقب .

ولو تأملت أحوال الناس ، لوجدت أكثرهم عيوباً أشد من نبيها ، قال الزبير بن عدي : ما استب رجلان إلا غلب الأثمة . وقال : حصلتان كثيرتان في امرئ السوء :

(١) الوصوم : الميوب .

كثرة الأقسام ، وشدة الأسباب ، ولو كان ما يقوله أصحاب المتألب حقاً ، لما كان على ظهورها عربة ، كما قال عبد الملك بن صالح الهشمي : **إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ بَعْضُ فِي بَعْضٍ حَقًّا ، فَمَا فِيهِمْ صَبِيح ، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي بَعْضٍ حَقًّا ، فَمَا فِيهِمْ مَسَاءٌ** !



قوله عليه السلام : **« أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَبَلَ لِحَبِيرِ أَهْلًا ، وَلِحَقِّ دَعَائِمٍ ، وَلِطَاعَةِ عِصْمَةٍ »** . الدعائم : ما يدعم بها البيت لنلا يسقط ، واليستم : جمع عصمة ، وهو ما يحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائم الحق : الأدلة الموصلة إليه المثبتة لدى القلوب . وعصم الطاعة : هي الإذمان على فعلها ، والتمرن على الإيمان بها ، لأن المرون على الفعل يكسب الفاعل ملكة تقتضى سهولته عليه **وَالْمُرُونَ هَاهُنَا** : هو اللطف المقرب من الطاعة ، المبعد من التبعي .

ثم قال عليه السلام : **« إِنَّهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسَةِ ، وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ »** ، وهذا من باب التوسيع والتمياز ، لأنه لما كان مستهلاً لقول أطلق عليه أنه يقول على الألسنة ، ولما كان الله تعالى هو الذي يثبت الأفئدة ، كما قل : **﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾** ^(١) ، نسب التثبيت إلى اللطف ، لأنه من فعل الله تعالى ، كما ينسب الإنهاث إلى المطر ، وإنما المديت للزرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : **« فِيهِ كِفَاءٌ لِمَكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمَشْفٍ »** ، والوجه فيه « كفاية » ، فإن الحمز لا وجه له هاهنا ، لأنه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للآزدواج بين « كفاء » ،

و « شفاء » كما قالوا : النداء والمعشاي ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، تأتي بالهمز ، والوجه الواو ، فلا ردواج .

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « واعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه » ، إلى قوله : « وهذبه التمجيس » .

واعلم أن الكلام ، العرفان لم يأخذ به أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل ، وأمرى لقد بلغ منه إلى أقصى العايات ، وأبعد النهايات والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى ، واختصهم بعلمه ، واختصهم بأنفسهم ، أحسنه فأحبهم ، وعربوا منه فقرأهم منهم قد تكلم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان ، فكل من تلقى عما وقع له ، وأشار إلى ما وحده في وقته .

وكان أبو علي للذقاق يقول : من أمارات المعرفة حصول الهيبة من الله ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وكان يقول : المعرفة توجب للكيفية في القلب ، كما أن العلم يوجب التسكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينة .

وسئل السبلي عن علامات العارفة ، فقال : ليس لعارف علامة ، ولا لخب سكون ، ولا لخائف قلق .

وسئل مرة أخرى عن المعرفة ، فقال : أولها الله ، وآخرها مالا نهاية له .

وقال أبو حفص الخزاز : منذ عرفت أنه ما دخل قلبي حق ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن ، وتداوله بعضهم ، فقال : عدم القوم أن المعرفة توجب

غيبية المبدأ من نفسه لاستيلاء ذكر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله ، ولا يرجع إلا إليه ، وكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكر موتد كره فيما يستج له من أمر ، أو يستقبله من حال ، فالعارف رجوعه إلى ربه ، لا إلى قلبه ، وكيف يدخل للمعنى قلب من لا قلب له !

وسئل أبو يزيد السعطي عن الميرفان ، قال : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِنَةً ﴾ ^(١) ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحداد .

وقال أبو يزيد أيضاً : فلخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه بحيث رسومه وفي هو ، وصارت هويته هوية غيره ، ونهيت آثاره في آثار غيره . قلت : وهذا هو القول بالانحاد الذي يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطي : لا نصح المعرفة وفي الحمد استعفاء بالله ، أو افتقار إليه . وفسر بعضهم هذا الكلام ، فقال : إن الافتقار والاستعناء من إمارات صفو المبدأ ونقاء رسومه على ما كانت عليه ، والعارف لا يصح قلب عليه ، لأنه لا يستهلكه في وجوده ، أو لا يستغرقه في شهوده ؛ إن لم يبلغ درجة الاستهلاك والوجود محتطف من إحساسه بالذوق والفقر وغيرهما من الصفات ، ولهذا قال الواسطي : من عَرَفَ الله انقطع وخرس وانقطع ، قال صلى الله عليه وآله : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقال الحسين بن منصور الخلاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله التستري : غاية العرفان شيتان : الله ههنا والخيرة .

وقال ذو النون : أعرف الناس بالله أشدهم تحملاً فيه .

وقيل لأبي يزيد : لماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : بيدني عاير ، ووطن جانح .

وقيل لأبي يعقوب التوماني: هل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسف عليه!

وقال أبو بريد: العارف طيار، والزاهد سيار.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يقي ما يبيت ومالا يبيت.

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، ولا يقضي وطره من شيتين: بكائه على نفسه، وحبّه إليه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأسى.

وقال بعضهم: العارف أنيس بالله فأرشدته من خلقه، وانصرف إلى الله فأغناه عن خلقه، وذلّ لله فأمرّه من خلقه.

وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال أبو سليمان الداراني: إن الله يفتح للمعارف على فراشه، مالا يفتح للمعابد وهو قائم يصلي.

وكان رؤف يقول: رياء المعارفين أفضل من إخلاص المعابد.

وسئل أبو تراب النعش عن المعارف، فقال: هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتخط.

وسئل يحيى بن معاذ عن المعارف، فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف من وصف للمعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

سئل أبو سعيد الخراساني: هل يصير العارف إلى حال يحفو عليه الهكاه؟ قال:

نعم ، إنما البسكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول ، زال عنهم ذلك .

• • •

واعلم أن إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة « الولاية » ، في قوله : « يتواصلون بالولاية » ، ويتلافون بالحقبة « يستدعي الخوض في مقامين جليابين من مقامات المعارفين : المقام الأول الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) .

وجاء في الخبر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آدَى لِي وَايًّا قَدْ اسْتَعْلَى مَحَارِي ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى الْعَبْدِ بِمِثْلِ آدَاءِ مَا فَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِتَقَرُّبٍ إِلَى بَالِنَوَائِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ ، وَلَا تَرَدَّدَتْ لِي كَلِمَةٌ أَمَّا فَاعِلُهُ كَتَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَصِيِّ الْمُؤْمِنِ بِكَرِهَةِ الْمَوْتِ وَارْتِكَاةِ سَاءَتِهِ ، وَلَا يَزَالُ لَهُ مِنْهُ » .

واعلم أن الولي له معنيان :

أحدهما « قَبِيل » بمعنى « مفعول » ، كَقَبِيلٍ وَجَرِيحٍ ، وهو من يتولى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيَِّّ اللَّهِ الَّذِي رَزَّلَ أَسْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) ، فلا يَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ لِحُظَّةِ عَيْنٍ ، بَلْ يَتَوَلَّى رِعَابَتَهُ .

وثانيهما « قَبِيل » بمعنى « فاعل » كَنَذِيرٍ وَعَلِيمٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى طَاعَةَ اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ فَلَا يَعْصِيهِ .

ومن شرط كون الولي ولياً ألا يعصى مولاه ، وسَيِّدَهُ ، كما أن من شرط كون النبي

(١) سورة يونس ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبينا العصمة ، فمن ظنّ فيه أنه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بوليّ عند أصحاب هذا العلم . بل هو معرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيد السّطاميّ قصد بمصر من يوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده ، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتغنم في المسعد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كفّ يكون أميناً على أمرار الحقّ !

وقال إبراهيم بن آدم لرجل : أحبّ أن تكون فقيراً ! قال : نعم ، قال : لا ترغب في شيء من الدنيا ولا من الآخرة ، وفرغ نفسك ، وأقلّ بوجهك عليه ليقبل عليك ويؤثرك .

وقال يحيى بن معاذ في صيغة الأولياء هم عبادة كسروا بالأس بعد المكابدة ، وادّرعوا بالروح بعد المحاهدة ، وصوتهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيد يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المحارم ، فهم محدثون عنده في حجاب الأنس ، لا يرام أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة .

وقال أبو بكر الصّيدلانيّ : كنت أصليحُ لقبر أبي بكر الطمستانيّ لوحاً أنقر فيه اسمه ، فيُسرق ذلك اللوح ، فأنقر له لوحاً آخر وأصبه على قبره ، فيُسرق ، وتكرر ذلك كثيراً دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أنسجبت منه ، فسألت أبا عليّ الدقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللوح الذي تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو ستر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سميّ الوليّ ولياً ، لأنّه توالى أفعاله على المواقفة .

وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يرأى ولا يفاق ، وما أقل صدق من يكون هذا خلقه !

المقام الثاني المحبة قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ^(١) ، والمحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة قال أبو يزيد السطلي : المحبة استغلال للكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك .

وقال أبو عبد الله القرشي : المحبة أن نهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء . وأكدرهم على نفي صفة العشق ، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة ، والبارئ سبحانه أجل من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته .
مثل الشئلي من المحبة ، يقال : هي أن تنار على المحبوب أن يحبه أحد غيرك .
وقال تميمون : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأن للنبي صلى الله عليه وآله قال : « المرء مع من أحب » ، فهم مع الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة المحبة مالا يتقصر بالحفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال : ليس بصادق من ادعى محبة ولم يحفظ حدوده .

وقال الجنيد : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب .

وأشد في معناه :

إِذَا صَفَّتِ لِلوَدَّةِ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَّامَ وَحَادِمَ سَجَّ النَّفْسَانِ

وكان أبو علي الهافق يقول : ألت تری الأب التفتیق لا یجزل ولله فی الخطاب ،

والناس یسکلفون فی مخاطبته ، والأب یقول له : یافلان ، باسمه .

وقال أبو يعقوب السوسى : حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصراباذى : يقولون : إنه ليس لك من المحبة شيء . قال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصراباذى أيضا : المحبة محاية السلوى على كل حال ، ثم أشد :
وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْمَوَى دَاقَ سَلْوَةٍ فَبِأَيِّ مَنْ لَيْسَ لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلَقَهُ فِي وَصَالِهَا أَمَا لَمْ تَصْدُقْ كَلْعَةً بَارِقِ
وكان يقال : الحب أوله حبل ، وآخره قتل .

وقال أبو علي الدقاق في معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « حبك الشيء يسمى ويصم » ، قال : يسمى ويصم عن المير لإعراضه وعن المحبوب هيئة ، ثم أشد :
إِذَا مَا بَدَأَ لِي تَسَلُّطُهُ فَأَصْدَرَ لِي حَالُ مَنْ لَمْ يَرَهُ

وقال الجنيد : سمعتُ الحارث المحاسبي ، يقول : المحبة إقبالك على المحبوب بكلمتك ، ثم إيثارك له على نفسك ، ومالك وودك ، ثم موافقتك له في جميع الأمور سررا وجهرا ، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته .

وقال الجنيد : سمعتُ السري يقول : لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أانا .

وقال الشبلي : الحب إذا سكنت عليك ، والتعارف إذا لم يسكن عليك .

وقيل : المعبة نار في القلب تحرق ماسوى ودَّ المحبوب .

وقيل : المعبة بذل الجهد ، والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال الثوري : للمعبة هتك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشَّيْلِي فِي الْمَارِسْتَانِ بَيْنَ الْحَائِنِينَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا :
مَحْبُوكُ أَيْتِهَ الشَّيْخِ . فَأَقْبَلَ يَرْمِيهِم بِالْحِجَارَةِ ، فَفَرُّوا ، فَقَالَ : إِذَا ادْعَيْتُمْ مَحْبَتِي فَاصْبِرُوا
عَلَى بَلَائِي .

كَتَبَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ إِلَى أَبِي يَزِيدَ الْبَيْسَطَمِيِّ : قَدْ سَكِرْتُ مِنْ كَثْرَةِ مَا شَرَبْتُ مِنْ
مِنْ كَأْسِ مَحَبَّتِهِ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو يَزِيدَ : غَيْرُكَ شَرِبَ بِمَحْوَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا رَوَى
بَعْدَ ، وَلِسَانَهُ حَارِجٌ ، وَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ !
وَمِنْ شَرَمٍ فِي هَذَا اللَّغْوِ :

مَحَبَّتُ مَنْ يَقُولُ دَكْرْتُ رَبِّي وَقَالَ أَنَسِي فَأَذْكُرُ مَا نَبَيْتُ !
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْسًا مَسْدُ كَأْسٍ فَمَا نَقِدَ الْأَشْرَابَ وَلَا رَوَيْتُ
وَيَقُلُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ : إِذَا أَطْلَمْتَ عَلَى قَلْبٍ قَبْدٍ فَلَمْ أَجِدْ
فِيهِ حُبَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مَلَائِكَةٌ مِنْ حَيٍّ .
وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ : إِنْ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ لِلنَّزَةِ : عَهْدِي ، أَمَا وَحَقُّكَ لَكَ مَحَبَّةٌ ،
فَبَعَثَنِي عَلَيْكَ كُنْ لِي مَحَبًّا .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْبَارِكِ : مَنْ أَهْلَى قِطْعًا مِنَ الْحُبَّةِ ، وَلَمْ يَعْطَ مِنْهُ مِنَ الْخَشْيَةِ ،
فَهُوَ مَحْدُومٌ .

وَقِيلَ : الْحُبَّةُ مَا تَمْحُو أَثْرَكَ ، وَتَسْلُبُكَ عَنْ وَجُودِكَ .

وَقِيلَ : الْحُبَّةُ سُكْرٌ لَا يَمْحُو صَاحِبَهُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ مَحْبُوبِهِ ، ثُمَّ إِنَّ السُّكْرَ الَّذِي
يَحْصُلُ عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ لَا يُوصَفُ . وَأَنْشَدَ :

فَأَسْكَرَ الْقَوْمَ دَوْرُ كَأْسٍ وَكَانَ سُكْرِي مِنَ الدَّيْرِ
وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ يَنْشُدُ كَثِيرًا :

لى سكرتان ولندمان واحسدة شىء خصصت به من بينهم وحدى
وكان يحيى بن معاذ يقول : مثقال حردة من الحب أحب الى من عبادة سبعين سنة
بلا حب .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكون محباً ، فليكن كما حكى عن بعض الهند أنه
أحب جارية ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج النقي في وداعها ، فتمقت إحدى عينيته
دون الأخرى ، فغمص النقي لم تدمع أبداً وثأين سنة ولم يفتحها ، عقوبة لأنها لم تترك
على فراق حبيبته .

وأشدوا في هذا المعنى :

بكت عني غداة البين دميماً وأخرى بالهكا بحت عني
فماقت التي بخلت عني (بأن) عصمتا يوم التقينا
وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام إنى حرمت على القلوب أن يدحلكها
حتى وحباً فيرى .

وقيل : المحبة إيثارُ المحبوب على النفس ، كمرأة العزيز لما أفرط بها الحب ، قالت :
(أَنَا رَأَوْدَتُهُ عَنْ خَشِيهِ وَإِيَّاهُ كَيْمَنَ الصَّادِقِينَ) ^(١) ، وفي الابتداء ، قالت : (مَا جَزَاهُ
مَنْ أَرَادَ بِأَعْلَاكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ) ^(٢) فوزكت ^(٣) القلوب في الابتداء عليه ،
ونادت في الإتهام على نفسها بالخطيئة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيت النبي صلى الله عليه وآله في المنام ، فقلت : يا رسول الله ،
احذرني ، فإن محبة الله شملتني عن حبك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحب الله فقد أحبني .

• • •

(١) سورة يوسف ٥١ .

(٢) سورة يوسف ٢٥ .

(٣) يقال : ورك القلوب عليه : حله .

ثم نمود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونَهُ » : أى يكتُمون من العلم الذى استحفظوه ما يجب أن يُكتم . ويفجرون عيونه : يظهرون منه ما ينبغي إظهاره ؛ وذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار ؛ وأهل هذا الفن يزعمون أن قوماً منهم هجروا عن أن يحملوا بما حُملوه ، فباحوا به فهلكوا ، منهم الحسين بن منصور الخلاج . ولأبى الفتوح الجارودى المتأخر أتباع يعتقدون فيه مثل ذلك .

والولاية ، بفتح الواو : المحبة والنصرة ، ومعنى « يتواصلون بالولاية » يتواصلون وهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقون بالعبادة » كما تقول : خرجت بسلاحى ، أى خرجت وأما متسلح ، فيكون موضع الجار والمحرور نصباً بالحل ، أو يكون اللقى أدق والطف من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالولاية ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أراك بقلبي ، وأرورك بمحاطري ، وأواصلك بصبري .

قوله : « ويتساقون بكأس روية » ، أى بكأس المعرفة ، والأس باق ، يأخذ بعضهم من بعض العلوم والأسرار ، فكأنهم شرب يتساقون بكأس من الخمر^(١) . قال : « ويصدرون برية » يقال : من أين ربتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى^(٢) من أين ترنون الماء ؟

قال : « لا تشوبهم الرزية » ، أى لا يخالطهم الغيبة والتهمة ، ولا تسرع فيهم العيبة ، لأن أسرارهم مشفوة بالحق من الخلق .

قال : « على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم » ، الضمير فى « عقد » يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطوائع عقد الخلق تعالى ، يخلقهم ويخلقهم ، أى هم متوحيثون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أرادك لأمر هياك له » .

(٢) ساقطة من ا

(١) ب : « الحرة » ، وما أثبتت من ا

وقال عليه السلام : « كل ميسر لما خلق له » .

قال : « فعليه بتجارون ، وبه يتواصلون » ، أى ليس حبهم بعضهم بعضاً إلا فى الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا الهوى ، ولا لغرض من أغراض الدنيا ، أنشد منشيداً عند عمر قول طرفة :

قَوْلَا ثَلَاثَ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَقَى وَجَدَكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوْدَى ^(١)
فَمِنْ سَبَقِ الْمَادَلَاتِ شَرِبَةٍ كَسَمِيتِ مَتَى مَا تَصُلُّ بِالمَاءِ تَزِيدُ ^(٢)
وَكُرَى إِذَا نَادَى المَصَافِ مُحْتَبَاً كَيَبِدُ الفَضَا نَهْتَسُهُ للْعُوْدِ ^(٣)
وَتَقْصِرُ يَوْمَ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجَبٌ بِهَيْكَلَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ المَتَدِ ^(٤)

فقال عمر : وأنا لولا ثلاث هن من عيشة الفقى ، لم أحفل متى قام عودى ؛ حتى فى الله ، ونفسى فى الله ، وجهادى فى سبيل الله .
قوله عليه السلام : « فَيَكَاوُلُوا كَمَا تَصُلُّ البَذَرِ » ، أى مثلهم مثل الحب الذى يفتق للندى ، يستصاح نفسه ، ويقتط سعة .

قد ميزه التخلوص : قد فرّق الاعتقاد بين جوده ورديته . وهذا التخصيص ، قال النهى صلى الله عليه وآله : « إِنْ الرُّضْ لِيُحْصَ الحَطَايَا كَمَا تُحْصَى النَّارُ الذَّهَبِ » ، أى كأنه يخلص النار الذهب مما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالخطر

(١) من اللقطة بفتح التبرى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكبت من الحر : التى تضرب إلى السواد وقوله : متى ما تطل طلاء تزيد ؛ أى متى تخرج به تزد ، لأنها عتيقة .

(٣) كرى : عطى . والمصاف : الذى أسأته الحوم والتحيط : احتديت فى وظنى يلى القوس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشدد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة والسبد : الذنب . والنفا : شجر ؛ وقناه أخت الذئاب . وبهته : هيجته . والتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) المحس : لإبأس النيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكة : النامة الخلق .

مِنْ نَزُولِ الْقَارِعَةِ بِهِمْ ، وَهِيَ هَاهُنَا الْمَوْتُ ، وَسَمَّيْتُ الدَّاهِيَةَ قَارِعَةً لِأَنَّهَا تَقْرَعُ ، أَيْ تَصِيبُ بِشَدَّةٍ .

قوله : « فليصنع لمحتوِّه » ؛ أَيْ فليعدَّ مَا يَحِبُّ إِعْدَادَهُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ ،
تقول : اصنع لنفسك ، أَيْ اعمل لها .

قوله : « ومعارف منتقله » معارف الدَّارِ : مَا يُمْرِفُهَا لِلثَّوْتِ بِهَا وَاحِدُهَا مَرْفٌ ،
مِثْلُ مَعَارِفِ الدَّارِ ، وَمَعَالِمِ الدَّارِ ، وَمِنْهُ مَعَارِفُ الرِّأْسِ ، وَهُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْهَا ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ .
وَالْمُنْتَقَلُ ، بِالْفَتْحِ : مَوْضِعُ الْإِنْتِقَالِ .

قوله : « فطوَّأى » هِيَ « قُتِّلَ » مِنَ الْعَلِيْبِ ، قَلَبُوا الْيَاءَ وَآوَا لِلصَّوْتِ قَبْلَهَا ، وَيُقَالُ :
طَوَّأَى لَكَ ، وَطَوَّأَكَ ، بِالإِضَافَةِ .

وقول العامة : « طويك » بِالْيَاءِ غَيْرُ جَائِزٍ
قوله : « قَدَى قَلْبِ سَلِيمٍ » هُوَ مِنْ أَلْفَاظِ الْكِتَابِ الْمَرْزُوقِ^(١) ، أَيْ سَلِيمٍ مِنَ
الْفَلِّ وَالشَّكِّ .

قوله : « أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ » ، أَيْ قَبْلَ مَشُورَةِ النَّاصِحِ الْأَمْرِ لَهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ
لَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدُهُ ، أَيْ يَهْلِكُهُ بِإِغْوَاؤِهِ وَتَحْمِيْنِ الْقَبِيحِ لَهُ .
وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ : « يَبْصُرُ مَنْ بَصُرَهُ » ، مُتَعَمِّقَةٌ بِـ « أَصَابَ » .
قوله : « قَبْلَ أَنْ تَلْقَى أَجْرَهُ » ، أَيْ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ فَلَا تَقْبَلُ تَوْبَتَهُ .
وَالْحُلُوبَةُ : الْإِنْتَمُ . وَإِمَاطَتُهُ : إِزَالَتُهُ ، وَيَجُوزُ أَمْطَتُ الْأَذَى عَنْهُ ، وَمِطَتُ الْأَذَى عَنْهُ ،
أَيْ نَحَيْتُهُ ، وَمَنْعُ الْأَصْحَمِيِّ مِنْهُ إِلَّا بِالْهَمْزَةِ .

(١) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّرَاهِ ٨٩ : ﴿ إِنْ لَأَمِنْ أَنْتَى أَفَّا قَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ
الصَّافَّاتِ ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ قَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأصل :

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا :

أَلْخَنْدُقُ الَّذِي لَمْ يَضِيعْ بِي مَتَبًا وَلَا مَقِيًّا ، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَةٍ يَسُودُ ؛
وَلَا مَأْخُودًا بِأَسْوَأِ عَمَلٍ ، وَلَا مَقْطُوعًا دَائِرِي ، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكَرًا
لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيَّائِي ، وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي ، وَلَا مُمَذَّبًا بِمَذَابِ الْأَثَمِ
مِنْ قَبْلِي .

أَصْنَعْتُ عَبْدًا تَمْلُوكًا ، ظَالِمًا لِنَفْسِي لِمَكَ الْخُبَّةُ قَلْبِي - وَلَا حُجَّةَ لِي -
وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْذَ إِلَّا مَا أُعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْقَرَ فِي حَيَاتِكَ ، أَوْ أُصِلَّ فِي هَذَاكَ ، أَوْ أَضَامَ فِي
مُلْكَيْكَ ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ !

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْفِرُهَا مِنْ كَرَامَتِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ
وَدَائِعِ بِعِيكَ حَيْدِي !

اللَّهُمَّ إِنَّمَا نَعُوذُ بِكَ أَنْ مَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ ، أَوْ تَقْلَعَنَّ بَيْنَا
أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ !

• • •

التشريح :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصدر محذوف ، أى دماء كثيرا . وميتا منصوب على الحال ، أى لم يخلق الصباح على ميتا ، ولا يجوز أن تكون « يصبح » ناقصة ، ويكون « ميتا » خبرها ، كما قال الرازي : لأن خبر « كان » وأخواتها يجب أن يكون هو الاسم ، ألا ترى أنها مبتدأ وخبر في الأصل واسم « يصبح » ضمير « الله » تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروق سوء » ، أى ولا أبرص ، والعرب تكبي عن البرص بالسوء ، ومن أمتلئ : ما أنكرت من سوء ، أى ليس إنكارى لك عن برص حدث بك فغير صورتك .

وأراد سروره أعضاءه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعوناً في سبى ، والتفسير الأول أظهر .

« ولا مأخوذاً بأسوا على » ، أى ولا معاقباً بأغش ذنوبى .

ولا مقطوعاً دابري ، أى عقبى وسبى . والله ابر في الأصل : التابع ، لأنه باني دبراً ، ويقال لهالك : قد قطع الله دابره ، كأنه يراد أنه معاً آثره ، وبها اسمه ، قال سبحانه : ﴿ أَنْ دَابِرَ هُوَلَا مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴾ (١) .

ولا مستوحشاً ، أى ولا شاكاً في الإيمان ، لأن من شك في عقيدة استوحش منها . ولا ملتبساً عقل ، أى ولا محاطاً عقل ، لبست عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته . وعذاب الأمم من قبل السخ والزلزلة والظلمة ونحو ذلك .

قوله : « لك الحجة على » ، ولا حجة لي » ، لأن الله سبحانه قد كلفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبح القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجة الله تعالى على عباده ، ولا حجة للعباد عليه ، لأنه ما كلفهم إلا بما يطيقونه ، ولا كان لهم لطف في أمر إلا وفعله .

قوله : « لا أستطيع أن أحد إلا ما أعطيتني » ، ولا أتقى إلا ما وقَّيتني » ، أي لا أستطيع أن أرزق نفسي أمراً ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسي معذوراً من الرض واللوث إلا ما دفعته أنت عني .

وقال الشاعر :

لَمَسْرُكٍ مَا يَذْرِي أَلْعَى كَيْفَ بَتَّى نَوَائِبَ هَذَا الذُّهْرِ أَمْ كَيْفَ يَحْذَرُ أ
يَرَى الشَّيْءَ يَمَّا بَتَّى مَعَالَهُ ^(١) وَهَلَا يَرَى مِمَّا يَبْقَى اللَّهُ أَكْثَرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب

كِفَايَةُ اللَّهِ أَحَدِي مِنْ تَوَلَّيْنَا وَعَادَةُ اللَّهِ فِي الْأَعْدَاءِ تَكْفِينَا
كَادَ الْأَعْدَى مَا أَجْرُوا وَلَا تَرَ كَوَا عَيْبًا وَطَعْنًا وَتَقْبِيحًا وَنَهْجِيْنَا
وَلَمْ يَزِدْ عَمَّنْ فِي سِرٍّ وَفِي عِلْنٍ عَلَى مَقَالَتِنَا : اللَّهُ يَكْفِيْنَا
وَكَانَ دَاكٍ - وَرَدَّ اللَّهُ حَالِدَنَا بِمِظْلِهِ - لَمْ يَبْلُ مَأْمُولُهُ فِينَا

قوله عليه السلام : « أن أفتقر في هناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « في » متعاقبة بمحذوف ، والمعنى أن أفتقر وأنت الموصوف بالفقر الفائن على الخلق ، وكذلك قوله : « أو أصِل لي هناك » ، معناه : أو أضل وأنت ذو الهداية العامة للبشر كافة ، وكذلك : « أو أضام في سلطانك » ، كما يقول التنزيث إلى السلطان : كيف أعظم في مدلك أ

(١) كذا في أ ، وفي ب : د وجماله .

وكذلك قوله : « أو أضطهد والأمر لك » ، أى وأنت الحاكم صاحب الأمر ، والطاء فى « اضطهد » هى تاء الاعتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أى قهرته وقلان ضهدة لكل أحد ، أى كل من شاء أن يقهره فعل .

قوله : « اللهم اعمل نفسى » ، هذه الدعوة مثل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهى قوله : « اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعل الوارث منا » ، أى لا تجعل موتنا متأخرا عن ذهاب حواسنا . وكان على بن الحسين يقول فى دعائه : اللهم احفظ على سمى وبصرى ، إلى انتهاء أجل .

وفسروا قوله عليه السلام : « واجعل الوارث بنا » ، فقالوا : الضير فى « واجعله » يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتق الإمتاع بالسمع والبصر بعد خروج الروح ؟ قلت : هذا توسع فى الكلام ، والمراد : لا تلهنا بالعمى ولا الصمم ، فكون أحياء الصورة ولنا أحياء فى الصور ، لأن من قدما لا خير له فى الحياة ، فلهذا الباطنة حل أن طلب بقاءها بعد ذهاب النفس ، إيداما وإشمارا بحبه ألا يبلى ببقدها .

ونفتن ، على ما لم يسم فاعله : نصاب بفتنة نصيبنا عن الدين ، وروى : « تفتن » بفتح حرف المضارعة على « نفعل » ، افتن الرجل أى فتن ، ولا يجوز أن يكون الافتنان متعديا كإدكره الراوندى ، ولكنه قرأ فى « الصحاح » لجوهري : « والفتون : الافتنان ، بعمدى ولا بعمدى » ، فظن أن ذلك للافتنان وليس كافتن ، وإنما ذلك راجع إلى الفتون .

والمتاع : التهاوت فى المعاج والشر ، ولا يكون إلا فى مثل ذلك ، وروى أبو قتابع بطرح إحدى القاءات .

(٢٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أَمَّا أَمَدٌ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْعَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوَلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى
مِنَ الْحَقِّ مِثْلٌ لِلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَآلَفُ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي
التَّنَاصُفِ ، لَا يَحْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَحْرِي عَلَيْهِ إِلَّا حَرَى لَهُ . وَلَوْ كَانَ
لِأَحَدٍ أَنْ يَحْرِي لَهُ وَلَا يَحْرِي عَلَيْهِ ، لَسَكَانَ ذَلِكَ حَالِصًا فِيهِ سُبْعَانَهُ دُونَ حَقِّهِ ،
لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلِمَذَلِّهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ شُرُوفُ قَصَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْعَانَهُ
حَمَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ حَرَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُصَاعَفَةَ النَّوَائِبِ ، تَفْصُلًا مِنْهُ ،
وَتَوْسَعًا عَمَّا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ .

• • •

الشرح :

الذي له عليهم من الحق هو وجوب طاعته ، والذي لم عليه من الحق هو وجوب
معدله فيهم . والحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقتها في التناصف ؛ معناه أن كل
أحد يصف الحق والمعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وليت المعدل ، فهو
بالوصف باللسان وسع ، وبالفعل صيق ، لأن ذلك العالم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه ،
ويعيدون أن لو ولّوا بآعتماده وعمله ، لا تحذف في الألف منهم واحدا لو ولي المعدل . ولكنه
قول خير مما

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول ، وهو وجوب الحق له وعليه ، فقال : إنه لا يجرى لأحد إلا وجرى عليه ، وكذلك لا يجرى عليه إلا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموحودين يرتفع عن أن يجرى الحق عليه ، ولو كان أحد من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك البارئ سبحانه ، لأنه غاية الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام ، وهو مالك الكل ، وسيّد الكل ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه ، ولصحتها سماع ، لكان البارئ تعالى أولى بها ، وهي ألا يستحق عليه شيء ، وتقدير الكلام : لكنه يستحق عليه أمور ، فهو في هذا الباب كالواحد منا يستحق ويستحق عليه ، ولكنه عليه السلام حذف هذا الكلام المفرد ، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول : إنه يستحق عليه شيء .

فإن قلت : فما بال المتكلمين لا يثأرون بكذبهم عليه السلام ؟ وكيف يطلقون عليه تعالى الرجوب والاستحقاق ؟

قلت : ليست وظيفة المتكلمين وظيفته أمير المؤمنين عليه السلام في عباراتهم ، هؤلاء أرباب صناعة ، وعلم يحتاج إلى العاقل والمصطلح لا بد لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأمير المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورحمة لبسوا من أهل النظر ، ولا محاطته لم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرب عدوه ، فوجب عليه عتق الأديب أن يتوقى كل لفظة تؤم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلهية وفي غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التي زعمت أنها تستحق على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والموض ، وقبول التوبة ، والطف ، والوفاء بالوعد ، والوعيد ، وغير ذلك مما يذكره أهل المدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلفه ، لقدرته على عباده ، ولعده في كل ما جرت عليه صروف قصاته » ؟ وحب أن تمليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصح تمليل ذلك بعباده في كل ما جرت عليه صروف قصاته ؟ ألا ترى أنه ليس بمستقيم أن تقول لا يستحق على الهاري شيء ، لأنه عادل ، وإنما المستقيم أن تقول لا يستحق عليه شيء ، لأنه مالك ، ولذلك علق الأشعرية هذا الحكم بأنه مالك الكل ، والاستحقاق إنما يكون على من دونه .

قلت : التمليل صحيح ، وهو أيضا مما علق به الأشعرية مذهبها ، وذلك لأنه إنما يتصور الاستحقاق على الماعل المختار إذا كان ممن هو وقع منه أو يصح منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستحق عليه كذا ، فأما من لا يمكن أن يظلم ، ولا يتصور وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا يلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوحوب والاستحقاق عليه ، كما يقال : كذا الداعي الخالص يستحق عليه أن يفعل مادام إليه الداعي ، ويجب عليه أن يفعل مادام إليه الداعي ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس بشر قوله عليه السلام : « وحمل جزاءهم عليه مصاعفة الثواب تفضلاً منه » بذهب الهمنادين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفصل من الله سبحانه ، وليس بواجب ؟

قلت : لا ، وذلك لأنه جمل المتفصل به ، هو مصاعفة الثواب ، لا أصل للثواب ، وليس ذلك بمستلزم عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحق المكلف عشرة أجزاء من الثواب فيعطى عشرين جزءاً منه ؟ أليس من مذهبكم أن التمثيل والتجليل لا يجوز من الهاري سبحانه أن يفعلها .

في الجنة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل ؟
فكيف قلت : إن مصاعفة الثواب عندنا جائزة ؟

قلت : مراده عليه السلام مصاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقة من النعم واللذة
الجسمانية خاصة في الجنة ، فسمى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنها جزء من الثواب ، فأما اللذة
العقلية فلا يحوز مصاعفتها .

قوله عليه السلام : « بما هو من للزيد أهل » ، أي بما هو أهل من الزيد ، تقدم
الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أن حال المجرور تقدم عليه ،
كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ حَرًّا نَصَابًا لَئِنْ حَيًّا لَهَا لِحَبِيبٍ



الأصل :

ثُمَّ حَمَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا أَفْتَرَضَهَا لِتَمْنِيِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا
تَشْكَافًا فِي وُجُوهِهَا ، وَبُوجِبُ تَمْنِيَّهَا بَعْضًا ، وَلَا يُسْتَوْجَبُ تَمْنِيَّهَا إِلَّا بِبَعْضٍ .
وَأَعْظَمُ مَا أَفْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ ، وَحَقُّ
الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي ، فَرِيصَةٌ فَرَسَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيَكُنَّ عَلَى كُلِّ ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا
لِلْأَقْبِمِ ، وَعِزًّا لِلدِّينِ ، فَلَيْسَتْ نَصْلُحُ الرَّعِيَّةِ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ ، وَلَا نَصْلُحُ
الْوَلَاةِ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ ، فَإِذَا أُدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقُّهُ ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا
حَقُّهَا ، عَزَّ أَلْحَقُ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَنَاجِحُ الْهَدْيِ ، وَأُخْذِلَتْ مَعَالِمُ الْمَدْلِ ، وَجَرَتْ
عَلَى أَذْلَالِهَا الشُّنُّ ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الرِّمَانُ ، وَطَمَسَ فِي بَقَاءِ الْهَدْيِ ، وَبَيَّسَتْ
مَطَامِيعُ الْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَتَامَى ، أَوْ أَجْعَفَتِ الْوَالِي بِرِعِيَّتِهِ ؛ اخْتَلَفَتْ هُكَاتِ
الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ ، وَتُرِكَتْ حَاجَةُ الشَّعْرِ ،
فَقِيلَ بِالْهَوَى ، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النَّفُوسِ ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ
حَقِّ عَطَلٍ ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ قُيِّلَ ، فَهَئَاكَ نَذِيرُ الْأَبْرَارِ ، وَنَعِيرُ الْأَشْرَارِ ، وَتَنْظُمُ
تَبَعَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ .

فَمَنْ لَيْسَ بِالنَّاصِحِ فِي ذَلِكَ ، وَحُسْنِ اتِّعَاوُنٍ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ أَشَدَّ عَلَى
رِصَا اللَّهِ حِرْمَتُهُ ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ ، بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا أَفْهَمَ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنْ
الطَّاعَةِ لَهُ . وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ أَهْلِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةِ بِمَبْلَغِ حُدُودِهِمْ ،
وَالْعِتَابِ عَلَى إِقَامَةِ الْخَلْقِ تَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ قَطَعَتْ فِي الْخَلْقِ مَزَلَّتُهُ ،
وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَصِيلَتُهُ ، بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَى عَلَى مَا حَمَلَهُ مِنْ حَقَرٍ ؛ وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ
صَمُرَتْهُ النَّفُوسُ ، وَافْتَحَمَتْهُ اللَّمُيُونُ ، بِدُونِ لُبٍّ يُجِنُّ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ بِإِمَانٍ عَلَيْهِ .

الشرح :

تسكافاً في وجوهها : تساوى وهي حق الوالى على الرعية، وحق الرعية على الوالى .
وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع ، فن رفع خبر مبتدأ محذوف ، ومن نصب خبره ضمير
فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالها التن ، بفتح الهزلة ، أى على مجاريها وطرقها .

وأجحف الوالى برعيته : ظلمهم .

والإدغال في الدين : الفساد .

ومحتاج السنن: جمع محبة، وهي جادة الطريق .

قوله : « وكثرت عِلَلُ النفوس » ، أى نعلها بالباطل . ومن كلام الحجاج : إياكم وعِلَلُ النفوس، فإنها أدوى لكم من عِلَلِ الأجساد .

واقصمته الميرون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دُرَيْد :

وَمِنْهُ مَا تَقْتَعِمُ الْمُتَيْنُ فَإِنْ دُقَّتْ جَنَاهُ سَاغَ عَدَمًا فِي الْقَهْمِ^(١)

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلة » ، قول زيد ابن علي عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإن عظمت منزلة فوق أن يذُكَّرَ بالله ، ويحذر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغر ببلون أن يذُكَّرَ بالله ويخوف من نفسه .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا قيلت الرعية وألبها » قول الحكماء : إذا علا صوت بمس الرعية على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال بهم : فقال أحدٌ من الرعية : لا ، فالملك مقتول .



[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولى الأمر الكثير الراسع ، قال الله سبحانه : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ »^(٢) .

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على للرء .

(١) من القصيدة ٧٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .

(٢) سورة النساء ٥٩ .

للمسلم فيها أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بها فلا سمع ولا طاعة .
وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أمر عليكم عبدٌ أسودٌ مجذعٌ فاسمعوا له وأطيعوا » .
ومن كلام علي عليه السلام : « إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند
تفريط الفجرة » .

نعت سعد بن أبي وقاص جريراً من عبد الله البجلي من العراق إلى عمر بن الخطاب
بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كفيذاح الجنبية ، منها الأعصم^(١)
الطائش ، ومنها القائم الرائش . قال : فكيف ستعدّ لهم ؟ قال : هو ثقافها ، الذي يقيم
أودعها ، ويامر عصلها^(٢) . قال : فكيف طاعتهم ؟ قال : يمتثلون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون
الطاعة إلى ولائها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أدببت الزكاة ، وإذا كانت الطاعة ،
كانت الجماعة .

ومن كلام أبرّ وزير الملك : أطع من فوقك بطنك من دونك .

ومن كلام الحكماء : قلوب الرعية حزائن واليها ، فما أودعه فيها وجدّه .

وكان يقال : صنفان متباغضان متنافيان : السلطان والرعية ؛ وهما مع ذلك متلازمان ،
إن صلح أحدهما صلح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعية منه محلّ
الجسد من الروح ، فالروح تألم بألم كل عضو من أعضاء البدن ، وليس كل واحد من الأعضاء
يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر
البدن صحيح .

(١) السهم الأعصم : القليل الريش .

(٢) العصل : الاعوجاج والليل .

وكان يقال : ظلم الرعية استجلاب البلية .

وكان يقال : المعجب بمن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزاء بطاعتهم !

وكان يقال : موت الملك الجائر خصب شامل .

وكان يقال : لا فحط أشد من جور السلطان .

وكان يقال : قد تسامل الرعية للشمرة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذل قيادها ،

وقد تسامل بالخرق فكاشف بما غيت ، وتقدم هل ماعيت ؛ حتى يعود ضاها شفاقا ،

ورذاها سبلا ساقا^(١) . ثم إن تخليت وقهرت فهو الدمار ، وإن غلبت وقهرت لم يكن نفعها

افتخار ، ولم يدرك جهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت شمرا مجتاة ؛ ودخائر مقتاة ، وسيوف منتزاة ،

وأحراسا مرتصاة ؛ فإن لها نغارا كنفار الخوش ، وطمانا كطمان السور ؛ ومتى قدرت

أن تقول ، قدرت على أن تصول .

وكان يقال : أيدي الرعية تبع ألسنها ؛ فإن يملك لللك ألسنها حتى يملك جسمها

ولن يملك جسمها حتى يملك قلوبها فصبه ، ولن تحبه حتى يمل عليها في أحكامه عدلا

يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفف عنها الموزن والكلف ، وحتى يفيها من ربح أوضاعها

وأراذلها عليها ؛ وهذه الثلاثة تمهدل الملك العلية من الرعية ، وتطعم السفلة في الرتب السنية .

وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صنف فصولا مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة ،

يعلمون فصيلة الملك وعظيم غناؤه ، وبرثون له من قتل أعبائه ، فهؤلاء يحصل الملك موداتهم

بالبشر عند اللقاء ، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصنف فيهم خير وشر ظاهران ،

فصلاحهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصنف من السفلة الرعاع أتباع

(١) السيل العاق . التصبت بشدة .

لكل دايع ؛ لا يمتحنون في أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون في اللوالة إلى عند .

وكان يقال : ترك للمصابقة لفقة على صغار الحرام ثم تدعوم إلى ارتكاب الكبائر العظام ؛ ألا ترى أول شور للرأفة كلمة سومت بها ، وأول حيران الدابة حنيدة سومت عليها .

ويقال : إن عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور في الفتنة : وددت أن رجلا صدوقا أخبرني عن مفسى وعن هؤلاء ! فقام إليه فتى فقال : إني أخبرك ؛ تطأطأت لم فركبك ، وما جرأتم على ظلمك إلا إمرأ طحلك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُشبّه نيران الفتن ؟ قال : نعم ، سألت عن ذلك شيخا من تنوخ كان باقيا ، قد ثقب في الأرض وعلم علما جيا ، فقال : الفتنة يثيرها امرأتان : أئمة تُصِفْنُ على الملك الخاصة ، وحلم يمزق عليه العامة . قال : فهل سألته عما يحيدنها ؟ قال : نعم ، زعم أن الذي يحيدنها في ابتدائها استقالة العترة وتسميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استعصمت الفتنة أخذها الصبر . قال عثمان : صدقت ؛ وإني لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يزيد جرد بن بهرام سأل حكيميا : ما صلاح الملك ؟ قال : الفرق بالرعية ، وأخذ الحق منها بنهر عصف والعود إليها ، العدل وأمن السبل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه ؛ إذا صلحوا صلح . قال : فما الذي يثير الفتن ؟ قال : ضعائن يظهرها جرأة عامة ، واستعفاف خاصة ، وانبساط الألسن بضائر القلوب ، وإشفاق مؤسر ، وأمن مُعسر ، وغفلة مرزوق ، وبقظة محروم . قال : وما يسكنها ؟ قال : أخذ العدة لما يخاف ، وإيثار الجاهلين بلبث الهزل ، والعدل بالحزم ، وإدراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال : خير الملوك مَنْ أشرَبَ قلوب رعيته محبته ، كما أشعرها هيئته ، ولن يُنال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء : إكرام شريفها ، ورحمة ضعيفها ، وإغاثة لميقها ،

وكفّ عدوان عدوتها ، وتأمين سبل رواحها وغذوتها ، فمضى أعدمها شيئاً من ذلك ،
فقد أحقدها^(١) بقدر ما أفقدها .

وكان يقال : الأسباب التي تحرك الملك إلى تلك ثلاثة :
أحدها من جهة الملك ، وهو أن تتأثر شهواته على عقله ، فتسهر به نشوات الشهوات
فلا تسبح له لذة إلا اقتنعها ، ولا راحة إلا افتقرها .
والثاني من جهة الوزراء ، وهو تحاسد المقتضى لمعارض الآراء ، فلا يسبق أحدكم إلى
حق إلا كوييد وعورض وهوند .

والثالث من جهة الحشد المؤهلين لحراسة الملك والدين ، وتوهمين المعامدين ، وهو مكولهم
عن الجلال ، وتصحيحهم في المناصحة والجهاد ، وهم صفان : صنف وسع الملك عليهم فأطرم
الإتراف ، وصنّفوا بنوعهم عن التعريض للإتلاف ، وصنف قذر عليهم الأوراق ، فاضطعموا
الأحقاد^(٢) واستشعروا النفاق .

[الآثار الواردة في العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أضعف الوالي رعيته » ، قد جاء من بطائره الكثير جداً ،
وقد ذكرنا فيما تقدم نكتاً حسنة في مدح العدل والإنصاف ، وذمّ الظلم والإجحاف . وقال
النبي صلى الله عليه وآله : « زين الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب .
وزين الأرض بثلاثة : العلماء ، والاطم ، والتمسطن العادل » .
وكان يقال : إذا لم يستر الملك ملكه بإنصاف الرعية حرب ملكه بمصيان الرعية .
وقيل لأبوشروان : أيّ الخين أوقى ؟ قال : الدين ، قيل : فأىّ العدد أقوى ؟ قال : العدل .

(١) يقال : أحقده ، أي صيره حائداً . (٢) اضطعوا الأحقاد : اضطعوا عليها .

وقع جعفر بن يحيى إلى عامل من ماله : كَثُرَ شَاكُوكُ ، وقلَّ حَامِدُوكُ ، فإِذَا عُدَلْتُ ، وَإِنَّمَا اعْتَزَلْتُ .

وُجِدَ فِي حِرَازَةِ بَعْضِ الْأَكَاْسَةِ سَفَطٌ ، فَفُتِحَ فَوُجِدَ فِيهِ حَبُّ الرِّمَانِ ، كُلُّ حَبَّةٍ كَالنَّوَاةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ نَوَى الشَّمْسِ ، وَفِي السَّفَطِ رُقْعَةٌ فِيهَا : هَذَا حَبُّ رِمَانٍ عَمِلَ فِي خِرَاجِهِ بِالْعَدْلِ .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب منطلقاً ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا مَكَانُ الْعَائِدِ بِكَ . قَالَ لَهُ : عَذْتُ بِعَمَادٍ ، مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : سَابَقْتُ وَلَدَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِمِصْرَ فَسَبَقْتُهُ ، فَعَمِلَ بِمِصْرَ بِسُوءِ طَرَفٍ ، وَيَقُولُ : أَمَّا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ ! وَبَلَغَ أَبَاهُ ذَلِكَ ، فَنَسِيَ خَشْيَةَ أَنْ أَقْدُمَ عَلَيْكَ ، فَكَتَبَ إِلَى عَمْرٍو إِذَا نَأَاكَ كَتَبْتُ فِي هَذَا فَاشْهَدِ لِلْوَسْمِ أَنْتَ وَابْنُكَ . فَلَمَّا قَدِمَ عَمْرٍو وَابْنُهُ ، دَفَعَ الدُّرَّةَ إِلَى الْمِصْرِيِّ ، وَقَالَ : أَضْرِبْهُ كَمَا ضَرَبْتَكَ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ وَعَمْرٍو يَقُولُ : أَضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ ، أَضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ كَيْرِدَدَهَا ، حَقٌّ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ اسْتَقْدَمْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ : وَأَشَارَ إِلَى عَمْرٍو : ضَرْبُهَا عَلَى صَلَافَتِهِ ، فَقَالَ الْمِصْرِيُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا أَضْرِبُ مَنْ ضَرَبَنِي ، فَقَالَ : إِنَّمَا ضَرَبْتُكَ بِقُوَّةِ أَبِيهِ وَوَسْطَانِهِ ، فَأَضْرِبْهُ إِنْ شِئْتَ ؛ فَنَوَّاهُ لَوْ فَعَلْتَ لَمَا مَنَعَكَ أَحَدٌ مِنْهُ ، حَقٌّ تَكُونُ أَنْتَ الَّذِي تَتَبَرَّعُ بِالْكَفِّ عَنْهُ ! ثُمَّ قَالَ : يَا ابْنَ الْعَاصِ ، مَتَى تَعْبُدُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتَهُمْ أَمْهَاتِهِمْ أَهْرَارًا !

خطب الإسكندر جنده ، فقال لهم بِالرُّومِيَّةِ كَلَامًا تَفْسِيرُهُ : يَا عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، الَّذِي نَعْرَنَاهُ بَعْدَ حِينَ ، الَّذِي يَسْفِكُ الْعَيْثَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَإِلَيْهِ مَفْرَعُكُمْ عِنْدَ الْكَرْبِ . وَاللَّهُ لَا يَبْلُغُنِي أَنَّ اللَّهَ أَحَبُّ شَيْئًا إِلَّا أَحَبَّيْتُهُ وَعَمِلْتُ بِهِ إِلَى يَوْمِ أَجَلِي ، وَلَا يَبْلُغُنِي أَنَّهُ أَبْغَضُ شَيْئًا إِلَّا أَبْغَضْتُهُ وَهَجَرْتُهُ إِلَى يَوْمِ أَجَلِي . وَقَدْ أَنْبِئْتُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَدْلَ فِي عِبَادِهِ ، وَيُبْغِضُ الْجُورَ ، فَوَيْلٌ لِلْعَظَامِ مِنْ سَوْطِي وَسَيْفِي ! وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ

العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء ؛ وليكن علي ما شاء ، فلن نخطئه أميتته
والله الحارثى كلا بعله .

قال رجل لسلیمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم : يا أمير المؤمنين ، ألم نسمع قول الله
تعالى : ﴿ قَاذِنَ مَوْذُنٌ بِيَدِهِمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(١) قال : ما خطبتك أقال :
وكيلك اختصني ضيقتي وخصها إلى ضيقتك العلانية . قال : فإن ضيقتي لك ، وضيتك
مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرفه عن عمله .

وردني إلى كسرى قناد أن في بطانة الملك قوما قد فسدت نياتهم ، وخبثت ضمائرهم ،
لأن أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم ، فوقع في الجواب : أنا أمك الأجساد
لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأخلص عن الأعمال لا عن السرائر .

وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون من أوليهم : فقال : ما علمتني عمالي أعدل ولا أقوم
بأمر الرعية ، ولا أقود عليهم بالرفق حنة . فقال لهم بعضهم واحد : فلا أحد أولى منك
يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف ، وإذا كان هذه الصفة فن عدل أمير المؤمنين أن يوليّه
بلدا بلدا ، حتى يلحق أهل كل بلد من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، وبأخذوا بقسطهم منه
كما أحذمه سوام ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث
سنين . فضحك وعره .

كتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قبلنا قوما لا يؤدّون
الخراج إلا أن يحسبهم نصيب من العذاب ، فكتب إلى أمير المؤمنين برأيك . فكتب :
أما بعد ، فالمعجب لك كل المعجب ! تكتب إلي تستأذني في عذاب البشر ، كأن إذني لك
جنة من عذاب الله ، أو كأن رضاي بنجيك من سخط الله ! فمن أعطاك ما عليه عفوا

تخذ منه ، ومن أبي فاصعنه ، وكفه إلى الله ، فلأن بقوا الله يجرانهم أحب إلى من أن
ألقاه بمذابهم .

فضيل بن عياض : ما ينبغي أن تتكلم بغيرك كلمة ! أتدري من كان يشكك فيه
كلمة ! عمر بن الخطاب كان يمد في رعيته ، ويجور على نفسه ، ويظلمهم الطيب ، ويأكل
الغليظ ، ويكسوم الدين ويلبس الخشن ، ويعطيهم الحق ويزيدهم ، ويمنع والده وأهله ،
أعطى رجلاً عطائه أربعة آلاف درهم ، ثم رآه ألساً ، فقيل له : ألا تزيد ابنك عبد الله
كما تزيد هذا ؟ فقال : إن هذا ثبت أبوه يوم أحد ، وإن عبد الله قرأ أبوه ولم يثبت .

وكان يقال : لا يكون العمران ، إلا حيث يمدل السلطان .

وكان يقال : المدل حصن وثيق ، في رأس نيق^(١) ، لا يحطمه سيل ، ولا يهدمه منجنيق .
وقع المأمون إلى عامل كثر الخطم منه : الكسف من وليت أمرهم ، وإلا أصفهم منك
من ولي أمرك .

بعض السلف : المدل ميزان الله ، والجور مكيال الشيطان .

(١) النيق : أديم مومع و الجبل .

(٢١٠)

الأصل :

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ،
ويذكر سمحه وطاعته له ، فقال عليه السلام :

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ ، أَنْ
يَضُرَّ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذَلِكَ - كُلُّ مَا سِوَاهُ ، وَإِنْ أَحَقَّ مِنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تَعْظُمَتْ نِعْمَةُ
اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَطَفَ إِحْسَاؤُهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ ، إِلَّا أَرَادَ اللَّهُ حَقُّ اللَّهِ
عَلَيْهِ عِظَمًا .

وإن من أسخف حالات الأولياء عند صليح الناس ، أن يظن بهم حب الفخر ،
ويوضع أمرهم على الكبر . وقد كبرت أن يكون جال في ظنكم أني أحب
الإطراء ، وأستماع الثناء ؛ ولست بحمد الله كذالك ، ولو كنت أحب أن يقال
ذلك لتركته أعظمًا ما في سُبْحَانَهُ عَنْ تَقَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ الْمَظْمَةِ
وَالْكِبَرِيَاءِ .

وَدُبَّ مَا اسْتَحَلَّ النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، فَلَا تُنْسُوا عَلَى تَحْمِيلِ ثَنَاءٍ ، لِإِخْرَاجِي
نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْحَقِيقَةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَمْرُغْ مِنْ أَدَائِيهَا ، وَفَرَائِضِ
لَا بُدَّ مِنْ إِنْصَافِيهَا ، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَّارَةَ ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا لِي بِمَا
يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ ، وَلَا تُغَالِطُونِي بِالصَّانَةِ ، وَلَا تَفْظُنُوا بِي اسْتِغْفَالًا
فِي حَقِّ قِيلَ لِي ، وَلَا الْيَمَاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي ، فَإِنَّهُ مَنْ اسْتَنْقَلَ الْخَلْقَ أَنْ يُقَالَ لَهُ ،
أَوْ الْمَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِ أَثْقَلَ عَلَيْهِ .

فَلَا تَكْفُرُوا هُنَّ مُقَالِفٌ بِحَقِّ ، أَوْ مَشُورَةٌ بِعَدْلٍ ، فَبِئْسَ لِسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقٍ أَنْ
أُحْطَى ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِئْلِي ، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِدِرْمِي ،
فَلَوْ تَمَّا أَمَّا وَأَنْتُمْ حَبِيدٌ تَمُوتُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ؛ بِمَلِكٍ مِنْهَا مَا لَا تَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا
وَأُخْرَجْنَا بِمَا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَنَعْنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الصَّلَاةِ بِالْهَدْيِ ، وَأَعْطَانَا
الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

التَرْجُحُ :

هذا العصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرح ، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها
أن تذكر وتوضح ، وتذكر نظائرها وما يناسبها .

ففيها قوله عليه السلام : إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَتْ نَسَمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ تَعْلَمَ عَلَيْهِ حَقُّ
اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يَعْلَمَ جَلَالَ اللَّهِ تَعَالَى فِي غَيْبِهِ ، وَمِنْ حَقِّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ ، أَنْ يَصْفُرَ
عِنْدَهُ كُلُّ مَاسُومٍ اللَّهِ .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقاق كلِّ ماسومٍ الله تعالى ، وذلك
أَنْ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَدْ عَرَفَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ ، بَلْ لَا نِسْبَةَ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَصْلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ . فَلَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْعَارِفِ عَظَمَةُ غَيْرِهِ الْهَيْئَةُ ، كَمَا أَنَّ مَنْ شَاهَدَ الشَّمْسَ
لِلنَّيِّرَةِ يَسْتَحْقِرُ ضَوْءَ الْقَمَرِ وَالسَّرَاجِ الْمَوْصُوعِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، حَالِ مَشَاهِدَتِهِ جَرْمِ الشَّمْسِ ،
بَلْ لَا تَظْهَرُ لَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُورَةُ السَّرَاجِ ، وَلَا تَنْطَلِعُ صُورَتُهَا فِي بَصَرِهِ .

ومعها قوله عليه السلام : مَنْ أَسْحَفَ حَالَةَ الْوَلَاةِ أَنْ يَظُنَّ بِهِمْ حَبَّ الْقَمَرِ وَيُوضِعَ

أمرهم على الكبر قال النبي صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلكات لصلى الناس : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمحبب رأى ، ولا لمفكر صديق .

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : مائة إلا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط ، ولا تمصب إلا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : الخمس الرفعة بالتواضع ، والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإياك والحيلة فتصع من نفسك ، ولا تحقرن أحداً ، لأنك لا تدري لعل من تزدر به عيناك أقرب إلى الله وسيقه منك .

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهت أن تظنوا في حب الإطراء واستماع الثناء . قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « احتشوا وجوه المداحين التراب » . وقال عمر : المدح هو القبح .

وكان يقال : إذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك ، فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك .

ويقال : إن في بعض الكتب المرواة القديمة : عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! ولئن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يمصب ! وأعجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين ، وأنقص الناس على الظن .

وكان يقال : لا يظن جهلٌ غيرك بك علمك بنفسك .

وقال رجل لعبد الملك : إني أريد أن أسير إليك بأمر المؤمنين شيئاً ، فقال لمن حوله :

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قِفْ ، لا تمدحني فإني أعلم بنفسي منك ، ولا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب ، ولا تعقب عندي أحدا ، فإني أكره العيبة ، قال : أفيأبد أمير المؤمنين في الإصراف ! قال : إذا شئت .

ونافذ المأمون محمد بن العاسم اللوشعاني في مسألة كلامية ، فجعل اللوشعاني يتنضم في الكلام ، ويستغذي له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وحبوب الحقيقة لي عليك . وقد ساء لي منك ذلك ، ولو شئت أن أقسر الأمور بمرآة الخلافة ، وهيبة الرئاسة لصدقت وإن كنت كاذبا ، وعدلت وإن كنت جائرا ، وصوبت وإن كنت مخطئا ، ولكني لا أقنع إلا بإقامة الحقيقة ، وإزالة التشبه ؛ وإن أنقص الملوك عقلا ، وأسحقهم رأيا من رضي قولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفع في " البينة " ثم إليك إذا كنت واليا أن يكون من شألك حب المدح والتركبة ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثمة من التلم يقتحمون عليك منها ، وبما يقتحمونك منه ، وعيبة يتأبهونك بها ، وبسحرون منك لها . واعلم أن قابل المدح كادح نفسه ، وأن الرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحملُه على رده ، فإن الراد له مدح ، والقابل له عيب .

وقال معاوية لرجل : مَنْ سَيِّد قومك ! قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم نقله .
وقال الحسن : ذمُّ الرجل نفسه في العلانية مدح لها في السر .
كان يقال : مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكَّاه .

• • •

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقَّ به من الكبرياء . في الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله » .

وفيه أيضا : العظمة إزارى ، والكبرياء رذائى ، فن نازعنى فيهما قصته

ومها قوله عليه السلام : « فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابة ، ولا تتعففوا منى بما يعفون به عند أهل البادية » .

أحسن ما سمعته فى سلطان لا تخاف الرعية بادرته ، ولا يتلجلج للثعا كون عدده ؛ مع سطوته وقوته ، لإبثاره العدل . قول أبى تمام فى محمد بن عبد الله :

وزيرٌ حقٌّ ، ووالى شرٌّ طعيرٌ ورحا ديوانٌ مُلكٌ ، وشيئٌ ^(١) ، ومحبٌّ ^(٢)
كالأرحى الذى سبزه المرطى والوحد والمتمع والتقريب ^(٣) والمحجب ^(٤)
عودٌ ناجله أيتامه فيها بين مته وبه من مسها جلب ^(٥)
ثبت الخطاب إذا اضطكت بمظلة فى ركبته العن الأتوام والركب ^(٦)

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان يمس الناس يقول لأبى تمام : أنا أستعصم قول امرئ القيس :

وتعرف فيه من أبهى شمائله ومن خاله ومن يزيد ومن حبر
سمحة ذا ، وجود ذا ، ووطا ذا ، ونائل ذا إذا صمعا وإذا سكر

مذكر أربعة وردت عليها أربعة أوصاف ؛ ملكه أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أشدتنى بيتى امرئ القيس .
ولحسن ذكره لأربعة وردت عليهم أربعة أوصاف ، وقد ذكرت عدة وردت عليهم عدة أوصاف ،
وأشده هدى البين الأرحى ، حتى به نجيا من الإبل مسوبا إلى أرحب ، وهم من همدان والذئ
الذى قد تحت سه وذكاه ، يقال : فرس منك ووحش منك . والمرطى : ضرب من المدوسه ، وطلا
يستعمل فى الإبل ، فأما الوجد وللح فحيثما كثر وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون :
وجد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأسمى . والتقريب أيضا لا يكاد يستعمل فى الجمال ، يقول :
هذا المدوح جم لإصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحى هذه الضروب من السير .

(٣) العود : المس من الإبل ، والمراد به هنا الرمح لحرب ، على الاستعارة . والمحلب : جمع حلبة ، وهو
الأثر فى ظهر العير وغيره من أثر حمل أو نحوه ، يقول : قد حربت الأمور ، خيرها وشرها ؛ يكون
الدمر مرة مرة ومرة عليه ، فكأنه يساحل .

(٤) اضطكت . اضطرت ، وقوله : « بمظلة » ، أى بمظلة مظلة .

لا المطلق المَعْوِيزُ كَو في مَقَارِبِهِ يومًا ، ولا حجة الملهوف تُسْتَلَبُ (١)
كَأَنَّمَا هُوَ في نادى قَيْلَتِيهِ ————— لَا الْقَلْبُ يَهْفُو وَلَا الْأَحْشَاءُ تَضْطَرِبُ (٢)

ومن هذا المعنى قول أبي الجهم السدوسي ، في معاوية :

نَقَلَبُهُ لِنَخْبَرِ حَالَتَيْهِ فَنُخْبِرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلَيْسًا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا إِذَا مَلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْسَا

ومنها قوله عليه السلام : لا تظنوا بي استئصالَ رُفْعِ الحقِّ إلى ، فإنه من استئصل
الحق أن يقال له ، كان العملُ به عليه أَثْمَلُ .
هذا معنى لطيف ، ولم أسمع فيه شيئًا منشورًا ولا منقولًا .

ومنها قوله عليه السلام : ولا تسكتوا عن قول بحقٍّ أو مشورةٍ بعدل .
قد ورد في المشورة شيء كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (٣) .
وكان يقال : إذا استشرت إنسانًا صار عقله لك .

وقال أعرابي : ما غُيِّبَتْ قَطُّ حَقٌّ بَيْنَ قَوْمِي ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا أفضل
شيئًا حتى أشاورهم .

وكان يقال : من أعطى الاستشارة لم يمتنع الصواب ، ومن أعطى الاستشارة
لم يمتنع الخيرة ، ومن أعطى التوبة لم يمتنع القبول ، ومن أعطى الشكر لم يمتنع المزيد .
وفي آداب ابن القفّح : لا يَقْضَ قَنْ في رُوعِكَ أَنَّكَ إِذَا استشرت الرجال ظهر منك
للناس حاجتك إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك من المشاورة ، فإنك لا تريد الرأي لنفسك ؟

(١) المطلق المَعْوِيزُ : المهدر وما لا يحتاج إليه من الكلام . وزَكَو : بروج ويسو ، مقارم : جمع مقام .

(٢) لا القلب يَهْفُو : أي لا يزعج مما يجرده .

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أردته فذكر لكان أحسن الذكر عند الخلائق أن يقال :
إنه لا يتفرد برأيه دون دوى الراى من إخوانه .

• • •

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « وربما استحلّ الناسُ الثناء بعد
البلاء ... » إلى قوله : « لا بدّ من إمضاءها » ؟ فنقول : إن معنى أن بعض من يكره الإطراء
والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاحتبار ، كما قال مرزّاس بن أدبّة لزياد : إنما الثناء
بعد البلاء ، وإنما تنفى بعد أن ينقل ؛ فقل : لو فرضنا أن ذلك سائق وجائز وغير قبيح ،
لم يحزّ لكم أن تثنوا علىّ في وحيى ، ولا جارى أن أسمعه منكم ؛ لأنه قد قيت علىّ
بقية لم أفرع من أداها ، وفرائص لم أمضها بعد ، ولا بدّ لي من إمضاءها ؛ وإذا لم يتمّ
البلاء الذى قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

• • •

ومعنى قوله : « لإخراجى نفسى إلى الله وإليك » أى لإعترافى بين يدي الله ومحصّر
منكم أن علىّ حقوقا في إياكم ، ورياستى عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

• • •

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا تمحطوا بالصانعة » ؟ فنقول : إن معنى لا تمحطوا
بالمدح والإطراء من عمل الحق ، كما يصانع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم
الإطراء والثناء ، فينمسون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صوبوا به من التقرّظ
والتركية والتفائق .

• • •

ومنها قوله عليه السلام : « فإني لست بفوق أن أحظى » ؛ هذا اعتراف منه عليه
السلام بقدّم العصاة ، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته » .

■ ■ ■

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا كذا فيه ، فأبدلتك الصلاة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى حاصن نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافراً فأسلم ، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يحاط بهم من أفتاء الفلاس ، فيأتي بصيغة الجمع الداحلة فيها نفسه توسعاً ، ويجوز أن يكون معناه : لولا الطافُ الله تعالى ببعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيري على أصل مذهب الأملاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لتبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ^(١) ليس معناه أنه كان كافراً ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحد من قومك . ومعنى « ووجدك ضالًّا » ، أي ووجدك بمرحلة ^(٢) للضلال ، فسكانه ضالًّا بالقوة لا بالفعل .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : « برؤية الضلال » .

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرْبَى وَمِنْ أَعَانِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَأَكْفَتْهُوَ .
إِنِّي ، وَأَجْعَلُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْخَلْقِ
أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْخَلْقِ أَنْ تُنَمِّعَهُ ، فَأَصْبِرْ مَعْمُومًا ، أَوْ مُتَّ مُتَّاعًا .

فَنَظَرْتُ إِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلَا ذَابٌ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي ؛ وَصَنَنْتُ بِهِمْ
مِنَ الْمَيْمَةِ ، فَأَعَصَيْتُ عَلَى الْقَدَى بِوَجْهِتِ رَبِّي عَلَى الشُّجَاءِ ، وَصَنَنْتُ مِنْ كَفْمِ الْمَيْظِ
عَلَى أَمْرِ مِنَ الْمَلَمِّ ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَحْرِ الشُّعَارِ .

•••

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، إِلَّا أَنِّي
ذَكَرْتُهَا هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرُّوَايَتَيْنِ .

•••

الشرح :

المدوى : طلبك إلى والي لثمدك على مَنْ ظلمك ، أى ينتقم لك منه ، يقال :
استعديت الأمير على فلان فأعداني ، أى استعنت به عليه فأعداني .

وقطعوا رحى : وقطعوا قرابتي ، أى أجروني بحرى الأجانب ويحوز أن يريد أنهم
عدوني كالأجنبي من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويحوز أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي

منهم ؛ لا يصرونه ، ولا يقومون بأمره .

وأكفتموا إنائي : قلبوه وكتبوه ، وحذف الهرة من أول الكلمة أفصح وأكثر ، وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيفت حقوقه : قد أكرمنا إناؤه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء .

وقد اختلفت الرواية في قوله : « ألا إن في الحق أن تأخذ » ، فرواها قوم باللون ، وقوم بالتاء . وقال الراوندي : إسهاف خط الرضى بالتاء . ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتك حقاً ، وإن ولي غيرك كانت ولايته حقاً ، على مذهب أهل الاجتهاد . ومن رواها باللون ، فالمعنى ظاهر .

والرافد : اللعين . والهاب : العاصر .

وصنعت هم : بجلت هم . وأغضيت على كذا : صبرت .

وجرعت بالكسر والشعاع : ما يترس في الخلق .

والوحز : الطعن الخفيف ، وروى « من حر الشفار » والحز : القطع .

والشفار : جمع شفرة ، وهي حدة السيف والكين .

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه ، ويمجى مجراه ، ولم يؤرخ الوقت الذي قاله فيه ، ولا الحال التي عناه ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله حبيب الشورى وبيعة عمان ، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا على أنه تغلم وتألّم حينئذ .

ويكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة .
ولقائل أن يقول لهم : أقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة فيقولون : لا ، فيقال

لم : فقل ماذا تحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتعديتكم لأقواله ؟ فيقولون :
نحمل ذلك على تأله ونظمه منهم إذا تركوا الأولى والأفضل . فيقال لهم : فلاتكروا
قول من يقول من الشيعة وغيرهم : إن هذا الكلام وأمثاله صدر عنه عقيب السقيفة ، وحمله
على أنه تألم ونظم من كونهم تركوا الأولى والأفضل ، فإنكم لستم تنكرون أنه كان
الأفضل والأحق بالأمر ، بل تعترفون بذلك ، وتقولون : ساءت إمامة غيره ، وصححت
لما نفع كان فيه عليه السلام ، وهو ما علب على ظنون الماقدنين للأمر من أن العرب لا تطيعه ،
فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويعدونها ، وقد
روى كثير من المحدثين أنه عقيب يوم السقيفة تألم ونظم ، واستنجدوا وتصرخ ، حيث
ساموه المحصور والبيسة ، وأنه قال وهو يشير إلى القبر : ﴿ يَا بَيْنَ أُمَّمٍ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَصَفَّوْنِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ﴾ ^(١) وأنه قال : واجفروا ! ولا جفروا لي اليوم ! واحزنوا ولا حزنة
لي اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم ، وكل ذلك محمول عندنا على أنه
طلب الأمر من جهة الفضل والقراية ، وليس بدالراً عندنا على وجود النص ، لأنه لو كان
هناك نص لكان أقل كلفة وأسهل طريقاً ، وأيسر ليلاً يريد تناوياً أن يقول : يا هؤلاء
إن العهد لم يطل ، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمركم بطاعةي ، واستخلفني عليكم
بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ما علمتموه ونص بفسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فما الموجب
لتركه ، والمدول على !

فإن قالت الإمامية : كان يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لهم : فهل يخاف القتل
وهو يقتل ويدفع ليهاب ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بغير رسول الله صلى الله عليه وآله ،

وتارة سمّه حمزة وأخيه جعفر - وهما ميثان - وتارة بالأنصار ، وتارة بيني عبد مناف ، ويجمع الجحوع في داره ، ويبيت الرسل والدعاة ليلاً وسهراً إلى الناس ، يدكّرهم فضله وقرايته ، ويقول للمهاجرين : خَصَّصْتُ^(١) الأنصار بكم كم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أخصّصكم بما خَصَّصْتُ به الأنصار ، لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة ، فأنا أقربُ منكم .

وهذا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة في داره بأصحابه ، ومن تنفير الناس عن الهمّة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له !

وكلّ هذا إذا تأمله المصيف علم أن الشيعة أصابت في أمر ، وأخطأت في أمر ، أما الأمر الذي أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأما الأمر الذي أخطأت فيه ، فقولها : إنه كان معصوماً عليهم نصاً جلياً بالخلافة ، تعلمه الصحابة كلها أو أكثرها ، وإن ذلك النصّ يخولف طلباً للرئاسة الدنيوية ، وإيثاراً للمصلحة . وإن حال المخالفين للنص لا يندبر أحد أمرين : إما الكفر أو الفسق ، فإن قرآن الأحوال وأماراتها لا تدلّ على ذلك ، وإنما تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مبدأ الأمر يظن أن المقدّم لغيره كان عن غير نظر في المصلحة ، وأنه لم يقصده إلا صرف الأمر عنه ، والاحتشار عليه ، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والمقود في بيته ، إلى أن صحّ عنده ، وثبت في نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنهم لم يميلوا إلى هوى ، ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلاح في ظنونهم ، لأنه رأى من يفض الناس له ، وانحرفهم عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم ، واحتدام النيران التي كانت في قلوبهم ، وتذكروا التراث التي وترّاهم فيها قبل بها ، والدماء التي سفكها منهم ، وأرقها .

(١) خصصم الأنصار : خلّصهم .

وتمثل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنه ، واستهجانهم قديم الشباب على الكهول والشيخوخة .

وتمثل طائفة أخرى منهم بكراهية الجمع بين النبوة والخلافة في بيت واحد ، فيجفخون^(١) على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تديبه وشدته ، وعلمهم بأنه لا يداجي ولا يحابي ، ولا يراقب ولا يحامل في الدين ، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يجتهد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، للعهد الذي كان عندهم له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتمغليه إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما احتص به من مصاهرته وأحوته ، وعم ذلك من أحواله معه ، وتكبر قوم آخرين له لنسبتهم إليه المحبب والتمية ، كما زعموا ، واستغفاره للعرب ، واستصعابه الناس كما عدوه عليه ، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولكنك قول قيل : وأمر ذكر ، وحال نسبت إليه ، وأعلمهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال تؤهم مثل هذا ، نحو قوله : « فإما صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا » ، وما صح به عنده^(٢) أن الأمر لم يكن ليضيق له يوماً واحداً ، ولا ينظم ولا يستمر ، وأنه لو ولي الأمر لفتت العرب عليه ففقا يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأدعن بالبيعة ، وجأح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمرة ، وإن كان على مضمض ورمض .

وقد روى عنه عليه السلام أن فاطمة عليها السلام حررت يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوت المؤذن : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، فقال لها : أيسرك زوال هذا النداء من الأرض ؟ قالت : لا ، قال : فإنه ما أقول لك .

(١) فيجفخون : يخشعون ويشكرون .

(٢) ب : « عنده » ، وما أئيت من أ

وهذا للذهب هو اقصد المذهب وأصحابها ، وإليه يذهب أصحابنا التأخرون من
الهداديين ، وبه نقول .

واعلم أن حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى
الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انقراض العرب عليه من أقطارها حين يبيع بالخلافة بعد
وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسي وعشرين سنة ، وفي دون هذه المدة تنسى
الأحقاد ، وتموت الترات ، وتبرُد الأكباد الحامية ، وتسو القلوب الواجدة ، ويمدّم قرن
من الناس ، ويوجد قرن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشعناء والبعضاء إلا الأقل ،
فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأسها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة
ابن عمه صلى الله عليه وآله ، من إظهار ماني النفوس ، وهيجان ماني القلوب ، حتى إن
الأخلاف من قريش ، والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائمه وفكاته في أسلافهم
وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأصول أحياء لمصرت عن فعله ، وتقااست عن بلوغ
شأوه ، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة ، وسيفه بعد يقطر دما من
مُهيج العرب ، لاسيا قريش الذين هم كان ينبغي ملودهم خطب أن يقتضد ، وعليهم كان
يجب أن يعتمد ا إذن كانت تدرُس أعلام المنة وتنعم في رسوم الشريعة ، وتمود الجاهلية
الجهلاء على حالها ، ويفسد ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين
سنة في شهر واحد ، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدين أن ألهم الصعابة ما فعلوه ، والله
متم نوره ولو كره المشركون .

[فصل في أن جعفرًا وحمزة لو كان حيين لبابا عليا]

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي يزيد رحمه الله ، قلت له : أنقول : إن حمزة وجعفرًا لو كانا حيين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبأبانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النار في يَبَس العَرَفَج . قلت له : أظن أن جعفرًا كان يبأبه ويتأسه ، وما أظن حمزة كذلك ، وأراه جبارًا ، قوى النفس ، شديد الشكينة ، ذاهبا بنفسه ، شعاعا بهيمة ، وهو المم والأهل سينا ، وآثاره في الجهاد مروفة ، وأظنه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرتم ، ولكنه كان صاحب دين عتيق ، وتصديق خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لراى من أحوال علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يوجب أن يكسر له محوته ، وأن يقيم له صمته ، وأن يقدمه على نفسه ، وأن يتوخى رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إشارته . ثم قال : ابن خلق حمزة السُّبْحى من خُلق علي الروحاني الطيف ، الذي جمع بينه وبين خلق حمزة ، فانصفت بهما نفس واحدة ! وابن هيوالاتية نفس حمزة ، وحلوا من المعلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالقطرة لا بالقوة التمليلية ما لم تدرك نفوس مدققى الفلاسفة الإلهيين ! لو أن حمزة حي حتى رأى من علي ما رآه غيره ، لكان أتبع له من ظله ، وأطوع له من أبي ذر ولقدا !

وأما قولك : هو المم والأهل سينا ، فقد كان العباس المم والأهل سينا ، وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالمم ، وكان أهل سينا ، وقد عرفت ما عرضه عليه . ثم قال : ما زالت الأهمام تخدم أبناء الإخوة ، ونكون أتباعا لهم ؛ ألسن ترى داود بن

عليّ ، وعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وسليمان بن عليّ ، وعيسى بن عليّ ، وإسماعيل بن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ خدّموا ابن أخيهم وهو عبد الله السّفّاح بن محمد بن عليّ - وبايعوه واتبعوه ، وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه أَلست ترى حُرّة والعباس اتّبعوا ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيها برأسته ، وصدّقوا دعوته ! أَلست تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخهم ، والمطاع فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله بنيه ومكفولاه ، وجارياً بحري أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واحترف بصدقه ، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدي الأعلیّ ، فقال فيه :

وَأَتَيْتَنِي بِنَسْتَقَى الْقَمَامُ بُوْحِيهِ نَعَالَ الْبِغَايَ عَصَمَةَ لِلْأُرَامِلِ^(١)

يُطِيفُ بِهِ الْمَلَأُكَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَمَنْ عَنَدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
وإن سرّاً احتسب به محمد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب - حاله معه حاله - مقام لادخ له ، لمرّ عظيم وخاصية شريفة ، وإن في هذا لِمُتَّعٍ عِزَّةٌ أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تملّ دعوته وأقواله في الأرض مانسمة الخمر في الأبدان للعتدة المزاج ، حتى تطعمه أعمامه وبمظلمه مربيه وكافله ، ومنّ هو إلى آخر عمره القيم بنفقه ، وغذاء بدنه ، وكسوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشّراء الملوك والرؤساء ! وهذا في باب المعجزات عند المنصيف أعظم من اشتقاق القمر ، واقلاب النصارى ، ومن إنهاء القوم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم .

ثم قال رحمه الله : كيف قلت : أظن أن جفراً كان يبايعه ويتابعه ، ولا أعلن في حمزة ذلك ! إن كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنه أعلى منه سناً ، هو أكبر من عليّ بعشر

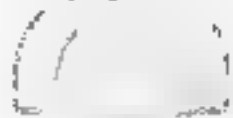
(١) ديوانه ١١٣ . نَعَالَ الْبِغَايَ : محاذم وملازم
عَصَمَةَ لِلْأُرَامِلِ : حافظ للمساكين .

سدين ، وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفا انتقى عليه المحدثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة ، ونحاكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهت خلقى وخلقى » فجعل فرحا ، ثم قال لزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، فجعل أيضا ، ثم قال لعليّ : « أنت أخى وخالصى » ، قالوا : فلم نجعل ، قالوا : كأن ترادف التعميم له ونكرته عليه لم يجعل عنده القول ذلك للوضع ، وكانت غيره إذا عظم عظم نادرا ، فيحسن موقعه عنده . واحتلف الناس في أى للمحدثين أعظم

قلت له : قد وقفت لأبى حيان التوحيدي في كتاب " البصائر " على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه ، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضى القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - ومارأيت رجلا أقوى منه في الجدل - في مناظرة جرت بينه وبين أبى عبد الله الطبرى وقد جرى حديث جعفر بن أبى طالب ، وحديث إسلامه ، والتفاصيل بينه وبين أخيه على ، فقال القاضى أبو سعد : إذا أيم النظر علم أن إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلام البالغ لا يكون إلا بعد استبصار وتبين ومعرفة بفتح ما يخرج منه ، وحسن ما يدخل فيه ؛ وإن إسلام على مختلف في حاله ، وذلك أنه قد ظن أنه كان عن تلقين لا تبين إلى حين بلوغه ، وأوان نقبه ونظره . وقد علم أيضا أنها قتلا ، وإن قتلة جعفر شهادة بالإجمال ، وقتلة على فيها أشد الاختلاف . ثم خص الله جعفرا بأن قبضه إلى الجنة قبل ظهور النبأين ، واضطراب الحبل ، وكثرة المرجح ، وعلى أنه لو انقصد الإجماع ، وتظاهر جميع الناس على أن الفتنتين شهادة ، لسكانت الحال في الذى رفع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنه قتل مقبلا غير مدير ، وأما على فإنه اغتيل اغتيالاً ، وقصد من حيث لا يعلم ؛ وشتان ما بين من فوجئ بالموت وبين من طين محاييل الموت !

وتلقاه بالشعر والصدر ، ومجل إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أن جعفرًا قطعت يمينه ، فأمسك اللواء يسراه ، وقطعت يسراه ، فمسّم اللواء إلى حشاه ، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتل عليّ بن صليّ إلى القبة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتل جعفر كافر بالنصّ الذي لا خلاف فيه ! أما تعلم أن جعفرًا ذو الجناحين ، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم - فذلك شيخك - أن أبا حيان رجلٌ ملحٍ زنديقٌ ، يحبّ الغلاب بالذين ، ويخرجُ ماني نفسه فيمزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسم بالله أن القاضي أبا سعد لم يقل من هذا الكلام لقطة واحدة ، ولكنها من موضوعات أبي حيان وأكاديه وترهاته ؛ كما بسند إلى القاضي أبي حامد المروزيّ كل منكر ، وروى عنه كل فاقرة .



ثم قال : يا أبا حيان ! مقصودك أن نجعلها مسألة خلاف تثير بها فتنة بين الطالبين ، لتجعل بأسمهم بينهم ! وكيف تقلبت الأحوال فالفقر لم لم يخرج عنهم ! ثم ضحك رحمه الله حتى استلق ومدّ رجله ، وقال : هذا كلام يستغنى عن الإطالة في إطالة إجماع المسلمين ، فإنه لا خلاف بين المسلمين في أن عليا أفضل من جعفر ؛ وإنما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة للنصور أبي جعفر إلى عمه بن عبد الله ، النفس الزكية ، قال له : وكانت بنو أمية يلعنون أباك في أدبار الصلوات للكتوبات ، كما تلعن الكفرة ، فعنفاهم وكفّرناهم ، وبيننا فضلنا وأشدنا بذكره ، فأنمذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أما قدّمناه على حمزة والمباين وجعفر ، أولئك مضوا سائمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدعاء !

قلت له رحمه الله : وإذا لا إجماع في المسألة ؛ لأنّ للنصور لم يقل بفضله عليهم ،

وأنت أذعيت الإجماع ، فقال : إن الإجماع قد سبق هذا القائل ، وكل قول قد سبقه الإجماع لا يعتد به .

فلما خرجت من عند النقيب أوى جعفر بمحنت في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحد ابن جعفر الواسطي رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل ، وكان إمامي للذهب - فقال لي : صدق النقيب فيما قال ! ألسنت تعلم أن أصحابكم للمعتزلة على قولين : أحدهما أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، والآخر أن أكثرهم ثواباً علي ، وأصحابنا يقولون : إن أكثر المسلمين ثواباً علي ، وكذلك الزيدية . وأما الأشعرية والكرامية وأهل الحديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، فقد خلمص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علي عليه السلام ؛ أما على قول الإمامية والزيدية والبهناديين كافة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأما الباقر فندم أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ؛ ولم يذهب ذاهب إلى أن ثواب حمزة وجعفر أكثر من ثواب علي من جميع الفرق . فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضلية بالأكثرية ثواباً ، وهو التفسير الذي يقع الحجاج والمجدال في إثباته لأحد الرجلين . وأما إذا فسرنا الأفضلية بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالة على التعظيم ، فنعلم أن أحداً من الناس لا يقارب علياً عليه السلام في ذلك ، لا جعفر ، ولا حمزة ولا غيرهما .

ثم وقع بيدي بعد ذلك كتاب شيخنا أوى جعفر الإسكافي ، ذكر فيه أن مذهب بشر بن المتير ، وأبي موسى ، وجعفر بن مبشر ، وسائر قدماء البهناديين أن أفضل المسلمين علي بن أبي طالب ، ثم ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم حمزة بن عبد المطلب ، ثم جعفر بن أبي طالب ، ثم أبو بكر بن أبي قحافة ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان .

قال : والمراد بالأفصل أكرمهم عند الله ، وأكثرم ثواباً ، وأرفعهم في دار الجلاء منزلةً

ثم وقعت بعد ذلك على كتاب لشيعنا أبي عبد الله البصريّ يذكر فيه هذه المقالة ، ونفسها إلى البهاددين ، وقال : إن الشيخ أبا القاسم الباهليّ ، كان يقول بها ، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البهاددين ، قالوا كلمهم بها ، فأعجبني هذا المذهب ، وسردت بأن ذهب الكثير من شيوعنا إليه ، ونظامته في الأرحوزة التي شرحت فيها عقيدة المعتزلة ، فقلت :

وحير خلق الله بعد المصطفى	أعظمهم يوم المعنار شرفاً
السيد المظم الوصي	بقيل البتول المرتضى على
واساء ثم حرة [وجعفر]	نعم عتيق بعدم لا ينكر
الخلص الصديق ثم عمر	ماروق دين الله ذاك القصور
وبعد عثمان ذو الثورين	هذا هو الحق بفسورين

(٢١٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :

فَقَدِمُوا عَلَى هُمَالِي وَخُرَّانِ بَيْتِ دِلِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ
كَلَامُهُمْ فِي طَاعَتِي ، وَعَلَى بَيْتِي ؛ فَشَنُّوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَمْسَدُوا عَلَى جِوَارِهِمْ ، وَوَبَّوْا عَلَى
شَيْئَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا ، وَطَائِفَةً عَصَوْا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، فَصَارُوا بِهَا ، حَتَّى
قَهَرُوا اللَّهَ صَادِقِينَ .



الشرح :

عَصَوْا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، كناية عن العصيان في الحرب وترك الاستسلام ، وهي كناية
فصيحة ، شبه قبضهم على السيوف باليمن ، وقد قدمنا ذكر ما جرى ، وأن عسكر
الجل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن آمنوا غدرًا ، وأن بعض
الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم ، وقاتل حتى قتل ، مثل حكيم بن جبلة الهدي وعبد الله بن وهب . وروى :
« وطائفة عَصَوْا عَلَى أَسْيَافِهِمْ » بالرفع ، تقديره : ومنهم طائفة .

قرأت في كتاب " غريب الحديث " لأبي محمد عبد الله بن قتيبة في حديث
حذيفة بن اليمان ، أنه ذكر خروج عائشة ، فقال : « تقاتل معها مَصْرٌ ، مَضْرُها الله في النار ^(١) » ،

(١) قال ابن الأثير في شرحه للحديث : « أي حملها في النار ، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها ؟ يقال :
مَضْرُها فلاناً فتمصر ؛ أي سيرناه كملك ، أي سبناه إليها . وقال الزمخشري : مَضْرُها : جمعها كما يقال :
جند الجود ، وقيل : مَضْرُها : أهلكتها ، من لملم : ذهب منه حصراً مَضْرُها ، أي هدرأ » .
النهاية ١ : ٩٨ .

وأزدهُ عُمَانُ سَلَّتْ اللهُ أَقْدَامَهَا^(١) ، وَإِنْ قَبِيسًا لَنْ تُنْفَكْ تَبْغَى دِينَ اللهِ شَرًّا ، حَقَّ يَرْكَبُهَا اللهُ بِالمَلَائِكَةِ ، فَلَا يَمْنَعُوا ذَنْبَ ثَلَاثَةٍ^(٢) .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقاهُ حُدَيْفَةُ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ؛ وَحُدَيْفَةُ أَجْمَعَ أَهْلَ السَّيْرَةِ عَلَى أَنَّهُ مَاتَ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي قُتِلَ عُمَانُ فِيهَا أَنَاهُ نَمِيهٌ وَهُوَ مَرِيضٌ ، فَمَاتَ وَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكْمُلْ سِيمَةُ النَّاسِ ، وَلَمْ يَمْشِكِ الْجِلْدُ .

وهذا الحديث يؤكد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجبل ، إِلَّا مَنْ ثَبَتَتْ تَوْبَتُهُ مِنْهُمْ ، وَمِثْلُ الثَّلَاثَةِ .



(١) سَلَّتْ اللهُ أَقْدَامَهَا : فَطَمَا . الْبَاقِي : ٧ : ١٧٤ .

(٢) الثَّلَاثُ : مَسَائِلُ الثَّلَاثِ ، مِنْ عُلُوِّ السَّعْلِ ، وَاحِدًا ثَلَاثَةً ، وَذَنْبُ الثَّلَاثَةِ : أَسْفَلُهَا ؛ قَالَ الرَّغَزِيُّ :
« أَيُّ بَطْلَانِ اللهِ حَتَّى لَا تَخْذَرُ عَلَى أَنْ تَمُوتَ ذَنْبُ ثَلَاثَةٍ . الثَّلَاثُ : ٣ : ٣٢ . »

(٢١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما مر بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا السَّكَانِ غَرِيبًا أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ
تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَتْ تَحْتَ بَطْنِ الْكُؤَاكِبِ أَذْرَكْتُ وَتَرَى مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ،
وَأَقْلَتِي أَعْيَارُ بَنِي جُحَجٍ، لَقَدْ أَتَلَمَّوْا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقَّعُوا دُونَهُ

...

الشرح :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي الليث بن أمية بن عبد شمس . ليس
بصحابي ، ولكنه من التابعين ، وأبوه عتاب بن أسيد بن أبي الليث بن أمية بن عبد شمس ،
من مُسَلِّمَةِ الْفَتْحِ ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى حنين ، استعمله
عليها ، فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة
أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يلم أحدهما بموت الآخر ،
وعبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه ، وقد مر به قتيلا يوم الجمل : لحن عليك
يسوب قريش ! هذا في الفتيان ، هذا الباب الحض من بني عبد مناف ، شفيت نفس ،
وقلت مشرى ، إلى الله أشكو مجرى ومجرى اقصال له قائل : لشد ما أطربت

الفتى بأمر المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك
وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه ، فالتفتها باليمامة
فصرفت بخاتمته ، وعلم أهل اليمامة بالوقعة .

• • •

ورأيت في شرح " نهج البلاغة " لقطب الراوندي في هذا الفصل عجائب وطرائف ،
فأحببت أن أوردتها هاهنا . منها أنه قال في تفسير قوله عليه السلام « أدركت وترى ^(١) من
بنى عبد مناف » ، قال : يعني طلحة والزبير ، كانا من بنى عبد مناف ، وهذا غلط قبيح ،
لأن طلحة من تيم بن مرة ، والزبير من أسد بن عبد المطلب بن قصي ، وليس أحد
منهما من بنى عبد مناف ، وقد عرفت أن أربعة : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ،
فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنه قال : إن مروان بن الحكم ، من بني جُحج ، ولقد كان هذا العقيد رحمه الله
بمبدأ عن معرفة الأسباب مروان من بني أمية بن عبد شمس ، وهو جُحج من بني
عُصَيص بن كعب بن لؤي بن غالب ، واسم جُحج تيم بن عمرو بن عُصَيص ، وأخوه
سهم بن عمرو بن عُصَيص رطل عمرو بن العاص ، فأين هؤلاء ، وأين مروان
ابن الحكم !

ومنها أنه قال : « وأفلتني أغيار بني جُحج » بالعين للمعجمة ، قال : هو جُحج « غير »
الذي بمعنى « سوى » ، وهذا لم يرؤ ، ولا مثله مما يحكم به أمير المؤمنين (عليه السلام)
وبعد من طريقته ، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : « ولم يفلتني إلا بنو جُحج » إلى
مثل هذه العبارة الركيكة للتصفة .

■ ■ ■

(١) الرور : الداخل والخارج .

[بنو جح]

واعلم أنه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج القدم لمن حضر. الجمل مع عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله من بنو جح ، قال : « وأظنتني أسيار بنو جح » ، جمع جح وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلا اثنان ، فتمن حرب ونجاشة : عبد الله الطويل بن صفوان بن أمية بن حلف بن وهب بن حذافة ابن جح ، وكان شريفا وابن شريف ، وطاش حتى قُتل مع ابن الزبير بمكة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف ، طاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكة ، لما جمع له بين مكة ولدبقة ، فأقام عمرو بالدبقة ، ويحيى بمكة . ومنهم عاصم بن مسعود بن أمية بن خلف ، كان يسمى دُحْرُوجَةَ الجبل ، لقصره وسواده ، وطاش حتى ولّاه زياد صدقات بكر بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزبير بن العوام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن عضة بن ربيعة بن الأحمور بن أخطب بن حذافة بن جح ، طاش حتى قتل بقديد ، قتلته الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرِف حضورهم الجمل مع عائشة من بنو جح ، وقتل من بنو جح مع عائشة عبد الله بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جح ، وعبد الله ابن ربيعة بن درّاج الغنبي بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جح ، لا أعرِف أنه قُتل من بنو جح ذلك اليوم غيرها ، فإن صحّت الرواية : « وأظنتني أسيار بنو جح » ، بالنون ، فالمراد رؤسهم وساداتهم .



وأتلموا أعتاقهم : رفقوها ، ورحل أنتم : بين التلح ، أى طويل المنق ، وجيد نليح
أى طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْدَى لِسَاقِيَّةٌ مِّنْ حِيٍّ فِي تَلْعِجِ زَيْبُهُ الْأَطْلَاقُ^(١)
وَوَقِصَ الرَّجُلُ ، إِذَا انْدَقَّتْ عُنْفُهُ ، فَهُوَ مَوْقُوسٌ ، وَوَقِصْتُ عُنُقَ الرَّجُلِ أَفْصَاهَا
وَقِصًّا ، أَيْ كَسَرْتَهَا ، وَلَا يَحُوزُ وَقِصْتُ الْعُنُقَ نَفْسَهَا .
وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَقَدْ أُنْذِرُوا » يَرْجِعُ إِلَى قَرِيشٍ ، أَيْ رَامُوا الْخِلَافَةَ
فَقَتَلُوا دُونَهَا .

فَإِنْ قُلْتُ : أَتَقُولُ إِنْ طَلَعَهُ وَالزَّيْدُ لَمْ يَكُونَا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافَةِ ؟ إِنْ قُلْتَ ذَلِكَ
تَرَكْتَ مَذْهَبَ أَصْحَابِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَقُلْ خَالَفْتَ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا » !
قُلْتُ : هِيَ أَهْلُ الْخِلَافَةِ مَا لَمْ يَطْلُبْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا طَلَبَهَا لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا لَهَا ،
لَا هِيَ وَلَا غَيْرُهَا ، وَلَوْلَا طَاعَتُهُ لَمْ تَهْدَمْ وَمَا ظَهَرَ مِنْ رِضَاهُ بِهِ لَمْ نَحْكَمْ بِصَحَّةِ خِلَافَتِهِ .



(٢١٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَبَلُهُ ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَّقَ لَهُ
لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرَقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَهَّلَتْ بِهِ السَّبِيلَ ، وَدَفَعَتْهُ الْأَبْوَابَ إِلَى
بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَتَبَشَّرَ جَلَاءُ يَطْمَئِنُّنَ بِدَنِّهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ،
بِمَا اسْتَمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ .



الشرح :

يصف العارف ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحق سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة
ورياضة القوة البدنية بالجوع والعطش ، والسهرة ، والصبر على مشاق السفر ، والسياحة .
حتى دقَّ جبله ، أى حتى تحمل بدنه الكيف .
ولطف غليظه ، تلطف أخلاقه وصفت نفسه ، فإن كدر النفس في الأكثر إنما
يكون من كدر الجسد ، والبطالة - كما قيل - تذهب الفطنة .

• • •

[فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار]

وقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَدَايَتِهِ صَاحِبَ مُجَاهَدَةٍ لَمْ يَجِدْ مِنْ هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ نَجْمَةً .

وقال عثمان المغربي الصوفي : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، أَوْ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِهَا مِنْ غَيْرِ لُزُومِ الْمَجَاهِدَةِ ، فَهُوَ غَالِطٌ .

وقال أبو علي الدقاق : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَدَائِبِهِ قُوَّةً ، لَمْ يَكُنْ فِي نَهَايَتِهِ جُلَّةً .

ومن كلامهم : الْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ . حَرَكَاتُ الظُّوَاهِرِ ، تُوحِبُ بَرَكَاتِ السَّرَائِرِ .

ومن كلامهم : مَنْ زَيَّنَ ظَهْرَهُ بِالْمَجَاهِدَةِ حَتَّى أَفْقَدَ سَرَائِرَهُ بِالشَّاهِدَةِ .

وقال الحسن القرظي : هَذَا الْأَمْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا عِنْدَ الْفَاقَةِ ، وَلَا تَنَامَ إِلَّا عِنْدَ النَّبَةِ ، وَلَا تَسْكُنَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ .

وقال إبراهيم بن أدهم : لَنْ يَنَالِ الرَّحْلُ دَرَجَةَ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَمْلُقَ عَنْ نَفْسِهِ بَابَ النِّعَةِ ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الشَّدَةِ .

ومن كلامهم : مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، هَانَ عَلَيْهِ دِينُهُ .

وقال أبو علي الروضباري : إِذَا قَاتَلَ الصُّوفِيُّ بِسَدِّ خِصَّةِ أَهَامٍ : أَمَا جَانِحٌ ، فَالزُّمُوهُ السُّوقَ ، وَزُومَهُ بِالْكَسْبِ .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام : وَهُوَ يَخْصِدُ غَيْرَ مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَصْلُحُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ مَا نَحْنُ فِيهِ :

خُذِي بِحَبْرَاتِ مِينِكَ مِنْ رَمَائِي	وَصُونِي مَا زِلْتِ مِنَ الْقِنَاصِ ^(١)
أَقْلِي قَدْ أَضَاقَ بُّكَكَ دَرَمِي	وَمَا ضَلَّتْ بِشَاذَةِ ذِرَاعِي
أَلَيْفَةَ الْقَنَيبِ كَمْ أَفْرَاقِ	أَغْلَى فَكَانَ دَاهِيَةَ اجْتِمَاعِ

(١) ديوانه ٢ : ٢٣٦ ، قال في شرحه . يقول لها : تعي من عزمي بكائك . وزماع اسم من أرمعت ، وتلقى بالقناع الذي ألقته من رأسك .

فليست فرحة الأوثان إلا لموقوف على ترح الوداع^(١)
 نسيب أن رأت جسي نحلاً كأن الحسد يذرك بالصراع^(٢)
 أخو النكبات من يأوى إذا ما أظفن به إلى خلق وساع^(٣)
 بشر مجاعة في كل فج يهيم به عدو بن الرقاع^(٤)
 أين مع السباع لاء حتى تحلته السباع من السباع
 وقال أيضاً :

فاطلب هذوا بالثقل واستر باليس من تحت الشهاد هجودا^(٥)
 ما إن ترى الأحساب يمما وضعا إلا بحيث ترى للناس سودا^(٦)

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكسرة حبز ،
 فقال : ما هذه ؟ قالت : قرص حبز ، فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه هذه الكسرة ،
 فأكلها ، وقال : « أما إنها لأول طعام دخل فم أيك منذ ثلاث » .
 وكان يقال : بنابيع الحكمة من الجوع ، وكسر طلبة النفس بالمجاهدة .

(١) قال في شرحه : « أي لم يعرف روح الوداع ، من لو لم : ولعل دلائل على أمرى ، فهو موقوف عليه ، أي من لم يجد الماء للمراى لم يجد لرحا للقاء » .
 (٢) الديوان : « توجع أن رأيت » .
 (٣) رواية الديوان :

ففي النكبات من يأوى إذا ما أظفن به إلى خلق وساع

وقال في شرحه : « أظفن : من فظف : دابة فظوف ، وروى : « أظفن » . وروى : « أظفن » . يقول : هو صاحب النكبات والشوائب يرتكها ، ويأوى إلى خلق واسع ؟ إذا صلب من مداهمه وأظفن » .

(٤) في الديوان : « في كل نفر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال في شرحه : « أي اطلب بالحركة الأسعار سكونا ودعة فيما بعد ، والأرق نوماً . وقوله : « باليس » أي يركوب اليس . ومن تحت الشهاد : أي من تحت الصبر على الشهاد .
 (٦) أي من لم يصبر في معركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعَاذ : لو أن الجوعَ بُياع في السوق لما كان ينبغي إطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

وقال سهل بن عبد الله : لما خلق الله الدنيا جعل في الشَّيْخ للمصيبة والجهل ، وجعل في الجوع الطاعة والحسنة .

وقال يحيى بن مُعَاذ : الجوع للربدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، ولزهاد سياسة ، وللعارفين تكملة .

وقال أبو سليمان الداراني : مفتاح الدنيا الشَّيْخ ، ومفتاح الآخرة الجوع .
وقال بعضهم : أدب الجوع ألا يتقصَّ من طنتك إلا مثل أذن السَّور ، هكذا على التدرج ، حتَّى تصل إلى ما تريد .

ويقال : إنَّ أبا تراب النَّفساني خرج من البصرة إلى مكة ، فوصل إليها على أكلتين : أكلة بالنَّسَاج ، وأكلة بذات عِرْق .

قالوا : وكان سهل بن عبد الله النَّسَري إذا جامع قوًى ، وإذا أكل ضعف .
وكان منهم من يأكل كلَّ أربعين يوماً أكلة واحدة ، ومنهم من يأكل كلَّ ثمانين يوماً أكلة واحدة .

قالوا : واشتهى أبو الخير السَّفلاي السمكَ سبعين كثيرة ، ثمَّ هبَّ له أكلة من وجه حلال ، فلما مدَّ يده ليأكل أصابت أصبمه شوكة من شوكة السمك ، فقام وترك الأكل ، وقال : يا ربِّ ، هذا لمن مدَّ يده بشهوة إلى الحلال ، فكيف من مدَّ يده بشهوة إلى الحرام !

وفي الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ ^(١) ، فالجنة الأولى هي النَّفْوى ، والثانية هي المجاهدة .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول
الأمل ، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة » .
وسئل بعض الصوفية عن المجاهدة ، فقال : ذبح النفس بسيف الخالقة .
وقال : من نجست طوارق فيه ، أقلت شوارق أنه .

وقال إبراهيم بن شيخان : عابت تحت سقف ولا في موضع عليه علق^(١) أربعين سنة .
وكنت أشبه في أوقات أن أناول شُعة^(٢) عسل فلم يتفق ، ثم جئت إلى وأنا بالشام
غصارة^(٣) فيها عدسية ، فتناولت منها وخرجت ، فرأيت قوارير معلقة فيها شبه أنموذجات ،
فظلنتها حلاً ، فقال بعض الناس : أنتظر إلى هديه وتظنها حلاً ! وإنما هي خمر ، وهي
أنموذجات هذه الدنان لهدمان هالك . فقلت : قد رُمي فرض الإسكار ، فدخلت حانوت
ذلك الخمار لا كبير الدنان والحرار ، فجلت إلى ابن طولون ، فأمر بضرب مائتي
خشبة ، وطرحي^(٤) في السجق ، فبقيت مدة ، حتى دخل أبو عبد الله الوهابي المبرقي
أستاذ ذلك البلد ، فلم أتى محبوس ، مشفق في ، فأخبرت إليه ، فلما وقع بصره على
قال : أية شيء فعلت ؟ فقلت : شُبة عسل ومائتي خشبة ، فقال : لقد
نحوت مجاناً .

وقال إبراهيم الخواص : كنت في جبل ، فرأيت رؤساء فاشتهيته ، فدنوت فأخذت
منه واحدة ، فشققها فوجدتها حايفة ، فضيت وتركك الرمان ، فرأيت رجلاً مطروحاً
قد اجتمع عليه الزناير ، فسلمت عليه ، فرد علي باسمي ، فقلت : كيف عرفني ؟ قال :
من عرف الله لم يخف عليه شيء ، فقلت له : أرى لك حالاً مع الله ، فلو سألك أن يحميك
ويحميك من أذى هذه الزناير ! فقال : وأرى لك حالاً مع الله ، فلو سألك أن يحميك
من شهوة الرمان ، فإن لدغ الرمان يحد الإنسان الله في الآخرة ، ولدغ الزناير

(٢) الشُعة من الطعام : قدر ما يشبع به .

(٤) كذا في أ ، و ب : وطرحي .

(١) العلق هنا : الباب .

(٣) الغصارة : القصة الكبيرة .

يحمد الإنسان آله في الدنيا ، فتركته ومضيت على وجهي .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحوا الشهوات من القلب إلا خوف مزيج ،
أوشوق مقلق .

وقال الخواص : من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها .

وقال أبو علي الرباطي : صحبت عبد الله المروزي ، وكان يدخل البادية قبل أن أحبه
بلا زاد ؛ فلما صحبتته قال لي : أيتها أحب إليك ؟ تكون أنت الأمير ، أم أنا ؟ قلت : بل
أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ بحلّاء ووضع فيها زادا ، وحلها على
ظهره ، فكنت إذا قلت له : أعطني حتى أحلها ، قال : الأمير أنا ، وعليك الطاعة ، قال :
فأخذنا المطر ليلة ، فوقف إلى الصباح على رأسه ، وعليه كساء يمنع عن المطر ، فكنت
أقول في نفسي : باليتنى مت ولم أقل له : أنت الأمير ! ثم قال لي : إذا صحبت إنسانا فاصمه
كما رأيتني صحبتك .

أبو الطيب اللثقي :

فدري أني أظن ما لا ينال من العسل
فصعب الملال في الصيب والسيل في السيل^(١)
تريدن إدراك العالي رخيصة
ولا بدّ دون الشهد من إتر النحل^(٢)
وله أيضا :

وإذا كانت النفوس كباراً
نبتت في مرادها الأجسام^(٣)
ومن أمثال العامة : من لم ينل دماغه في الصيف لم ينل قدره في الشتاء .
من لم يركب الأخطار ، لم ينل الأوطار .

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

(٢) في الديوان : « تريدن لبيان العالي »

(٣) ديوانه ٣ : ٢٤٥ .

إدراك الشول وبلوغ الأمول ، بالصبر على الجوع ، وفقد الشهوة ، وسيلان الدموع .

واعلم أن تقليل الأكل لا يربح في أنه نفع للنفس والأخلاق ، والتجربة قد دلت عليه ، لأننا نرى الكثير من الأكل يظلم النوم والكسل وبلادة الحواس وتبخر لنا كولات الكثيرة البخره كثيرة ، فتتصاعد إلى الدماغ فتفسد القوى النفسانية . وأيضاً فإن كثرة الأكل كل تزيل الرقة ، وتورث القساوة والسعية ، والقياس أيضاً يقتضى ذلك ؛ لأن كثرة المزاوولات ، سبب لحصول للسكرات ، فالنفس إذا توفرت على تدبير الغذاء وتصريفه ، كان ذلك شغلاً شاعلاً لها ، وهاثم عطيها عن انصبابها إلى الجهة الروحانية العالية ، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حدٍّ يوجب جوعاً قليلاً ، فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها واختلال قواها ، وذلك يقتضى تشوش النفس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولعلك ترضى الأحكام السوداوية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذن لابد من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قهلاً الكمية ، كثير الكيفية ، فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشمل النفس بتدبير المهتم من التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثر كثرة كميته في تدارك الخلل الحاصل له من قلة الكمية ، ويجب أن يكون الغذاء شديداً الإمداد للأعضاء الرئيسة ، لأنها هي النعمة من أعضاء البدن وما دامت باقية على حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء .

[فصل في الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أن الرياضة والجوع هي أمرٌ يحتاج إليه المرید الذي هو بعدُ في طريق السلوك إلى الله .

وينقسم طالبو هذا الأمر الخليل الشاف إلى أقسام أربعة :
أحدها : الذين مارسوا العلوم الإلهية ، وأجهدوا أنفسهم في طلبها والوصول إلى كنهها ،
بالفكر الدقيق ، في الزمان الطويل ، وهو لا يحصل لهم شوق شديد ، ويميل عظيم إلى الجملة
المالية الشريفة ، فيحلمهم حب الكمال على الرياضة .

وثانيها : الأنفس التي هي بأصل المعطرة والجوهر مائلة إلى الروحانية من غير ممارسة
علم ولا دربة بفكر ومبحث ، وقد رأينا منهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامة متى سَمَحَ
لهم سماع مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع في النفس ، أو سماع كلمة توافق
أمرأ في بواطنهم ، فإنه يستولي عليهم الوجد ، ويشتد الحين ، وتفشاهم غواش لطيفة
روحانية ، يسيرون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حصل لها الأمران معاً : الاستعداد الأصلي ، والاشتغال بالعلوم
النظرية الإلهية .

ورابعها : النفوس التي لا استعداد لها في الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهية ،
ولكنهم ^(١) قوم سمعوا كال هذه الطريقة ، وأن السعادة الإنسانية ليست إلا بالوصول إليها ،
فالت نموها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المریدين ؛ والرياضة التي تليق بكل واحد من هذه الأقسام غير الرياضة
اللائقة بالقسم الآخر .

ونحتاج قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أن النفعات الإلهية دائمة مستمرة ، وأنه كل من توصل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن ربكم في أيام حصركم نفعات ، ألا فحرضوا لنفعاته » .

وثانيهما : أن النفوس البشرية في الأكثر مختلفة بالتّوَع ، فقد تكون بعض النفوس مستعدة غاية الاستعداد لهذا الطلب ، وربما لم تكن البتة مستعدة له ، وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة بالصّف والقوّة

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن القسمين الأوّلين كما اختلفا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلفا في الكسب والكسب .

أما الكسب فإن صاحب العلم الأوّل به في الأكثر العزّة والاقطاع عن الخلق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرشادة ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحد يستعين به على حصول ما هو حاصل . وأما صاحب الفطرة الأصلية من غير علم فإنه لا يليق به العزّة ، لأنه يحتاج إلى المعلم والمرشد ، فإنه ليس بكفى الفطرة الأصلية في الوصول إلى العالم الإلهية والحقائق الربّانية ، ولا بدّ من موقف ومرشد في مبدأ الحال ، هذا هو القول في الكسب بالنظر إليهما .

وأما المكسب ، فإن صاحب العلم إذا اشتغل بالرياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كميّة ، وأقلّ كميّة بما لصاحب الفطرة الجردة ، أما كثرة الكميّة ، فلأن قوّة النظرية تعينه على ذلك ، وأما قلّة الكميّة ، فلأن القوّة النفسانية تنوزع على تلك الكثرة ؛ وكلما كانت الكثرة أكثر ؛ كان توزع القوّة إلى أقسام أكثر ، وكان كل واحد منها

أضف مما لم كانت الأقسام أقل عدداً ، وإذا عرفت ذلك عرفت أن الأمر في جانب صاحب الفطرة الأصلية بالعكس من ذلك ، وهو أن مشاهداته ومكاشفاته تكون أقل كمية ، وأكثر كيفية .

وأما الاستعداد الثالث ، وهو النفس التي قد حمت الفطرة الأصلية والعلوم الإلهية النظرية بالنظر ، فهي لنفس الشريعة الجلية الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أن رياضتها القلبية يجب أن تكون زائدة في الحكم والكيف على رياضتها البدنية ، لأن الفرض الأصل هو رياضة القلب وطهارة النفس ، وإنما شرعت للرياضات البدنية ، والعبادات الجسدية ، لتكون طريقاً إلى تلك الرياضة الباطنة ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرياضة البدنية عبثاً ؛ لأن الوسيلة بعد حصول التوصل إليه فصلت ^{سقطت عنها} بل ربما كانت عاقبة عن القصد . ثم لا بد من المحافظة على العرائض الخاصة ، لئلا تتأثر النفس السكسل ، وربما أفضى ذلك إلى خلل في الرياضة النفسية ؛ ولهذا حُكي عن كثير من كبار القوم قلة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التي خلت عن الوصفين مما ؛ فلهذه النفس يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلا بتهديب الأخلاق بما هو مذكور في كتب الحكمة الأخلاقية ، فإذا لانت ومرت واستمدت تلقفات الإلهية حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذوق شوقاً ، فأقبلت تكليلها على مطلوبها .

[فصل في أنَّ الجوع يؤثر في صفاء النفس]

واعلم أنَّ السَّبب الطبيعي في كون الجوع مؤثراً في صفاء النفس ، أنَّ البلم الغالب على مزاج البدن يوجب تطبعه للبلاهة ، وإطاء الفهم لكثرة الأرضية فيه ، وثقل جوهريه ، وكثرة ما يتولد عنه من البخارات التي تسد المجاري ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريب أنَّ الجوع يقتضي تقليل البلم ، لأنَّ القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه ، صِلَتْ في الرطوبة العريية الكائنة في الجسد ، فكُلَّمَا انقطع الغذاء استمرَّت عملها في البلم الموجود في البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتُدِيرُه الحرارة الكائنة في البدن ، حتى ينفق كلُّ ما في البدن من الرطوبات العريية ، ولا يبقى إلَّا الرطوبات الأصلية ، فإن استمرَّ انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصلية من جواهر البدن ؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدٍّ ليس بمفرط لم يضر ذلك بالبدن كلَّ الإضرار ، وكان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله : « حتى دقَّ جليله » ولطفُ غليظه » ، وإن أفرط وقع الحيف والإجفاف على الرطوبة الأصلية ، وعطب البدن ووقع صاحبه في الدقِّ والقبول ، وذلك ممسٍ به ؛ لأنَّه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالتكين .

•••

[كلام للفلاسفة والحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أنَّ قوله عليه السلام : « ورتق له لامعٌ كثير البرق » ، هو حقيقة مذهب الحكماء ، وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرح به الرئيس أبو علي ابن سينا في كتاب " الإشارات " فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنَّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًا ما عَنَّتْ له خُلسات من اطلاق نور الحق إليه قدينة
 كأنها بروق تُوِيصُ إليه ثم تَحْمَدُ عنه ، وهي التي تَسَى عِندَهم أوقاتا ، وكلّ وقتٍ يَكْتَنِفُه
 وجدُّ إليه ، ووجد عليه . ثم إنه لتكثر عليه هذه العواشي إذا أَمِنَ في الارتياض ،
 ثم إنه ليعوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض ، فكلما لَمَحَ شيئًا عاج منه إلى جانب
 القدس ، فتذكر من أمره أمرًا فَنَشِيَهُ غاشٍ ، فيكاد يرى الحق في كلِّ شيء ؛ ولعله إلى
 هذا الحد تستولى عليه عواشيه ، ويَزُولُ هو عن سكينته ، ويَتَنَبَّهُ جليسه لاستنفاره عن
 قراره ، فإذا طالت عليه الرياضة لم تستفرغ عايشه ؛ وهُدًى لِقائِ ما هو فيه . ثم إنه لتبلغ
 به الرياضة مبلغًا يَقلِبُ له وقته سَكِينَةً فيصير المخطوب مألوفًا ، والوميص شهابًا يَنُتِشِرُ ، ويَحْصُلُ
 له معارف مستغرقة ؛ كأنها صعبة مستغرقة ؛ ويستمتع فيها بيهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب
 حيران آسفا .

فهذه ألفاظ الحكميم أبي علي بن سينا في "الإشارات" ، وهي كما نراها مصرح فيها
 بذكر البروق اللامعة للعارف .

وقال القشيري في الرسالة لما ذكر الحال والأمر الواردة على العارفين ، قال : هي
 بروق تلمع ثم تَحْمَدُ ، وأبوار تبدو ثم نَحَى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ثم تمثل
 بقول البحتري^(١) :

خَطَرَتْ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خَطَرَةٌ حَطَرَةُ الْبَرَقِ بَسَدًا ثُمَّ اضْمَحَلَتْ
 أَيْ زَوَّرَ لَكَ لَوْ قَعْدًا سَرَى وَمَسَلْ بِكَ لَوْ حَقًّا فَعَلَّ

هو كما نراه يذكر البروق اللامعة حسبا ذكره الحكميم ، وكلاهما يتبع ألفاظ أمير
 المؤمنين عليه السلام ، لأنه حكيم الحكماء ، وعارف العارفين ، ومعلم الصوفية ، ولولا أخلاقه

وكلامه وتعليقه للناس هذا الفن تارة بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ،
ولا علم كيف يُورد ، ولا كيف يصدر .

وقال القشيري أيضا في الرسالة : المحاضرة قبل الكاشفة ؛ فإذا حصلت الكاشفة
فبعدها المشاهدة .

وقال : وهي أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضور القلب ، وقد تكون بتواتر
البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاصرا باستيلاء سلطان الذكر .
وأما الكاشفة فهي حضور البين غير مفتقر إلى تأمل الدليل ، ونظمت السبيل ، ثم
المشاهدة ، وهي وجود الحق من غير بناء شهة .

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجليلي رحمه الله وجود الحق مع قدانك .
وقال عمرو بن عثمان الكوفي : للمشاهدة أن تتوالت أنوار التعلي على القلب من غير أن
يتخلها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدر اتصال البرق في أقبلة للظلمة ؛ فكما أنها تصير من
ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التعلي مع النهار فلا ليل .
وأنشدوا شعرا :

كَيْسِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارٍ
فَالنَّاسُ فِي سَدَفِ الظُّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وقال الثوري : لا تصح للمبدل للمشاهدة وقد بقي له حرق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن الصباح .

وأنشدوا أيضا :

فَلَمَّا اسْتَبَارَ الصَّبْحُ طُلُوعُ صَوْدِهِ بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارُ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ

فجرعهم كأساً لو أبليت لفلان بتجرع طارت كأسهم ذاهب
كأس وأى كأس ، تصطلمهم منهم ، وتنفيمهم وتخطفهم منهم ولا تبقهم ، كأس لا
تبقى ولا تذّر ، تمحو بالكلية ، ولا تبقى شطبة من آثار البشرية ، كما قال قائلهم :
• ساروا فلم يبق لا عيب ولا أثر ^(١)

وقال القشيري أيضاً : هي ثلاث مراتب : اللوامع ، ثم الوامع ، ثم الطوالع . فاللوامع
كالبروق ؛ ما ظهرت حتى استتارت ، كما قال القائل :

فافترقنا حولاً فلما الضينا كان نلبه على وداعا
وأشلهوا :

يا ذا الذي زار وما دارا مكانه مقتبس مارا
مر بياب الدار مستعجلاً ماضراً لو دخل الدار ا
ثم اللوامع ، وهي أظهر من اللوامع ؛ وليس زوالها بثلث السرعة ؛ فقد تبقى وتبين
وثلاثة ، ولكن كما قيل :

• المين باكية لم تشيع للطرأ •

أو كما قالوا :

وبلاني من مشهد ومضرب وحبيب متى بعد قريب
لم تر دماء وجه العين حتى شرفت قبل ربها برقيب
فأصحاب هذا المقام بين رّوح وقوّح ؛ لأنهم بين كشف وسر بلع ثم يقطع ، لا يستقر
لم نور النهار ؛ حتى تكرر عليه مساكر الليل ، فهم كما قيل :
والليل يشملنا بفاضل برده والصبح يلحفنا رداء مذهبنا
ثم الطوالع ؛ وهي أبقي وقتاً ، وأقوى سلطاناً ، وأدوم مكاناً ، وأذهب قفلة ،
وأبقى لهبة ^(٢) .

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كله مشعون بالبروق واللعمان ؟
وكان مما نظم حامد بن العباس وزير القنطرة وعلى بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على
الحلاج أنها وجدنا في كتبه لهط « النور للشمعان » ، وذلك لجهالتهما مراد القوم
واصطلاحهم ، ومن جهل أمرا عاداه .

• • •

ثم قال عليه السلام : « وتداقمت الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » ، أي لم يزل
ينقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند
أهلها ، ومن له أنس بها ، وسند ذكرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه على أبنية يده في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى
ربه » ، أي كانت الراحة الكلية والسعادة الأبدية مستثمرة من ذلك التعب الذي تحمله
لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ورضه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرِيَّ وَتَنْحَلِّي عَنَّا غِيَابَاتُ الْكَرِيِّ^(١)
وقال الشاعر :

تَقُولُ سُلَيْمَى تَوَاقَمْتُ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْقَامِ اطْوَفُ
وقال آخر :

مَا يَمْنُ وَجْهُ لِرءٍ فِي طَلَبِ الْعَلَا حَتَّى يَسُودَ وَجْهُهُ فِي الْيَدِ
وقال :

فَاطْلُبْ هُدُوءًا بِالْفَقْلِ وَاسْتَرِ بِالْمَيْسِ مِنْ تَحْتِ السَّهَادِ هُجُودًا^(٢)
مَا إِنْ رَأَى الْأَحْسَابَ يَرْضًا وَضَعًا إِلَّا بِحِثْ تَرَى النَّاسَ يَا سَوْدَا

(١) مثل يضرب للرجل يحمل الثقل رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد في أبيات ذكرها
للبيهقي عند الكلام على مضرب التل ومودته : (٢ : ٢) .
(٢) لأبي تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بحث فيه أصحابه على الجهاد :

وَاللَّهُ مُتَنَادِبُكُمْ شُكْرَهُ ، وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَنُمُوْلُكُمْ فِي مَضَارِ مَمْدُودٍ
لِعَقْدَانِزَعُوا سَبْقَهُ . فَشَدُّوا عُقْدَ اللَّازِرِ ، وَاطَّوُّوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيَّةٌ
وَوَلِيْمَةٌ . مَا أَقْضَى النَّوْمَ ، لِمَزَائِمِ الْيَوْمِ ! وَأَمْنَى الْعَظَمِ ، لِنَذَا كَبِيرِ الْهَمِّ !



الشرح :

مستادبكم شكره ، أى طالب منكم أداء ذلك القيام به ، استأديت ديني عند
ملان ، أى طلبته .

وقوله : « ومورثكم أمره » ، أى سيرج أمر الدولة إليكم ، وزول أمر بني أمية .
ثم شبه الآجال التي ضربت للكافرين ليقيموا فيها بالواجبات ، ويتسابقوا فيها إلى
الخيرات ، بالمضار المدود لخليل تتنازع فيه سبق .

ثم قال : « فشددوا عقد اللازر » ، أى شتموا عن ساق الاجتهاد . ويقال لمن يوصى
بالجدة والنسيم : اشدد عقدة إزارك ، لأنه إذا شدّها كانت أبعد عن العثار ،
وأسرع للمشي .

قوله : « واطووا فضول الخواصر » ، نهى عن كثرة الأكل ، لأن الكثير الأكل
لا يطوى فضول خواصره لامتلائها ، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوى بعضها ،
قال الشاعر :

كلوا في بعض بطونكم وعفوا فإن زمانكم زمنٌ خبيصٌ
وقال أعشى باهلة :

طأوى المصير على العزاء مُنصَلتٌ^(١) باقوم ليلة لا ماء ولا شجر^(٢)
وقال الشنفرى :

وأطوى على الخنص الحوايا كما انطوت خيوطة ماري تفر وتفتل^(٣)

• • •

ثم أتى عليه السلام ثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها ، وإن كان قد سبق بمعناها ،
وهي قوله : « لا يجتمع عزيمة ووليمة » . وقوله : « ما أقص النوم العزيم اليوم ! » . وقوله :
« وأتحنى الظلم لتذاكير الهم ! » .

فما جاء للمحدثين من ذلك ما كعبه بعض الهكباب إلى وفده :

خِدْمَةُ السُّلْطَانِ وَوَلِيكَ سَاتِ فِي أَيْدِي اللَّاحِ

لَيْسَ بِتَامَاتِ فَاطْلُبْ رَحْمَةً أَوْ شَرِبْ رَاحِ

ومثله قول آخر لولده :

مَا لِلطَّيْعِ هَوَاءُ مِنْ لِلَّامِ مَلَأُ

فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ هَذَا تَحَذَّرْ ، وَهَذَا التَّيْدَادُ

وقال آخر :

وَلَيْسَ فِتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى

وَلَكِنْ فِتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى

لشرب صبوح أو لشرب غبوق

لغمر عذو أو لنفح صديق

(١) المكمل للبدر ٤ : ٦٥ ، قال في شرحه : « طأوى المصير » يقال لواحد الصيران مصير ،
والعزاء : الأمر الشديد ، يقال : سبب منصت وصلت ! إذا جرد من عنقه .
(٢) من لاميته ! وهي في نوادر الكافي ٢٠٣ - ٢٠٧ .

وهذا كثير جدا يناسب قوله : « لا تجتمع هزيمة وولية » .

ومثل قوله : « ما أخضر النوم لمرائم اليوم » قول الشاعر :

قَتَى لَا يَنَامُ عَلَى عَزِيمِهِ وَمَنْ صَمَّمَ الْعَزْمَ لَمْ يَرْقُدِ

وقوله : « وأعشى الظلم لهذا كبير المم » ، أى الظلم الذى ينام فيها ، لا كل الظلم ، ألا ترى

أنه إذا لم ينام فى الظلمة بل كان عنده من شدة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإن الظلمة لا تمحو هذا كبير همه . والتذاكير : جمع تذكار .

وللثلاث الأولان أحسن من الثالث ، وكان الثالث من نعمة الثانى .

وقد قالت العرب فى الحاهلية هذا للمعنى ، وجاء فى القرآن العزيز : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَآمَأَ بِآيَاتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

وهذا مثل قوله : « لا تجتمع هزيمة وولية » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدعة ،

والقعود عن مشقة الحرب .

(٢١٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قال بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ • حَتَّىٰ ذُرِّمُكُمْ

الْقَابِرَ ﴾ .

يَا لَهْ مَرَامًا مَا أَبَدَهُ ! وَزُورًا مَا أَعَمَّهُ ! وَحَطَرًا مَا أَنْظَمَهُ ! لَقَدْ اسْتَعْلَوْا مِنْهُمْ أَيْ
مَذْكِرَ ، وَتَنَافَسُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

أَفَبِصَارِهِمْ آبَائِهِمْ يَفْتَخِرُونَ ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلَكَةِ يَتَكَاثِرُونَ !



الشرح :

قد اختلف للفسرون في تأويل هاتين الآيتين ، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم
في التكاثر بالأموال والأولاد ، حتى أتاكم للوت ، فسكنى عن حلول الموت بهم
بزيارة للقبور .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأحسبهم ، وتمدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم
الأموات ، فقالوا : منّا فلان وفلان - لقوم كانوا واقضوا .

وهذا هو التفسير الذي يدل عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :
« يَا لَهْ مَرَامًا ! » ، منصوب على التخيير .

ما أسعده ! أي لا يغرف في ذلك ، وطلب المغر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما المغر يتقوى
الله وطاعته .

وزوراً ما أعظمه ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم بذكر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم والزور : اسم للواحد والجمع ، كالتلصم والضيئف . قال : ما أغفلهم عما يراد منهم إلا أنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى .

ثم قال : « وخطراً ما أفضاه ! » إشارة إلى الموت أى : ما أشده أفضع الشئ بالصم ، فهو قطع ، أى شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استحلوا منهم أى مذكر » ؛ قال الراوندى : أى وجدوا موضع التذكر خالياً من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطراً ما أفضاه ! » وهل يكون أمراً عظيماً تذكيراً من الاعتبار بالموتى أو الصحيح أنه أراد : « استحلوا » ذكر من خلا من آبائهم ؛ أى من ماضى ، يقال : هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أى الماضية .

واستحل فلان فى حديثه ؛ أى حدث من أمور حالية ، والمعنى أنه استعظم ما يورثه حديثهم مما حلا ومن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أى مذكر^(١) وواعظ فى ذلك ؛ وروى أى مذكر بمعنى المصدر ، كالمعتد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناولوهم من مكان بعيد » أى تناولوهم ، والمراد ذكرهم وتحدثوا عنهم ؛ فكانهم تناولوهم ، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : « وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ »^(٢) ؛ وأنى لهم تناول الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

• • •

الأصل :

يَرْتَجِعُونَ^(١) مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوَتْ ، وَحَرَكَتِ سَكَنَتْ . وَلَآنَ يَكُونُوا عِبْرًا ،
أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا ؛ وَلَآنَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذُلِّهِ ، أَحَجَى مِنْ
أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزِّهِ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْصَارِ الْعَشْوَةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي عَمْرٍةٍ جَهَالَةٍ .
وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ مَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَالِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، قَالَتْ :
ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَهْقَائِهِمْ حُبَالًا ، تَطْتُونُ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَفْهِتُونَ
فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَمُونَ فِيهَا لَفَافُوا ، وَتَسْكُونُ فِيهَا خَرَبُوا ؛ وَإِنَّا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ بِوَالِيَةِ نَوَاسِحِ عِلْمِكُمْ .
أَوَانِيَكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفِرَاطُ مَعَالِيَتِكُمْ ؛ الدِّينُ كَانَتْ لَهُمْ مَقَامُ الْعِزِّ ،
وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكًا وَسُوقًا .



الشرح :

« يرتجعون منهم أجسادا » ، أى يذكرون آهاتهم ، فكأنهم ردوهم إلى الدنيا ،
وارتجعهم من القبور . وخَوَتْ : حلت .
قال : وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظة من أن يكونوا نفرا وشرقا ،
والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الدلة منهم بالقيام مقام العز .
وتقول : هذا أحجى من فلان ، أى أولى وأجدر . والجَنَابُ : الفناء .

(١) بد : « يرتجعون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار عَشْوَة » ، أى لم ينظروا النظر للفضى إلى الرؤية ؛ لأنَّ أبصارهم ذات عَشْوَة ، وهو مرض فى العين ينقص به الإبصار ، وفى عين فلان عَشَاءٌ وعَشْوَة بمعنى ، ومنه قيل لكلِّ أمرٍ ملتبس بركبه الرَّاكب على غير بيان أمر عَشْوَة ، ومنه أو طائفتى عَشْوَة ، ويحوز بالصَّم والفتح .

قال : « وضربوا بهم فى غمرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى فى بحر جهل . والضرب هاهنا : استمارة ، أو يكون من الضرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم فى غمرة جهالة ، وكلُّ هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو نسيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطمين الوقت بالتكاثر بهم ؛ إعراضاً عما يجب إنفاقه من العمر فى الطاعة والمهابة .

ثم قال : « لو سألوهم ديارهم التى خلَّت منهم » ، ويمكن أن يربط بالديار والربوع القبور ، « فقالت ذهبوا فى الأرض ضلَّالاً » ، أى هالكين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنِّيذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ^(٢) .

وذهبهم فى أعقابهم ؛ أى بدمهم « جهالاً » ؛ لفلككم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تطئون فى هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء للمرى ؛ فقال :

خَفَّفِ الوَطءَ ، مَا أَظُنَّ أَدِيمَ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ ^(٣)
رَبِّ الْحَيِّ قَدْ صَارَ لِحَدِّائِ مِرَّاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَصْدَادِ

(١) سورة النساء ١٠٦ .

(٢) سورة المائدة ٦٠ .

(٣) ديوانه ؛ سقط الزند ٩٧٤ ، ٩٧٥ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض : ظاهرها .

ودفنين على بقايا دفن من عهود الآباء والأجداد^(١)
 صاحب هذى قبورنا عملاً الأز^(٢) ض ، فأين القبور من عهد عاد^(٣)
 مير إن اسطقت في الهواء رؤيبدأ لا اختياراً على رفات المباد
 قوله : « وتستنبتون في أجسادهم » ، أى تزرعون الثبات في أجسادهم ، وذلك لأن آدم
 الأرض الظاهر إذا كان من أيدان الموتى ، فترزع لاحتالة يكون ثابتاً في الأجزاء الترابية
 التى هى أيدان الحيوانات . وروى : « وتستنبتون » ، بالثاء ؛ أى وتنعصون الأشياء الثابتة
 كالعمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتمون فيها لفظوا » ، لفظت الشيء بالفتح : رميته من فمى ، ألقظه
 بالكسر ، ويحوز أن يريد بذلك أنكم تأكلون ما خلقوه وتركوه . ويحوز أن يريد
 أنكم تأكلون العواكه التى تنبت في أجسام^(٤) ترابية خالطها الصديد الجارى
 من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيها خربوا » ، أى تسكنون في المساكن التى لم يسروها بالذكور
 والعبادة ، فكأنهم أخربوها في المعنى ، ثم سكنتم أتم فيها بدمهم . ويحوز أن يريد أن
 كل دار حاضرة قد كانت من قبل خربة ، وإنما أخربها قوم بادوا وماتوا ، فإذا لاساكن
 متافى عمارة إلا ويصدق عليه أنه ساكن فيها قد كان خراباً من قبل ، والذين أخربوه
 الآن موتى . ويحوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيها خربوا » ؛ وتسكنون في دور فارقتها
 وأحلوها ، فأطلق على الخلو والفراغ لفظ « الخراب » مجازاً .

قوله : « وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونواضح عليكم » ؛ يريد أن الأيام والليالى
 تشيع رائحة إلى المقابر وتبكي وتنوح على المباقين الذين سهلتهقون به من قريب .

(١) الديوان :

• في طوبى الأزمان والآباد •

(٢) الديوان : « عملاً الرحب » .

قوله : « أولئك سلف فايتكم » ، سلف : المتقدمون . والغاية : الحد الذي ينتهي إليه . إما حسياً أو معنوياً ، والمراد هاهنا الموت .
والفرط : القوم يسبقون الحي إلى السهل .
ومقاوم العز : دعاته ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التي يمسكها الحراث . وحلقات الفخر : جمع حلبة ، وهي الخيل تجمع للسباق .
والشوق ، بفتح الواو : جمع سوقة ؛ وهو من دون الملك .



الأصل :

سَكُوا فِي بُلُونِ الْبَزْزِخِ سَبِيلًا سُلِّطَ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ
لُحُومِهِمْ ، وَتَمَرَّتْ مِنْ دِمَائِهِمْ . فَاصْبَحُوا فِي فُجُورِهِمْ جَعَادًا لَا يَنْشُونَ ،
وَمِيسَارًا لَا يُوْجَدُونَ ؛ لَا يَفْرَحُهُمْ وَرُودُ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْزَنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ ،
وَلَا يَحْمِلُونَ بِالرُّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْدُونُ الْقَوَاصِمِ . عِيًّا لَا يَنْتَظِرُونَ ، وَشُهُوًّا
لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَنَشْتَتُوا ، وَأَلْفًا فَافْتَرَقُوا .
وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ ، وَلَا بِبَدْرِ مَحْلَمِهِمْ ، نَحِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَتْ دِيَارُهُمْ ،
وَلَكِنَّهُمْ سَقُوا كَلَامًا بَدَّتْهُمْ بِالْإِثْقَالِ حَرَمًا ، وَبِالْإِسْمِ حَسَمًا ، وَبِالْحَرَكَاتِ
سُكُونًا ، فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْجَائِلِ الصَّفَةِ مَرْمَعَى سَبَاتِ .
جِيرَانٌ لَا يَتَأَسُّونَ ، وَأَحِبَّاءٌ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَّتُ^(١) بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ ،
وَأَقْطَعَتْ بَيْنَهُمْ أَصْبَابُ الْإِخَاءِ ؛ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِحَايِبِ الْهَجْرِ
وَهُمْ أَخِلَاءُ .

لَا يَتَمَارَقُونَ لِقِيلِ صَبَاحًا ، وَلَا لِنَهَارِ مَسَاءٍ . أَيْ الْجُلْدِ يَدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ

(١) كدنا ، أ ، ب : • • • • • بليت .

هَلِيمٌ سَرْمَدًا ، شَاهِدُوا مِنْ أخطارِ دَارِهِمْ أَفْطَحَ يَمًّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ
يَمًّا قَدَرُوا ، فَكَلَّا الْعَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِ قَاتَتْ مَسَالِغَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ .

قَلْبُوا كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعِينُوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَابَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ
وَأَفْطَحَتْ أَخْبَارُهُمْ ، أَقْدَرَجَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَمْرِ ، وَتَجَمَّتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْقَوْلِ ،
وَتَكَلَّوْا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ، فَقَالُوا : كَلَعَتْ الْجُوهُ النَّوَائِرُ ، وَخَوَتْ الْأَجْسَامُ
النَّوَائِمُ ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ اللَّيْلِ ، وَتَكَاءَ دَمًا ضَيْقُ الْمَجْجِ ، وَتَوَارَتْ الْوَحْشَةُ ،
وَتَهَدَّمَتْ هَلْمُنَا الرُّبُوعُ الصُّبُوتُ ، فَاسْمَعَتْ نَحَائِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ
صُورِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِينِ الْوَحْشَةِ إِفَامَتُنَا ، وَلَمْ تَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا ، وَلَا مِنْ
ضَيْقٍ مُنْصَمًا .

قَلْبُوا مَشْتَمُهُمْ بِمَنَّاكَ ، أَوْ كَيْفَ لَمْ يَنْجُوكِ الْإِطَاءَ لَكَ ، وَقَدْ أُرْتَسَخَتْ
أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَاسْتَحَلَّتْ أَبْصَارُهُمْ بِالنَّارِ فَحَفَّتْ ، وَتَقَطَّعَتْ الْأَلْسِنَةُ
فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا ، وَتَهَدَّتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ بَقَائِهَا ، وَفَاتَتْ فِي كُلِّ
جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى تَمَجَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طَرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا . مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَهْذِ
تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْرَعُ - لَرَأَيْتُ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَفْدَاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ
فَطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْحَلِي .

فَكَمْ أَكَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ حَزِيرٍ جَسَدٍ ، وَأَنْبَقَ لَوْنٍ ؛ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيٌّ تَرَفٍ
وَرَيْبٌ شَرَفٍ ! يَتَمَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُرَيْرٍ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلَوةِ إِنْ مُصِيبَةٌ
نَزَلَتْ بِهِ ؛ خَنًا بِمَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَعَاعَةً بِلَهْوِهِ وَلَمِيمٍ ؛ فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا
وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي غِلٍّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكُهُ ، وَخَفَضَتِ الْأَيَّامُ
قَوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَسْبٍ ؛ فَحَالَتْهُ بَثٌّ لَا يَمِزُّهُ ، وَنَجَى هَمُّهُ .

مَا كَانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتٌ مِثْلُ ، آتَى مَا كَانَ يَصِغُّهُ . فَقَرَعَ إِلَى مَا كَانَ
عَوْدَهُ الْأَطْيَافُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ
إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍ إِلَّا هَبَّجَ بُرُودَهُ ، وَلَا اعْتَدَلَ عُمَازِجَ لِتِلْكَ
الْعُلَّائِنِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ دَادَ ؛ حَتَّى قَتَرَ مُعْدِلُهُ ، وَذَهَلَ مُرَّضُهُ ، وَتَعَابَا أَهْلُهُ
بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجَى خَيْرٍ يَكْتُمُونَهُ ؛
فَقَائِلٌ : هُوَ لَنَا بِهِ ؛ وَثَمَنٌ لَهُمْ إِيَابَ عَالِيَتِهِ ، وَمُصِيبٌ لَهُمْ قَلَى قَعْدِهِ ، بَدَّ كَرُّهُمْ أَسَى
لِلْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَوَاحِرٍ مِنْ مِرَاقِي الدُّنْيَا ؛ وَتَرَكَ الْأَحْبِيَّةَ ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ
عَارِضٌ مِنْ خُصَمَائِهِ ، فَتَحَبَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ ، وَبَدَّيَسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ .
فَكَلَّمَ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ حَوَائِجِ عَرَفَهُ قَعْبٌ عَنْ رَدِّهِ أَوْ دُعَاةِ مُوَالِمٍ يَقْلِبُهُ تِمِيمَةً
فَتَصَامُ عَنْهُ أَمِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَمُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْجُوهُ .
وَإِنْ لَمَّا تَوَلَّى أَمْرَاتٍ هِيَ أَمْلَعُ مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّقَ بِصِفَةٍ ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى
عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

الشرح :

هذا موضع اللث : « ملأاً »^(١) باطلين وإلا فالتحوية ، « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَمْظَ وَيَخُوفَ ،
وَيَقْرَعَ صَفَاةَ الْقَلْبِ ، وَيَعْرِفَ النَّاسَ قَدْرَ الدُّنْيَا وَتَصَرُّفَهَا بِأَهْلِهَا ، فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ
فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَإِلَّا فَلْيَمِمْكَ ، فَإِنَّ السَّكُوتَ أَسْرَ ، وَاللِّمَى خَيْرٌ مِنْ
مَنْطِقٍ يَفْضَحُ صَاحِبِهِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْفَصْلَ ، عِلْمَ صَدَقِ مَعَاوِيَةَ فِي قَوْلِهِ فِيهِ : « وَاللَّهِ مَا سَنَ

(١) اللث : السِرُّ السري ، ويقال : خَوَى الصَّائِرُ ؛ إِذَا أُرْسِلَ جُنَاحُهُ .

الانصاحه لقريش غيره . وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس ، وتلى عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع :

• قلم أصاب من الدهر أوه مدادها ^(١) •

فلما قيل لهم في ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود في الشعر ؛ كما نعرفون مواضع السجود في القرآن .

وإني لأطيل التمعن من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأشغالها من السباع الضاربة ، ثم يخطب في ذلك الموقف بسببه ، إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشا كل لطباع الرحبان لاسي السوح الذين لم يأكلوا الحما ، ولم يربقوا دما ؛ فتارة يكون في صورة نظام بن قيس الشيباني وعُتَيْبَةُ ابن الحارث اليربوعي ، وعامر بن الطخيل العامري ، وتارة يكون في صورة سُقْرَاط الخُبَرِ اليوناني ، وبوخنا المعمدان الإسرائيلي ، والسيح بن مريم الإلهي .

واقسم بمن تقسم الأمم كلها به ؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وحولاً وعظماً ، وأثرت في قلمي وجيباً ، وفي أعصابي رعدة ، ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي ، وأرباب ودي ، وحملت في نفسي أي أمان ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله . وكما قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى : ولم وقت على ما قالوه وتسكروا وقوفى عليه ؛ فلم أحد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي ؛ فإنا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله ، أو كانت بية الفائل سالمة ، وبقيته كان ثابتاً ، وإخلاصه كان محضاً

(١) صدره :

• تزجي أغن كان إبرة روقه •

خالصا ، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم ، وسريان موعظته في القلوب أبلغ .

• • •

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

البرزخ : الحاجر بين الشيتين ، والدرج ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيحوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر ، لأنه حاجر بين الميت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المني بين اثنين ، فإنه يروح بينهما ، ويحور أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ، لأنه قال : « في بطون البرزخ » ولغة « البطون » تدل على التفسير الأول . ونظائره أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دماهم « مستمارتان .

والفجوات : جمع فجوة وهي الفرجة المنقطة بين الشيتين ، قال سبحانه : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ ^(١) ؛ وقد تفاجى الشيء ؛ إذا هارت له فجوة .

وجادا لا يمتنون ، أى خربجوا من صورة الحيوانية إلى صورة الجاد الذي لا يسي ولا يزيد . ويروى : « لا يمتنون » بتشديد الميم ، من التهمة وهي الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نائمه ، في قول من شدد ولم يهزم .

وخيارا ، يقال لكل مالا يرجى من الدين والوعد ، وكل مالا تكون منه حلقة : خيار .

ثم ذكر أن الأحوال الحادثة في الدنيا لا تنفزعهم ، وأن تسكر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يمحزنهم . ويروى « تحزنهم » على أن اللام في رابعي .

ومثله قوله : « لا يمحزون بالرواجف » أى لا يكثرثون بالزلزال .

قوله : « ولا يَأْذُنُونَ لِقَوَاصِفَ » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذاه
أى سمعته .

وجمع المائب غَيْبٌ وَعَيْبٌ ، وكلاهما مروي ههنا ، وأراد أنهم شهود في الصورة ، وغير
حاضرين في المعنى .

وآلاف ، على فُعال : جمع آلف ؛ كالطُرَاق جمع طارق ، والثَّامِر جمع سائر ، والكَفَّار
جمع كافر .

ثم ذكر أنه لم تَمْ أَخْبَارُهُمْ ، أى لم نستهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم ،
ولا عن بعد منزل لهم ، وإنما سَقُوا كَأْسَ لُتُونِ التى أخرجهنهم بعد النطق ، وَأَصَاتَهُنَّ بعد
السمع ، وَأَسْكَنَهُنَّ بعد الحركة .

وقوله : « وبِالسَّمْعِ صَمِيمًا » ، أى لم يسموا فيها نداء النادى ، ولا نوح النائح ، أو لم
يسمع في قبورهم صوت منهم .

قوله : « فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْجَالِ الصَّفَةِ » ، أى إذا وصفهم الواصف مرتبلا غير متروقي في
الصفة ، ولا منتهي للقول .

قال : « كَأَنَّهُمْ صَرَعِي سُبَات » ؛ وهو نوم ؛ لأنه لا فرق في الصورة بين اليث حال موته
والنائم المسبوت .

ثم وصفهم بأنهم جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنهم أحياء
إلّا أنهم لا يتزاودون كالأحياء من أهل الدنيا .

وقوله « أحياء » جمع حبيب ، كغليل وأحلاء ، وصديق وأصدقاء .

ثم ذكر أن عُرَا الصَّغَارِ قد بليت منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء ؛ وهذه كلها
استعارات لطيفة مستحصنة .

ثم وصفهم بصفة أخرى ، فقال : كل واحد منهم موصوف بالوحدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحياء الذين إذا اضمّ بعضهم إلى بعض انقضى عنه وصف الوحدة .

ثم قال : « وبجانب المجزوم أحلا » أى وكلّ منهم فى جانب المجزوم مع ذلك أهل خلّة ومودة ، أى كانوا كذلك . وهذا كله من باب الصناعة المعنوية ، والمجاز الرشيق .
ثم قال : إنهم لا يعرفون النهار ليلاً ولا ليلاً نهاراً ، وذلك لأن الواحد من البشر إذا مات نهاراً لم يعرف لذلك النهار ليلاً أبداً ، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحاً أبداً . وقال الشاعر :

لا بد من يومٍ بلا ليلةٍ أو ليلةٍ تآنى بلا يومٍ

وليس المراد بقوله : « أى المحدثين ظنوا فيه كان عليهم سرمداً » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتعقّب من الأوقات ، بل المراد أن صورة ذلك الوقت لو بقيت عندهم ابقى أبداً من غير أن يزولها وقت آخر يطراً عليها . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفارق ليلاً تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بطرآن نهار عليها ، لأنها قد فارقت الحواس ، فلا ميل لها إلى أن يرسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك النفس التى تفارق نهاراً .

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أن الناس قد قالوا فى حال الموتى فاكثروا ؛ فمن ذلك قول الرضى ابن الحسن رحمه الله تعالى :

أَعِزُّ عَلَى بَأْنٍ نَزَلَتْ بِمَنْزِلِ مُتَشَابِهِ الْأَنْجَادِ بِالْأَوْغَادِ (١)
 فِي عَصْبَةٍ جُنُبُوا إِلَى آجَالِهِمْ وَاللَّهْم بِجَلَمِهِمْ مِنَ الْإِرْوَادِ
 ضَرَبُوا بِمَدْرَجَةِ الْفَنَاءِ قَبَائِلَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَطْلَابٍ وَلَا أَعْمَادِ
 رَكِبُوا أَنْفَخُوا لَا يُرْجَى مِنْهُمْ قَصْدُ الْإِتِهَامِ وَلَا الْإِحْسَادِ
 كَرِهُوا النَّزُولَ فَأَزَلْتَهُمْ وَقَعَةً لِلَّهِ بَارَكَةٌ بِكُلِّ مَفَادِ
 فَتَهَانُوا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَذَلٍّ (٢) وَتَطَاوَحُوا عَنْ سَرِجِ كُلِّ جَوَادِ
 بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمِيعِ وَبِأَسْمِ مُتَفَرِّدُونَ تَفَرُّدَ الْأَحَادِ

قوله : « بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمِيعِ » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام :

« فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَمَجْمُوعٌ » .

وقال أيضا :

وَلَقَدْ حَفَظْتُ لَهُ فَأَيْنَ حِفَاظُكَ وَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ فَأَيْنَ وِفَاؤُهُ؟ (٣)
 أَوْحَى الدُّعَاءُ فَلَمْ يَجِبْهُ قَطِيعَةٌ أَمْ ضَلَّ عَنْهُ مِنَ الْبِمَادِ دَعَاؤُهُ
 هِبَاتٍ أَصْبَحَ سَمْعُهُ وَعِيَاةَ فِي الْقُرْبِ قَدْ حَبَّبَتْهُمَا أَفْدَاؤُهُ
 عَمَى وَلَيْنُ مَهَادٍ حَصْبُؤُهُ فِيهِ ، وَمَوْسُ لَيْلِهِ ظِلْمَاؤُهُ
 قَدْ قَلْبَتْ أَعْيَانُهُ وَتَفَكَّرَتْ أَعْلَامُهُ ، وَتَكَسَّفَتْ أَضْوَاؤُهُ

(١) من مراثيه لأبي إسحاق السبائي ، ومطابقها :

أَعْلَيْتَ مَنْ سَحَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عَنْ ظَهْرِ كُلِّ مَذَلٍّ » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مراثيه لبعض أسدقائه .

مُغْفِرٍ وَلَيْسَ لَذَقِرٍ إِغْضَاؤُهُ ، مُمْضٍ وَلَيْسَ لَمَكْرَةٍ إِغْضَاؤُهُ
وَجَهْ كَلْعِ الْبَرْقِ عَاضٍ وَمِيضُهُ قَبْ كَعْدَرِ الدَّهْبِ قُلْ مَصَاؤُهُ
حَكَمَ الْبَلَى فِيهِ فَلَوْ تَلَقَى بِهِ أَعْدَاءَهُ لَرَقَى لَهُ أَعْدَاؤُهُ
وَقَالَ أَبُو الْمَلَاءِ :

أَسْتَعْفِرُ اللَّهَ مَا عِنْدِي أَسْكُمْ حَبْرٌ وَمَا حَطَّائِي إِلَّا مَعْشَرٌ قُبِرُوا
أَصْبَحْتُمْ فِي الْبَلَى خُبْرًا مَلَابِسَكُمْ مِنَ الْهَبَاءِ ، فَإِنْ لَبُرْدٌ وَالْقَطَرُ ^(١)
كُنْتُمْ عَلَى كُلِّ خُطْبٍ فَادِحٌ صَبْرًا فَهَلْ شِعْرْتُمْ ، وَقَدْ جَادَتْكُمْ الصَّبْرُ ^(٢)
وَمَا دَرَى يَوْمَ أَخَذَ بِالْأَقْدَمِ ثَوْرًا فِيهِ ، وَلَا يَوْمَ يَدْرَأُ أَهْمُ نَعِيرُوا
وَقَالَ أَبُو طَارِمٍ الْكَلْبَلِيُّ :

أُجَازِمُ رُدَيْقَةَ أَنْ أُنْقَلَا نَسِي أَمْ يَكُونُ لَهَا اصْطِبَارُ ؟
إِذَا مَا أَهْلُ قُبْرِى وَدَعَوْى وَرَاحِبُوا وَالْأَكْفَ بِهَا غُبَارُ
وَعُودِ أَعْظَمِي فِي الْحَدِّ قُبْرِى رَاوِحَ الْجَنَائِبِ وَالْقَطَارُ
نَهَبَ الرِّيحُ فَوْقَ مَحْطِ قُبْرِى وَبَرَعَى حَوْلَهُ الْبَهَقُ النَّوَارُ ^(٣)
مَقِيمٌ لَا يَكَلِمُهُ صَدِيقٌ بِقُبْرِى ، لَا أَزُورُ وَلَا أَزَارُ
فَذَاكَ النَّأْيُ لَا الْمَعْرَانَ حَوْلًا وَحَوْلًا نَمِ نَحْنُ الدِّيَارُ

مرَّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل
بقي من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقی واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لم تلزم المقابر ؟
قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن
تلزمنى حتى أبيعك ببيعك ؟ قال : لو علمت أنك تقدر على ذلك الزمتك . قال : وما بيعتك ؟

(١) القطر : من الدود .

(٢) الصبر : السحابة البيضاء .

(٣) البهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أفسد على ذلك ، قال : فدعني أطلبه ممن
يقدر عليه .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « مارأيت منظرا إلا والقبر أقطع منه » .
وقال صلى الله عليه وآله : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فمن بجاءه فابعد
أبسر ، ومن لم ينج فابعد شره » .
مرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرة فصلّى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل
القبور وأنت حيل بينهم وبين هذا ، فأجبت أن أتقرب سها إلى الله .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « بجانب المعبر » ؟ وأي فائدة في لفظة
« جانب » في هذا الموضع ؟
قلت : لأنهم يقولون : فلان في حاسب المعبر ، وفي جانب القملبة ، ولا يقولون :
« في جانب الوصل » ، وفي « جانب للصافاة » ، وذلك أن لفظة « جنب »
في الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجنب » ، وهو جارك من
قوم غرام . يقال : جنب الرجل ، وأجنبته ، وتجنبته ، وتجانبته ، كله بمعنى ، ورجل
أجنبى ، وأجنب ، وجنب ، وجانب ، كله بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أحطار دارهم » ، للمعنى أنه شاهد للفقير من آثار
الرحمة وأماراتها ، وشاهد للجرمون من آثار النقمة وأماراتها عند الموت ، والحصول في
القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنون أيام كونهم في الدنيا .

ثم قال : « فكلما التائتين مدت لم » ، للمعنى مدت الساجان : غاية الشق منهم
وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل بعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ، أو رجاء راج ؛ وذلك المباءة هى النار أو الجنة . وتقول : قد استبأه الرجل أى اتخذ مباءة ، وأمأت الإبل : رددتها إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لميؤا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَبَّيُوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَبَّتْ بِبَيْعَتِهَا الْحَمَامَةُ
جَمَلَتْ لَهَا عَوْدِينَ مِنْ شَمِّ وَآخِرٍ مِنْ ثَمَامَةِ

وروى « كمئوا » بالتعفيف ، كما تقول : « حيوا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأن الواو ما كفة ، وضمت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنَّا حَسِينًا مَقَارِسَ كَمَّيْسٍ حَيُّوا بَعْدَ مَا مَاتُوا مِنْ الدَّهْرِ أَصْعَا

قوله : « لقد رجعت فيهم » يقال : رجع البصر نفسه ، ورجع زبد بصره ؛ يتعدى ولا يتعدى ، يقول : تكلموا معنى لأصورة ، فأدركت حالمهم بالآبصار والأسماع للعقلية لا الحسية . وكَلَمَتِ الوجوه كلوها وكَلَامًا ، وهو تكثر فى عُيُوس .

والتواضير : النوام ، والنضرة : الحسن والروثى .

وخوت الأجساد النوام : خلت من ديمها ورطوبتها وحشوتها . ويموز أن يكون حوت أى سقطت . قال تعالى : « فَبِئْسَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا »^(١) ، والأهدام : جمع هِذْم ، وهو الثوب البالى ، قال أوس .

وَذَاتِ هِذْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا نُصِيتَ بِالماءِ تَوَلَّيْتُهَا جَذَعًا^(٢)

(١) سورة الحج ٤٥ .

(٢) ديوانه ٥٥ النواشر : عصب القداح ، الواحد ناشرة ؛ وبها سمي الرجل ، وأراد بالتواضير طفلها أو جلدع : السبي الضياء ؛ نصبت به الماء لأنه ليس له ابن من شدة الضر .

وتكادنا : شق علينا ، ومنه : هبة كزود . ويجوز تكادنا ، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها « تفعل وتفاعل » بمعنى ، ومنه تهاد الضيعة ، وتعاهدا .

ويقال : قوله : « وتوارثنا الوحشة » . كأنه لما مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأن الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تورث الأموال ، وهذا من باب الاستمارة .

قوله : « تهدمت علينا الربوع » ، يقال : تهدم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتد غضبه ، ويجوز أن يكون تهدمت أي تساقطت وروى « وتهكت » بالكاف ، وهو كقولك : « تهدمت » بالتفسيرين جميعا ، وبمعنى بالربوع القصوات ، القبور ، وجعلها صموتا لأنه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أي بقاء وبصام فيهما ، وهذا كله على طريق المزج والتحريك وإخراج الكلام في مترق من غير المعترض المصنوع ، جعلهم لو كانوا مطلقين مخبرين عن أنفسهم [لأتوا] بما وضعه من أحوالهم . وزود في الحديث أن عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأسا في القبور ، واستبطأ الناس جدا ثم رجع وقد أحرقت عيناه ، وانتفضت أوداجه ، فقيل : أنطأت يا أمير المؤمنين ، فما الذي حبسك ؟ قال : أنيت قبور الأحبة ، فسلمت فلم يردوا على السلام ، فلما ذهبت أفتى نادى التراب ، فقال : ألا تسألني يا عمر ما فعلت باليدين ؟ قلت : ما فعلت بهما ؟ قال : قطعت للكافرين من الرُسُفِين ، وقطعت الرُسُفِين من القراعين ، وقطعت القراعين من المرققين ، وقطعت المرققين من المصدين ، وقطعت المصدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكفين ، فما ذهبت أفتى نادى التراب ، فقال : ألا تسألني يا عمر ما فعلت بالأبدان والرجلين ؟ قلت : ما فعلت ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ، وقطعت الجنبين من الصلب ، وقطعت الصلب من الوركين ، وقطعت الوركين من الفخذين ، وقطعت الفخذين من الركبتين ،

وقطعت الرّ كبتين من السافين ، وقطعت السائين من القدمين ، فلما ذهبت ألقى ناداني القراب ، فقال : يا عمر ، عليك بأ كفانٍ لا تبلى ؟ قلت : وما أ كفانٍ لا تبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهذا من الباب الذي نحن بصدده ، نسب الأقوال المذكورة إلى القراب وهو جاد ، ولم يكن ذلك ، ولكنه اعتبر فأنقذت في نفسه هذه المواعظ الحكيمة ، فأفرغها في قالب الحكاية ، ورتبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جاد موات ، لأنه أهرؤ لاسمها إلى تدبرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت في حال الموتى ، فوجدت القراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عقله المبلغ الذي بلغته حيث أودعها في الصورة التي اخترتها .

• • •

قوله عليه السلام : « طومنتهم بهفتك » أو كشف عنهم محسوب المطاوعة إلى آخر جواب « لو » . هذا الكلام أحده ابن نباتة سببه فقال : فلما كشف عنهم أخطية الأجداد ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدم الأجداد على الحدود سائلة ، والألوان من صيق اللصوص حائلة ، وهوام الأرض في نواحم الأبدان جائلة ، والرؤوس للوسنة على الأيمان زائلة ، يدكرها من كان لها عارفا ، ويفتر عنها من لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام : « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتت كازحه الراوندي ، لأنها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوام فيها ، بل الصحيح أنه من رشح المدير إذا نش ماؤه ونضب ، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتسمته حتى يلتقي الثرىان .

وامتسكت ، أي ضاقت واسدت ، قال النابغة :

وَنَبِثْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ أَلْقَى تَسْتَكَّ مِنْهَا لِلْسَامِعِ^(١)

• • •

(١) ب • فيها • ، والبيت في ديوانه • • ، وروايته :

• أَنَانِي أَيْتَ أَلْعَنَ أَمَّكَ لُمْتَنِي •

قوله : « واكتنعت أبصارهم بالتراب نجسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .
وأخذ الثني قوله : « واكتنعت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَقَّنُ بَعْضًا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرًا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي^(١)
وَكَمْ عَيْنٍ مَقْبَلَةٌ لِلنَّوَاجِي كَعَمَلٍ بِالْجَسَادِ وَالرَّمَالِ !
وَمَنْصَرٍ كَانَ لَا يَنْصِي لِمَطْبِئِهِ وَبَالَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْمَزَالِ

وذلاقة الألسن : حدثها ، ذلق اللسان والسنان بذلق ذلقاً ، أى ذرباً ؛ فهو
ذائق ، وأذلق .

وتمدت ، بالفتح : سكنت وخذت . ومات : أمد . وقوله : « جديد بلى » ، من
فن البديع ، لأن الجدة ضد البلى ؛ وقد أخذ الشاعر حكم اللفظة فقال :

يَادَارُ عَادَرَنِي جَدِيدُ هَلَاكِ رِثِّ الْحَدِيدِ فَهَلْ رِثِيَتْ هَذَاكِ !

وسمجها : قبح صورتها ، وقد سمج الشيء بالضم فهو سمج ، بالكون ، مثل ضخم
فهو ضخم ، ويجوز : فهو سمج ، بالكسر ، مثل خشن فهو خشن .

قوله : « وسهل طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنه إذا استولى المنصر الترابى على
الأعضاء ، قوى استعدادها ، الاستعالة من صورتها الأولى إلى غيرها .

ومسلمات ، أى منقادة طائفة غير عاصية ؛ فلبس لها ألبس تدفع عنها ، ولا لها
قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها .

والأشجان : جمع شجن ، وهو الحزن .

والأفذاء : جمع قذى ، وهو ما يسقط فى العين فيؤذيها .

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوال : الأوائل ، ولكه قلب .

قوله : « صفة حال لا تنتقل » ، أى لا تنتقل إلى حسن وصلاح ، وليس يريد : لا تنتقل مطلقا ، لأنها تنقل إلى فساد واضمحلال .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الحسد ، أى طرى ، وأنيق اللون : معجب اللون .
وعذِي تَرَف : قد عذِي بالترف ، وهو التخم للمطعم .

وريب شَرَف ، أى قد ربي في الشرف والعز . ويقال : رب فلان ولده يرُبّه ربّا ، وربّه يرُبّه تربية .

ويتعمل بالسرور : يتلقى به من غيره . ويخرج إلى السّوة : يلتحق إليها . وضنا ، أى بخلا . وغضارة العيش : دميته وليته .

وشعاعة ، أى بخلا ، شععت بالكسر أشع . وشععت أيضا بالفتح ، أشع وأشع ؛ بالضم والكسر ، شعّا وشعاعة ورجل شعيع وشعاع بالفتح . وقوم شعاع وأشعة .

وبضعك إلى الدنيا وتضعك إليه ؛ كناية عن الفرح بالعمر والعيشة ، وكذا كل واحد منهما بضعك إلى صاحبه لشدة الصفاء ، كأن الدنيا تحبه وهو يحبها .

وعيش غفول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدهر ، فيكدر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان المرء في غفلات عيشه كأن الدهر عنها في وثاق
وقال آخر :

ألا إن أخل العيش ما سمعت به صروف الليالي ، والحوادث نوم

قوله : « إذ وطئ الدهر به حسكه » ، أى إذا وطأ الدهر حسكه . والمساء في « حسكه » ترجع إلى الدهر ، عذِي الفعل بحرف الجر ، كما تقول : قام زيد بمسرو ، أى أقامه .

وقوّاه : جمع قوّة وهي الليرة من مرائر الحبل . وهذا الكلام استعارة .
ومن كُتِبَ : من قرب . والبت : الحزن . والبت أيضا : الأمر الباطن الدخيل .
وبعني الهم : ما باجيك وبارك . والفترات : أوائل للرّس .
وآنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراونديّ في الشرح : هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل في الحال « فترات » ،
قال : تقديره : « فترات آنس ما كان » . وما ذكره الراونديّ فاسد ، فإنه ليس هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » ، لأنّ ذلك حال صدّ مسدّ خبر المبتدأ ، وليس
هائنا مبتدأ . وأيضا فليس العامل في الحال « فترات » ولا « فتر » ، بل العامل :
« تولدت » . والقار : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحار بالبارد » ثم تحريك البارد بالحار ؟ ولأى
معنى جمل الأول للتسكين والتسائي التحريك ؟ قلت : لأنّ من شأن الحرارة التهييج
والتشوير ، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة « التسكين » ، ومن شأن البرودة التهدير والتحميد ،
فاستعمل في قهرها بالحار لفظة « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بمذاج تلك الطبائع إلّا أمدّ منها كل ذات داء » ، أي ولا استعمل
دواء مفردا معتدل المذاج أو مركبا كذلك إلّا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض
زائد على الأول .

وينبغي أن يكون قوله : « ولا اعتدل بمذاج » ، أي ولا راح الاعتدال لمترج ،
لأنه لو حصل له الاعتدال لكان قد برى من مرضه ، فسعى بمحاولة الاعتدال اعتدالا ،
لأنه باستدلال المتدلات قد نهيا للاعتدال ، فكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبغي أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرض » كما قدرناه
نعم ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حَقَّى قَتَر مَعْلَهُ » ، لأنَّ مَعْلَى الرِّضِ في أوائل الرِّضِ يكونُ عندَهم نشاطٌ ، لأنَّهم يَرِجُونَ الْبَرْءَ ، فإذا رَأَوْا أَمَارَاتِ الْهَلَاكِ قَتَرَتْ مِنْهُمْ .

قوله : « وَذَهَلْ عَرَضَهُ » ، ذَهَلَ بِالْفَتْحِ ، وَهَذَا كَالْأَوَّلِ ، لأنَّ الْمَرَضَ إِذَا أَعْيَا عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَانْدَلَّتْ عَلَيْهِ أَبْوَابُ التَّحْدِيرِ بِذَهَلٍ .

قوله : « وَتَعَايَا أَهْلَهُ بِصِفَةِ دُونِهِ » ، أَيِ تَعَاوَرَا الْقِيَمَةَ وَنَسَاكَتُوا إِذَا سَأَلُوا عَنْهُ ، وَهَذِهِ عَادَةُ أَهْلِ الْمَرِيضِ الْمُتَقَلِّ ؛ يَحْمِلُونَ إِذَا سَأَلُوا عَنْ حَالِهِ .

قوله : « وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَيْئًا حَرًّا يَكْتُمُونَهُ » ، أَيِ تَخَاصَمُوا فِي خَبَرِ ذِي شَيْءٍ ، أَيِ خَبَرِ ذِي غُصَّةٍ يَتَنَازَعُونَهُ وَمِنْ حَوْلِ الْمَرِيضِ سِتْرًا دُونَهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِتَحْوَاهُمْ ، وَبِمَا يُخَيِّصُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ .

فَقَاتِلَ مِنْهُمْ : هُوَ لَمَّا بَ ، أَيِ قَدْ أَشْنَى عَلَى الْمَوْتِ . وَآخِرُ بِمَنْتِهِمْ إِبَابُ عَافِيَتِهِ ، أَيِ عَوْدَتِهَا ، آبَ فَلَانَ إِلَى أَهْلِهِ ، أَيِ عَادَ .

وَأَخْرَجَ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا ، وَمَنْ بَلَغَ إِلَى أَعْظَمِ مِنْ هَذَا ثُمَّ عَوِيَ ، فِيمَنْفَى أَهْلُهُ عَوْدَ عَافِيَتِهِ .

وَأَخْرَجَ بِصَبْرِ أَهْلِهِ عَلَى فَقْدِهِ ، وَبِذِكْرِ نَصِيحَةِ الصَّبْرِ ، وَبِنَهَامٍ عَنِ الْجُرْعِ ، وَبِرَوَى لَمْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ .

وَأَسَى أَهْلِيهِمْ ، وَالْأَسَى : جَمْعُ أَسْرَةٍ ، وَهُوَ مَا يَتَأَسَّى بِهِ الْإِنْسَانُ ، قَالَتِ الْخَلِيسَاءُ : وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسَّى^(١)

قوله : « عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّبَا » ، أَيِ سَرْعَانِ مَا يَفَارِقُهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى جَنَاحٍ طَائِرٌ ، فَأَوْشِكُ بِهِ أَنْ يَسْقُطَ .

(١) ديوانها ١٥٣ ، وروايت « وما يَكُونُ »

قوله : « إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ » يعنى اللوت . ومن غُصَصَ : جمع غُصَّة . وهو ما يسترض تجرى الأغصان . ويقال : إنَّ كَلَّ مَيِّتٍ من الحيوان لا يموت إلَّا خفقا ، وذلك لأنَّه من النَّفْس يدخل ، فلا يخرج حيَّوه ، أو يخرج فلا يدخل حيَّوه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأنَّ الرئة لا تبقى حينئذٍ مرَّوَّحةً للقلب ، وإذا لم تُروَّحه اختنق .
قوله : « فَصَحِّرَتْ نَوَافِدَ فُطُوحِ » ، أى تلك الفطنة النافذة الناقبة تمحَّرت عند اللوت ، وتبدلت .

قوله : « وَيَسْتَرْطِبُهُ لِسَانُهُ » ؛ لأنَّ الرطوبة القمائية لقي بها يكون اللزوق تنشف حينئذٍ ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّاهُ عَرَفَهُ فَمِنْهُمْ مَنْ رَدَّاهُ » نحو أن يكون له مالٌ مدفون يُقال عنه حال ما يكون محتضراً ، فيحاول أن يعرف أهله فلا يستطيع ، ويسجى عن ردِّ جَوَّاهِهم ، وقد رأينا مَنْ تَجَزَّاهُ عَنِ الْكَلَامِ فَأشار إشارة فهموا معناها ، وهى الذَّوَاهُ والكَاغْدُ ، فلما حصر ذلك أخذ القلم وكعب في الكاغد عالم يُهمهم ، وده ترُعد . ثم مات .

قوله : « وَدَعَاهُ مَوْلَى لِقَابِهِ مِمَّنْ فَصَّامٌ عَنْهُ » ، أظهر الصم ، لأنَّه لاجية له . ثم وصف ذلك الدماء فقال : « مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يَعْظُمُهُ » ، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام . « وَصَغِيرٍ كَانَ يَرْجَاهُ » ، نحو صراخ الولد على الوالد ، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال : إنها أفلح من أن تحيط الصفاتُ بها . ونستغرقها ، أى تأتى على كُنْهها ، ونعتبر من حقائقها .

قوله : « أَوْ تَعْتَدِلْ عَلَى عَقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا » ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أن غمرات الموت وأهواله عظيمة جداً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها
ووصفت كما هي على الحقيقة ، بل تنبر عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعتر عن عدم
استقامتها على العقول بقوله : « أو يبتدل » ، كأنه جعلها كالشيء المروج عند العقل ،
فهو غير مصدق به .

• • •

[إيراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال الموتى]

ومما يناسب ما ذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينما الفتى مَرِحُ أُلْطَعَا فَرَحًا عَمِيدَا بِسْمِي لَهُ إِذْ قَبِلَ قَدْ مَرِضَ الْفَتَى
إِذْ قِيلَ بَاتَ بِلَوْنِ مَا نَامَ سَمِيدَا إِذْ قِيلَ أَصْبَحَ مُثْقَلًا مَا يُرْجَى
إِذْ قِيلَ أُمْسَى شَاحِصًا وَمُوجَّهًا إِذْ قِيلَ فَارَقْتُهُمْ وَحِلَّ بِهِ الرَّدَى

• • •

وقال أبو القححمة المجلى :

والمرء كالخالم في المسام يقول إن مترك أمامي
في قابل ما فاتني في المسام والمرء يذنيه إلى الحيام
مرء الليالي السود والأيام إن الفتى يُصْبِحُ للأسقام
كالغرض المنصوب قسسام أخطأ رام ، وأصاب رام

• • •

وقال عمران بن حطان :

إن كل عام مَرَضَةٌ نَمَ نَقَةٌ ويُنَى ، ولا يَنْمَى ، متى ذأ إلى متى !

ولا بد من يوم يحى، وليس له بثوقان حفاً راح نحوك أو غدا

•••

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بمقبرة فنادى : يا أهل القبور اللوحشة والرُبوع المعلقة، ألا أخبركم بما حدث بصدكم ؟ تزوج نساؤكم ، وتبوت مساكنكم ، وقامت أموالكم . هل أنتم مهيدون بما فابنتم ؟ ثم قال : ألا لأنهم لو أذن لهم في الجواب لقالوا : وجدنا حير الزاد لقتلوا .

ونظر الحسن إلى رجل يمجد بنفسه فقال : إن أمراً هذا آخره ، لجدير أن يرهد في أوله ، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يحف آخره .

•••

وقال قتادة بن الطيب - ويعني قوله على الحلال التي كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصاً من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم

ولقد علمت بأن قصرى حفرة غيرة يهملني إليها شرجع^(١)

فبكي بناتي شجوهن وزوحي والأقربون إلى ، ثم تصدوا

وتركتني غراء بكرة وزدها تدني على الريح ثم أودع

إن الحوادث يحترمن وأعمى عمر الفقى في أهله مستودع

ونظير هذه الأبيات في رويها وعروضها قول متمم بن نويرة اليربوعي :

ولقد علمت ولا محالة أنني للعدائات ، فهل تربييني أجرع^(٢)

أهلكن عداً ثم آل محترق فتركهنم بلداً وما قد جمعوا^(٣)

(١) من مفعليته ١٤٥ - ١٤٩ ، والشرع : حشيشة ينفذ إلى بني كالمسرى يحمل عليه اللقي.

(٢) من مفعليته ٤٨ - ٥٤ .

(٣) بلداً ، أى تراباً .

ولهن كان الحسارِثان كلاهما ولهن كان أخسوالصانع نبع^(١)
 فمعدت آباءى إلى عرقى للذى فدعوتهم فطمت أن لم يتموا
 ذهبوا فلم أدركهم ودعهم غسول أنوها والطريق المبيع
 لا بد من تلف مصيب فانتظر أبارض قومك أم بأخرى تصرع
 ولهاين عليك يوم مرة يبكى عليك مفعماً لا تسمع^(٢)

• • •

لما فتح خالد بن الوليد عين القمر ، سأل عن الحرقفة بنت النعمان بن المنذر ، فدل عليها ، فأناعا - وكانت غمياء - فسأها عن حالها ، فقالت : لقد طلعت علينا الشمس مائىء بدبة تحت الخورنق إلا تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحنا كل من يدور به ، وما بيت دحائه حبرة ، إلا دخله حبرة ، ثم قالت :

وَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأُمْرَ أَمْرًا إِذَا نَحْنُ فِيهِ سَوْقَةٌ تَنْصَفُ
 فَأَيُّ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقْلِبُ تَارَاتِ بِسَا وَتَصْرَفُ

فقال قاتل تمن كانت حول خالد : قاتل الله عدى بن زيد ! لكأنه ينظر إليها حين يقول :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَرْمَةً فَاحْذَرُهَا لَا تَبْتَغِ قَدَ أَيْفَتِ الدَّهْورِ^(٣)
 قَدْ بَيَّتَ الْفَسَى مَعَالِي فِرْدَى وَلَقَدْ كَانَ آمَنًا مَسْرُورًا

• • •

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قرى ، وهو على فرش

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : الصالح النصور . نبع : ملك من ملوك اليمن .

(٢) مفع : مطلق في أنوابه .

(٣) الأمانى ٢ : ١٣٨ - ١٤٠ .

بكاديفيب فيها ، فقال : يا بن عباس ، إني لأحسب اليوم بارداً قال : أجل ، وإن
ابن هند عاش في مثل ماترى ؛ عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره
ثمالة هتر .

فيقال : إن عهد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمالة ناجة .

• • •

كان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره ببغداد على دجلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء
، وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأعرجُ واحتوى به التطرُ قتل في حير ما استعملته الحذرُ
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالتك الليالي فاغترت لها وعند صفو الليالي يحدث الكدر
فلم ينفع بنفسه أياماً .

• • •

هدى بن زيد :

أيتها الشامت للمير بالله رَأَيْتَ لِلْأَمِيرِ الْوَفُورِ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيَّامِ ، بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَفْرُورٌ
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونُ خَلَقْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوِشِرُ وَإِنْ أَمِ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ^(١)
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامِ مُلُوكُ رُومٍ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

(١) سابور الخنود ، هو ابن أردشير ، وسابور هو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما
من ملوك السج .

وأخو الحضير إذ بقاه وإذ دج له نجوى إليه والخابور^(١)
 لم يهنه ريب المنون فبدا ملك عنده فباه مهجور^(٢)
 شاده مرمراً وجلاه كالأفطير في ذراه وكور^(٣)
 وتبين رب الخورنق إذ أنه عرف يوماً وللهدى تفكير^(٤)
 مره حاله وكثرة ماية إليك والبحر معصاً والتدبير^(٥)
 فارعوى قلبه وقال : فما هب طلة حتى إلى المات بصير !
 ثم مد الفلاح والملك والأمة وارثهم هناك القبور^(٦)
 ثم اصحوا كأنهم ورق جة ما قنوت به الضأ والذبور^(٧)
 قد اتفق الناس على أن هذه لأبيات أحسن ما قيل من التقرير في هذا المعنى، وأن
 الشعراء كلهم أخذوا منها ، واحتذوا في هذا المعنى حذوها .

وقال الرمي أبو الحسن رضى الله عنه :

انظر إلى هذا الأمام مستبراً لا يصحبك حافه ورواؤه^(٨)
 فتراه كالورق النضير تقصفت أعضائه ، ونسبت شجراؤه^(٩)
 أنى تحاماه المنون ، وإنما خلقت مرامي للردى خضراؤه
 أم كيف تأمل قلعة أجساده من ذا الزمان وحشوها أدواؤه

-
- (١) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
 (٢) الكلى : الصادق ، وأحاطها التي تصرح (تلى) بها التزل وغيرها .
 (٣) في الأغاني : « وتذكر » .
 (٤) في الأغاني : « سره ملك » .
 (٥) الأمة : النعمة .
 (٦) ألوت به : أى دعت به .
 (٧) ديوانه لوحة ١١٦ .
 (٨) ديوانه : « فبناه » .

لا تعجبين فما العجيب فناءؤه بيدِ اللون ، بل العجيب بقاؤه
 إنا للعجب صكيف حُمّ حمامه عن مصّة ، ويفيب عفا ذأؤه
 من طاح في سبل الرّدى آباؤه فليسكن طريقهم أباؤه
 ومؤثر نزلوا به في سوقه لا شكه فيهم ولا نظراؤه (١)
 قد كانت يفرق ظله أقرانه وبمضّ دون جلاله أكتفاؤه (٢)
 ومحبّب ضربت عليه مهابة بمشي الميون بهأؤه وضياؤه
 نادته من خلف الحجاب منية أمّ فكان جواها حوباؤه (٣)
 شقت إليه صيوفه وريماحه وأميط عنه حيدّه وإماؤه
 لم يفنه من كان ودّ له أنه قبل اللون من اللون فداؤه
 حرّم عليه القلّ إلا لأبه أبداً ليشهد بالجلال بناؤه (٤)
 متخشع بعد الأنيس حيلابه متضاؤل بعد القطين فناءؤه
 عريان تطرد كل ربح تزبه ويطيح أول أمرها حصباؤه
 ولقد مهوت يبرزخ فسألته أين الألى ضمّتهم أرجاؤه
 مثل الملقى بواركا أجدها تسنى على جنباتها بوعاؤه (٥)
 نادجه فنحنى على جواؤه بالقول إلا مازقت أصدائه (٦)

(١) الدهوان : « فناءؤه » .

(٢) يفرق : يحاف ويهاب .

(٣) أمّ : قريبة ، والحواء : النفس .

(٤) حرم عليه : حرام عليه .

(٥) بواركا : جمع يارك أو بركة . البوغاء : للتراب .

(٦) زلت : صاحت : الأصداء : جمع صدى ، وهو حكاية الصوت في الجبال والكهوف والأماكن

الغالية .

مِنْ بَاطِلٍ مَطْرُوفَةٍ الْحَافِظَةِ أَوْ خَاطِرٍ مَظْلُوفَةٍ سَوْدَاوَةٍ ^(١)
 أَوْ وَاجِدٍ مَكْظُومَةٍ زَقَرَاتِهِ أَوْ حَافِدٍ مَذْتَقِرٍّ شَحْنَاوَةٍ ^(٢)
 وَمُسْتَدِينٍ عَلَى الْجَنُوبِ كَانَتْهُمْ شَرِبَتْ تَحَادُلُ بِالْعَلَا أَعْصَاوَةٍ
 نَحْتِ الصَّعِيدِ لَمِيرٍ إِشْفَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْعَمَادِ يَضْمُثُهُمْ أَحْشَاوَةٍ
 أَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ الَّتِي وَلَدَتْهُمْ أَكَلَتِ الْغُرُوسُ حَلَّتْ لَهُ أَكْلَاوَةٍ

• • •

وقال أيضا :

وَتَفَرَّقُوا الْبَهْدَاءُ بَعْدَ نَجْمِشٍ صَنَبٌ ، فَكَيْفَ تَفَرَّقَ الْقُرْبَاءُ ^(٣)
 وَخَلَّاتُ الدُّنْيَا حَلَاتُ مُوسَى لَمَسَ آوَةَ ، وَلِلْإِعْطَاءِ ^(٤)
 طَوْرًا تَبَادَلَتْ الْعَفَاءُ وَتَلَوَتْ تَفَلَّتْ تَفَكَّرُهَا مِنَ الْبَنْضَاءِ
 وَتَدَاوَلُ الْأَيَّامُ يُبْلِغُ كَيْدًا يُبْلِغُ الرِّشَاءِ نَطَاوُحُ الْأَرْجَاءِ ^(٥)
 وَكَانَ طَوْلُ الصُّرُورِ وَحَةً رَاكِبٍ قَصَى الْقُنُوبِ وَجَدَتْهُ الْإِسْرَاءُ ^(٦)
 لَمِنَى عَلَى الْقَوْمِ الْأُولَى غَادَرَتْهُمْ وَعَلَيْهِمْ طَبَقٌ مِنَ الْبَهْدَاءِ ^(٧)

-
- (١) مطروقة ، من قولهم : طرق فلان بصره ؟ إذا أطلق أحد جنبيه على الآخر . ومطلوقة ، من قولهم : طلق دم فلان ، إذا ذهب حذراً .
 (٢) واجد ، من الوجد ؟ وهو الحزن .
 (٣) من صرلته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أَبْكَيْكَ لَوْ نَفَعَ الْعَمَلُ بِكَائِ وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ لِلْقَالِ بُدَائِي

ديوانه لوحة ١١٥ .

- (٤) اللوس : المرأة الفاجرة .
 (٥) الرشاء : الحبل يستقي به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؟ وهو ناحية البئر .
 (٦) روضة راكب : راحته . والقنوب : الإمضاء . والإسراء : سحر الليل .
 (٧) المطلق : وجه الأرض ؟ أو عطاء كل شيء .

متوسدين على الخلدود كأنما
صوّرت ضيفت على العيون بلعظها
و نواظر كحل التراب جفونها
قربت ضرائعهم على زوارها
ولبس ما يلقى بغير ديارهم
كزعموا على ظلم من الصبياء
أسيئت أوقيرها من البوغاء^(١)
قد كنت أحرسها من الأعداء
ونافوا من الطللاب أيت تفاء^(٢)
أذن للصيغ بها وعين الرائي^(٣)

(١) البوغاء : التربة الرخوة .

(٢) الضرائع : جمع ضريح ؟ وهو القبر .

(٣) عفر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ بُسِّحْ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) :

إن الله سبحانه وتعالى جعل الله ذكره جلالة القلوب تسمع به تمد الوقرة، وتبصر به بمد العشرة، وتتفاد به بمد المعاندة وما يريح فيه عزت الآلة، في البرهة بمد البرهة، وفي أزمان الفترات عباد كاجم في فيكرهم، وكسهم في ذات عقولهم، فاستصحبوا بنور بخلق في الأنساج والأبصار والأفئدة، يدكرون بأبام الله، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ بيميناً وشيئاً ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة، وكانوا كذالك مصايح تلك الظلمات، وأدلة تلك الشبهات.

وإن لذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أبام الحياة، ويهتفون بالزواجير عن معارم الله، في أنساج العافلين، وبأمرؤن بالقسط وبأمرؤن به، وبأنهون عن المنكر وبفناهون عنه، فكانهم قطعوا الدنيا إلى الآخرة ومم فيها، فشهدوا ما وراء ذلك، فكأنما

أَطْلَكُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَّتِهَا ، فَسَكَنُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَانَتْهُمْ بِرُؤْنِ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَارِمِهِمُ لِلْعُشُودَةِ ، وَتَجَالِيهِمُ لِلشُّهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَابِّنَ أَهْلِهِمْ ، وَفَرَّغُوا لِحَاظِيَّةِ أَنْفُسِهِمْ قُلُوبَ كُلِّ صَنِيعَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أَمَرُوا بِهَا فَفَعَلُوا ، وَنَهَوْا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَمُّوا عَنْ الْأَيْتِقَالِ بِهَا ؛ فَتَشَجُّوا تَشِيجًا ، وَتَجَاوَبُوا تَحِيبًا ، يَسْعَوْنَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ غَدِيمٍ وَاعْتِرَافٍ - لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَعَابِيِعَ دُجًى ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ؛ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ ، فِي مَقْعَدٍ أطلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، قَرْنَيْنِ سَقِيَّيْنِ ، وَوَحْدَ مَقَامِهِمْ .

يَتَذَكَّرُونَ بِدُعَائِهِ رُوحَ التَّجَاوُزِ ، رَهَائِنَ فَاغِقَ إِلَى فَصْلِهِ ، وَأَسَازِي دِلْفِ لِمَطْمَئِنِّهِ ، جَرَحَ طَوْلُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطَوَّلُ الْهَكَاةِ هَيُوسَهُمْ .
لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ بِدَقَائِعِهِ ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ أَدْبَهُ النَّادِحُ ، وَلَا يَحْيِبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ .

فَحَاسِبٌ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ غَيَّرَهَا مِنْ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

• • •

الْبَرْزَخُ :

من قرأ ﴿ يَسْجُدْ ﴾ فيها ﴿ بَخَعَ الْبَاءُ ﴾^(١) ارتفع « رجال » عنه بوجهين :

(١) هي قراءة ابن عاصم وابن بكير مجامد؛ والباقيون بكسرهما ؛ وانظر أيضا إمامنا فضلاء البشر ٣٢٠

أحدهما أن يُضَرَّ له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على
« يسبحه » بسّبح ، كما قال الشاعر :

لَيْتَكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ مَخْصُومٌ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْلِحُ الطَّوَالِحُ^(١)
أى يهيكه ضارع ، ودلّ على « يهيكه » « يهيك » .

والثانى أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : « المسبحون رجال » . ومن قرأ :
« يسبح له فيها » بكسر الهاء ، فـ « رجال » فاعل ، ووقع لفظ « التجارة » فى مقابلة لفظ
« البيع » إلتالاه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصة ، أو لأنه هم بالتجارة المشتلة على
البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخل فى باب الإلهاء ، لأن البيع يحصل ربحه
يقين ، وليس كذلك الشراء ، والذكر يكون تارة باللسان ، وتارة بالقلب ، فالذى
باللسان هو التسبيح والتكبير والتلهيل والتعبد والدعاء ، والذى بالقلب ؛ فهو التمجيد
والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلب جلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهود عن المدينة جلاء بالفتح .
والوقرة : الثقل فى الأذن . والمشوة ، بالفتح : فعلة ، من الشافى العين .
وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أى معنى تحت قوله : « عزّت آلاؤه » وعزّت بمعنى . « قلت » أو هل
يموز مثل ذلك فى تعظيم الله ؟

قلت : عزّت هاهنا ليس بمعنى « قلت » ولكن بمعنى : « كرمت وعظمت » ،
تقول منه : عزّزت على فلان بالفتح ، أى كرّمت عليه ، وعظّمت عنده ، وفلان عزيز
علينا ، أى كريم معظّم .

والبرهة من الدهر : المدة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان العترات : ما يكون منها بين التوثبتين .

وناجاهم في فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مساجاة الرسل يبعث لللائكة إليهم ، وكذلك « وكلمهم في ذات عقولهم » ، فاستصبعوا بنور بقطة : صار ذلك النور مصباحا لم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حِدُوا إِلَيْهِمْ طَرِيقَهُ » ، إلى هاهنا : هي التي في قولهم : أحمداً إلىك ؛ أى مُنْهياً ذلك إليك ، أو مفضياً به إليك ؛ وبحو ذلك ، وطريقة العرب في الخلف في مثل هذا معلومة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَا بَيْنَكُمْ مَلَائِكَةً ﴾ ^(١) ؛ أى لجعلنا بدلاً منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبركة كانت على طيبان
أى عوصاً من ماء زمزم .

قوله : « وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشَمَالًا » ، أى ضل من الجادة .

و « إلى » في قوله : « ذموا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجير : يصوتون بها ، هتفت الحمامة تهتف هتفاً ، وهتف زيد بالنم هتافاً بالكسر ، وقوس هتافة وهتق ، أى ذات صوت .
والقسط : العدل . ويأثمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ » ، إلى قوله : « وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ » ؛ هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازدادت بهتنا » .
والأوزار : الذنوب . والنسيج : صوت البكاء . وللقصد : موضع القمود .

ويدقارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والنادح : اللواضع الواسعة .

و « هل » في قوله : « ولا ينجيب عليه الرابعون » متعلقة بمحذوف مثل « إلى » المتقدم ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحبيب : المحاسب .



واعلم أن هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص والمتصددين لإنكار المنكرات ، ألا تراه يقول : « يذكرون بأيام الله ! أي الأيام التي كانت فيها النعمة بالمصاة ، ويحذرون مقامه من قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(١) ثم قال : فمن سلك القصد حيدوه ، ومن عدل عن الطريق ذموا طريقه ، وخوفوه الهلاك . ثم قال : يهتفون بالزواج من المحارم في أسمع العاقلين ، ويأثمون بالقسط وينهون عن المنكر .

وهذا كله إصباح لما قلناه أولا ؛ أن ظاهر الكلام شرح حال القصاص وأرباب المواعظ في الجماع والطرقات ، والمتصددين لإنكار التباهع ؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين ، الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه ، وهو عليه السلام دائما يكنى عنهم ، ويرمز إليهم ، هل أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله : « حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر ، ومحاسبة النفس ، والبكاء ، والتعيب ، والتندم والتوبة ، والهداء والعاقبة ، والذلة ، والحرى ، وهو الأسمى الذي ذكرناه جرح قلوبهم بطوله .



[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إن أول مقام من مقامات العارفين ، وأول منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وقال علي عليه السلام : « ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب » .

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة للندم على ما عمل من المخالفة وترك الزلة في الحال والعزم على ألا يعود إلى ارتكاب معصية ، وليس الندم وحده عند هؤلاء توبة ، وإن جاء في الخبر : « الندم توبة » ، لأنّه على وزن قوله عليه السلام : « الحج عرفة » ؛ ليس على معنى أن غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنه أكبر الأركان وأهمّها . ومنهم من قال : يكفي الندم وحده ، لأنه يستتبع تركين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ما هو مصرّ على مثله ، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : وللتوبة شروط وترتيبات :

فأول ذلك انتباه القلب من رقدة العلة ، ورؤية المبدأ ما هو عليه من سوء الحالة ، وإثماً يصل إلى هذه الجلة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباليه من رّواجر الحق سبحانه ؛ يسمع قلبه ، فإن في الخبر النبوي عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كل حال الله في قلب كل امرئ مسلم » .

وفي الخبر : « إن في بدن المرء لمصعة إذا صنعت صالح جميع البدن ؛ ألا وهي القلب ، وإذا فسدت فسدت جميع البدن ، ألا وهي القلب » .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه في سوء صنيعه ، وأبصر ما هو عليه من ذم الأفعال ، سَنَعَتْ في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المأثم ، فبمذه الحق سبحانه يتصحيح المزيمة ، والأخذ في طرق الرجوع والنأهب لأسباب التوبة .

وأول ذلك هجران إخوان السوء ؛ فإنهم الذين يحملونه على ردة هذا القصد ، وعكس هذا العزم ، ويشوشون عليه صحت هذه الإرادة ، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التي تزيد رغبة في التوبة ، وتوفر دواعيه إلى إتمام ما عزم عليه ، مما يهوى خوفه ورجاءه ، فعند ذلك تنحل عن قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعل ، فيقف عن تعامل المخطورات ، ويكتبح نفسه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلة في الحال ، ويلزم المزيمة على ألا يعود إلى مثلها في الاستقبال ، فإن مضى على موجب قصده ، ونفذ على مقتضى عزمه ، فهو الموفق حقاً ، وإن قضى التوبة مرة أو مرات ، ثم حلت إرادته على تجديد ما ، فقد يكون مثل هذا كثيراً ، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإن لكل أجلاً كتاباً . وقد حكى عن أبي سليمان الداراني أنه ^(١) قال : اختلفت إلى مجلس قاص ، فأثر كلامه في قلبي ، فلما قمت لم يبق في قلبي شيء ، فعدت ثانياً ، فسمعت كلامه ، فبقي من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال ، ثم عدت ثالثاً فوثر كلامه في قلبي ، وثبت حتى رجعت إلى منزلي ، وكسرت آلات الخفافة ، ولزمت الطريق .

وحكى هذه الحكاية يحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كركياً - يعني بالعصفور القاص - وبالكركى أبا سليمان .

ويحكي أن أبا حفص الحذاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل - يعني المعصية - كذا وكذا مرة ، ثم عدت إليها ، ثم تركت العمل ، فلم أعد إليه .

وقيل إن بعض المريدين تاب ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكر ويقول : أنرى لو عدت إلى التوبة كيف كان يكون حكى انفتت به هائف : بافلان ، أطمعنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأسهناك ، وإن عدت إلينا قبل ذلك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو علي الهذلي : التوبة على ثلاثة أقسام . فأولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة ، فعمل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أن من تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب التوبة ، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب الإنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر فقط ، فهو صاحب الأوبة .

وقال أبو علي أيضا : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ جَلْبِ مُنِيبٍ ﴾ ^(١) ، والأوبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ يَتِمُّ الصِّدْقُ لَهُمْ أَوْاسِيَةً ﴾ ^(٢) .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً ، فوجدته متميزاً ، فسألته فقال : دخل على شاب ، فسألني عن التوبة ، قلت : ألا تنسى ذنبك ؟ قال : بل التوبة ألا تذكر ذنبك . قال الجنيد : قلت له : إن الأمر عدى ما قاله الشاب ، قال : كيف ؟ قلت : لأنني إذا كنت في حال الجفاء فتقلني إلى حال الصفاء ، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء . فسكت السري .

وقال ذو النون المصري : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين .
وسئل البوشنجي عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذاك حقيقة التوبة .

(١) سورة النور ٣٩ .

(٢) سورة في ٣٣ .

(٣) سورة من ٣٠ .

وقل ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لا يكون لك فرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أحمر الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) .

وقيل لأبي حمص الحداد : لم تُبغض الدنيا ؟ فقال : لأني باشرت فيها الذنوب ، قيل : فهلا أحببتها لأنت وُفقت فيها للتوبة ؟ فقال : أما من الذنب على يقين ، ومن هذه التوبة على ظن .

وقال رجل لرابطة العدوثة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ، فهل يتوب علي إن تبت ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك تبت .

قالوا : ولما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ ﴾ دلنا ذلك على محبته لمن صحته له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أن من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين ، فإذا تاب فإنه من القبول على شك ، لا سيما إذا كان من شرط القبول محبة الحق سبحانه له ، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يحد في أوصافه أمانة محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذاً على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانكسار ، وملازمة التفصل والاستمرار ، كما قيل : استشعار الوَجَل إلى الأجل .

وكان من سنته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : لا إلهَ أَلِفْ أَنْ عَلَى قَلْبِي فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً ^(٢) .

(١) سورة التوبة ٢٤ .

(٢) أوردته ابن الأثير في النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : التبت : التيم ، وغابت السماء ثمان : إذا أطلق عليها التبت ، وقيل : التبت : شجر ملتف ؟ أراد ما يشاء من السهو التي لا يحلو منه البعس ؟ لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى ؟ فإن عزمه له وقتاً ما عارض بشيء يشغله من أمور الأمة والله ومصلحتها عند ذلك ديباً وتقصيراً يفرغ إلى الاستمرار .

وقال يحيى بن معاذ : زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها .
ويحكى أنّ عليّ بن عيسى الوريث ركب في موكب عظيم ، فحمل الغرباء يقولون : مَنْ
هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على السطح : إلى متى تقولون : من هذا ، من هذا !
هذا عبد سقط من عين الله ، فاجتلاه بما تروؤن . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى
منزله ولم يزل يتوصل في الاستغناء من الوزارة حتى أعتق ، وذهب إلى مكة
فجاور بها .

• • •

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدم .

• • •

ومنها المزمة والخلوة ، وقد ذكرنا في الجرم قبل هذا الجرم بما جاء في ذلك
طرفاً صالحاً .

• • •

ومنها التقوى ، وهي الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه : ﴿ إِنِّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ ^(١) ، وقيل : إنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وآله ، فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال : « عليك بتقوى الله ، فإنه جامع كل خير ، وعليك
بالمجاهد ، فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بدكر الله ، فإنه مورثك » .
وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ^(٢) : أن يُطاع فلا يعصى ،
ويُذكَر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .

(١) سورة المجرات ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النصر ابا ذى : من لزم التقوى هادر إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ آخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾^(١).

وقيل : يستدل على تقوى الرجل ثلاث : التوكل فيما لم يذل ، والرضا^(٢) بما قد نال ، وحسن الصبر على ما فات .

وكان يقال : مَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ التَّقْوَى كَلَّتِ الْأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِ رَحْمِهِ .

وقد حكوا من حكايات المقيمين شبتا كثيرا ، مثل ما يحكى عن ابن سيرين ، أنه اشترى أربعين حباً^(٣) ممنا ، فأخرج غلامه فأرآه من حب ؛ فسأله : من أى حبٍ أخرجها ؟ قال : لا أدري ، فصبتها كلها .

وحكى أن أبا يزيد الديلمي غل ثوبه في الصحراء ومعه مصاحب له ، فقال صاحبه : لضرب هذا الويد في جدار هذا البستان ، ونسب الثوب عليه ، فقال : لا يجوز ضرب الويد في جدار الناس قال : فصلقه على شجرة حتى يجف ، قال : يكسر الأغصان ، فقال : ينسقه على الإذخر^(٤) قال : إنه علف الدواب لا يجوز أن نستره منها . فولى ظهره قبل الشمس ، وجعل القميص على ظهره حتى جف أحد جانبيه ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر .

• • •

ومنها الورع ، وهو اجتناب الشبهات ، قال صلى الله عليه وآله لأبي هريرة : « كن ورعاً تكن أهد الناس » .

وقال أبو بكر : كنا ندعُ سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب واحد من الحرام .

(١) سورة الأنعام ٣٠٢ .

(٢) ب : « الفكر » ، وما أتت من : ١ .

(٣) الحب هنا : الجرة .

(٤) الإذخر : المعيش الأخر .

وكان يقال : الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة ، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة ، لأملك تبذلها في طلب الرياسة .

وقال أبو عبد الله الجلاء : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاء برؤيته ورشائه .

وقال شرب بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة : الحود في القنعة ، والورع في الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى .

ويقال : إن أخت بشر بن الحارث ^(١) جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنا نفرل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الطاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا النزل في ضوئها ؟ فقال أحمد : من أمت بإتة الله ؟ قالت : أخت بشر الحافي ، فهكى أحمد ، وقال : من يتيكم خرج الورع ، لا تفرل في ضوء شعاعهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبصرة في بعض الشوارع ، فإذا بمشايخ قوم وحببان يلهون ، فقلت : أمانتكم من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قتل ورعهم ، فقلت هيبتهم .

ويقال : إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، عاصح له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها حتى مات ولم يذقه . وكان إذا اقضى أو ان الرطب يقول : يا أهل البصرة ، هذا بطي ما نقص منه شيء ، سواء على أكلت من رطبكم أو لم آكل .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .
ودخل الحسن مكة ، فرأى غلاما من ولدي علي بن أبي طالب ، قد أسند ظهره إلى

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر الحافي تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

الكعبة وهو يفظ الناس ، فقال له الحسن : ما يلاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فآفته ؟ قال : الطمع ، فجعل الحسن يجمع منه .

وقال سهل بن عبد الله : مَنْ لم يصعبه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .
 وحمل إلى مصر بن عبد العزيز يثك من المناثم ، فقبض على مشمه ، وقال : إنما ينفع من هذا ريحه ، وأما أكره أن أجده ريحه دون المسلمين .
 ومثل أبو عثمان الحريري عن الورع قال : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في التزع ، فبات الرجل ، فنفت أبو صالح في السراج فأطفأه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذي في السريحة له ، فصامت صار إلى الورثة .

ومها الزهد ، وقد تكلموا في حقيقته ، فقال سليمان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل
 وقال الخواص : الزهد أن تترك الدنيا فلا تنال من أخذها .

وقال أبو سليمان الداراني : الزهد ترك كل ما يشغل عن الله .
 وقيل : الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(١) .

وكان يقال : مَنْ صدق في زهده أنه الديار هي راحة ، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريد لها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد بفسطك^(٢) الحبل والخردل ، والعرقان بشتك المسك والمنبر .

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سقطه الدواء وغيره : أدخله في أهله .

وقيل لبعضهم : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على من فيها .
وقال رجل لدى النون المصري : متى تراني أزهد في الدنيا ؟ قال : إذا زهدت
في نفسك .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى تراني أدخل حانوت التوكّل ، وألبس رداء الزهد ،
وأفعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع
الله عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ولا في بقيتك ، فأما ما لم تبلغ إلى هذه
الدرجة فعودك على بساط الزاهدين جهل ؛ ثم لا آمن أن تفتصح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد الصوام ، وترك
الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، وترك كل ما يشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .
وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالبروس ، فطالها كاشطتها تحسن وجهها وتمطر ثوبها ،
والزاهد فيها كصبرتها نسجتم وجهها وتنقص شرها ، وتحرق ثوبها والعارف مشتمل بالله ،
لا يلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان النصرabadى يقول في مساجده : يا من حقن دماء الزاهدين ، وسفك
دماء العارفين !

وكان يقال : إن الله تعالى حمل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد ، وجعل
الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .



ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نسكتا ناقصة في هذا المعنى ، ونذكر
الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِنُ
جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَيُكْرِمُ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ فَلْيَصْمُتْ » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ^(١) .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ طمأ حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ ^(٢) .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا نَهْمًا ﴾ ^(٣) .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوتا عن الكذب والفتية ، وعبد سكت لاستيلا سلطان المهية !

وانشدوا :

أرتب ما أقول إذا افترقنا وأخيم دائما حجب التقال
فانسأها إذا عن التقينا أو أنطق حين أنطق بالحوال

وانشدوا :

فهايلكم من حاجد لي مهتد إذا جمعكم لم أدر بالليل ماها !

قالوا : وربما كان سبب الصمت والسكوت حيرة الهدية ! فإنه إذا ورد كشف بفتة ، خرست العبارات عند ذلك ، فلا يبان ولا نطق ، وطست الشواهد فلا علم ولا حس ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ^(٤) ، فأما إظهار أرباب المجاهدة الصمت قليا علوا في الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من خط النفس وإظهار صفات للدخ ، ولليل إلى أن يهيم من بين أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نعت أرباب

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .

(٣) سورة طه ١٠٨ .

(٤) سورة لائحة ١٠٩ .

الرياضة ، وهو أحد أركانهم في حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق .
ويقل : إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة ،
لأنه كان تلميذا له ويقعد بين أضراره من العلماء ، ولا يتكلم في مسألة على سبيل رياسته
نفسه ، فلما قويت نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد في بيته عند ذلك ،
وآثر العزلة .

ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه ، مزق
الكتاب وخبره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، فإذا أعجبك الصمت فحكّم .
وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا يصح
لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت

()

• • •

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ: ﴿ ٢٧ ﴾

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ^(٣) .

وقال أبو علي الدقاق : الخوف على مراتب : خوف ، وحشية ، وهيبة .

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياء ، قال الله تعالى : ﴿ قَلَّا نَخَافُكُمْ وَخَافُونَ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) .

والخشية من شروط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلُوكَ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة المجدة ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٥) سورة طه ٢٨ .

والهبة من شروط العرفة ، قال سبعمه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ^(١) .
وقال أبو عمر الدمشقي : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان .

وقال بعضهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، وَمَنْ خاف الله هَرَبَ إِلَيْهِ .
وقال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

ومنها الرجاء ، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحاً ؛ قال سبعمه :
﴿ مَنْ كَانَ بَرُّجَوْ لِقَاءِ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ ﴾ ^(٢) .

والفرق بين الرجاء والتسنى ، وكون أحدهما محموداً والآخر مذموماً ؛ أن التسنى
الآيسلك طريق الاجتهاد والجد ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التسنى يورث
صاحبه الكسل .

وقال أبو علي الرضوي : الرجاء والخوف كحفاصي الطائر ، إذا استويا
استوى الطائر وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر
في حدّ الموت .

وقال أبو عثمان الغبري : من حمل نفسه على الرجاء تمطل ، ومن حمل نفسه على الخوف
قنط ، ولسكن من هذا مرة ومن هذا مرة .

ومن كلام يحيى بن معاذ - يروي عن علي بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائي
لك مع الذنوب ، يملب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأنني أجدني أعتمد في الأعمال على

(١) سورة آل عمران ٢٨ .

(٢) سورة المكيث ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذروب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تنفرها وأنت بالجود موصوف .

• • •

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل التوك .
وقال أبو علي الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن في سنتين .

وفي الخبر النبوي صلى الله عليه وآله : « إن الله يحب كل قلب حزين » .
وفي بعض كتب النبوات القديمة : « إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائمة ، وإذا انفض هبداً جعل في قلبه ميزماراً » .
وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتواصل الأحران ، دائم الفسح .
وقيل : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن حزين : كأن الله إذا لم يكن فيها ما كن خربت .
وسمعت رابعة رجلاً يقول : وأحزنناه ! فقلت : قل واقنة حزنناه ! لو كنت محروما ما تيأت لك أن تنفّس !

وقال سفيان بن عيينة : لو أن محروما بكى في أمة ، لرحم الله تلك الأمة بيكاته .
وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحد من أصحابه يقول : إذا رأيت محروما فاقترنه عني السلام .

وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلا من أنه حديث عهد بمصيبة .
وقال وكيع يوم مات الفضيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .
وقال بعض السلف : أحكث ما يجده ^(١) مؤمن في صحيفته من الحسنات الحزن والمهم .

(١) ب : « يوحده » ، وما أنبته من أ .

وقال الفضيل : أدركت السلف يقولون : إن لله في كل شيء زكاة ، وزكاة العقل طول الحزن .

• • •

ومنها الجوع وترك الشهوات ، وقد تقدم ذكر ذلك .

• • •

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبحانه : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)^(١) . وفي الخبر النبوي عنه صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، قال رجل : يا رسول الله ، إن المرء كَيِّبٌ أن يكون ثوبه حياً ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ؛ إنما التكبير مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ ، وَغَصَّ النَّاسَ » .
وروى أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمود المريض ، ويشتم الجنائز ، ويركب الحمار ، ويحب دعوة المبد .

وكان يوم قَرَيْظَةَ والنضير على حمار مخطوم يحمل من ليف ، عليه إكاف من ليف . ودخل مكة يوم فتحها راكب بغير ، برّخل خلق ، وإن دقه لئس وسط الرّخل حصوما لله نالي وخشوما ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .

قالوا في حدّ الخشوع : هو الاتقياء للحق . وفي التواضع : هو الانسلاخ وترك الاعتراض على الحكم .

وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدي الحق بهم مجموع .

وقال حذيفة بن اليمان : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع .

وكان يقال: من علامات الخشوع أن العبد إذا أغضب أو خولف أورد عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه . فانت حواصه وحبي قلبه ، وتطامنت جوارحه . وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام النبوة ، قال الله تعالى: ﴿ وَهَبْ أَلْسِنَةً لِّلَّذِينَ يَمْنُونَ فَلَئَ الْأَرْضِ حَرْشًا ﴾ ، أي حاشمون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلاً متقيض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال: يا فلان ، الخشوع ها هنا - وأشار إلى صدره ، لا ها هنا - وأشار إلى منكبيه . ورؤي أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يثبت بلسنته في صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا خلعت جوارحه » .

وقيل: شرط الخشوع في الصلاة ألا يرف من على يمينه ، ولا من على شماله . وقال بعض الصوفية: الخشوع قشيرة ترد على القلب بفتة عند الحاجة كشف الحفيقة .

وكان يقال: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره . وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسعد إلا على التراب . وكان عمر بن الخطاب يسرع في المشي ، ويقول: هو أنجح الحاجة ، وأبعد من الزهو .

كان رجاء بن حيوة ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فصصف للمصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال: اجلس ، فليس من الكرم أن يستخديم للرء ضيقه ، فقال:

أنبه^(١) العلام ، قال : إنها أول نوم في ناسها ، ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء :
أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ! قال : قمت وأما عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر
ابن عبد العزيز .

وفي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يصف البعير
ويقسم البيت ، ويحصف النعل ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم .
ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنع الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله ،
وكان يصفح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئاً ، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف للتمر .
وكان هين المودة ، لين الخلق ، كريم السجية ، جميل المعاشرة ، مطلق الوجه ، ساماً من
غير صحك ، محزوناً من غير عبوس ، متواضعاً من غير ذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق
القلب ، رحياً لكل مسلم ، ما تحتها قط من شيع ، ولا مدة يده إلى طمع .
وقال الفصيح : أوحى الله إلى الجبال أي مكلم كل واحد منكم نيباً ، فتطاوت
الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب .
ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .
وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم يرى لنفسه مقاماً ولا حالاً ،
ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه .

وكان يقال : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنة لا يرحم منها ، والمز في
التواضع ، فمن طلبه في الكبر لم يحده .

وكان يقال : الشرف في التواضع ، والمز في التقوى ، والحرمة في القناعة .
يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد ؛ لسكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر
سيئ في كل أحد ، وسكنه في الفقراء أسخج .

وركب زيد بن ثابت ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عم رسول الله !
 فقال : إنا كذا أميرنا أن نعمل معاً ، فقال زيد : أرى يدك ، فأخرجها فقبلها ، فقال :
 هكذا أميرنا أن نعمل بأهل بيت نبينا .

وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه
 قرينة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنه لا ينبغي لثلك هذا ! فقال : إنه لما أتني الوفود
 سامعة مهادنة ، دخلت نفسي مخوة ، فأحببت أن أكسرها . ومعنى بالقربة إلى حجرة
 امرأة من الأنصار ، فأفرغها في إنائها .

أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة ، لم يلق حلاوة الخدمة .

يحيى بن حماد : التكبر على من تكبر عليك تواضع .

بشر الحافي : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمر بن عبد العزيز أن أساءة اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه : معنى
 أنك اشتريت خاتماً وقضته بألف درهم ، فإذا أنك كتبتني قبيح الخاتم ، وأشيع به ألف
 بطن ، واتخذ خاتماً من درهمين ، واجعل فضة حديدًا صديقاً ، واكتب عليه : « رحم الله
 امرأ عرف قدره » .

قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب أيام خلافته بأني عشر درهماً ، وهي : قباء ،
 وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وحفان ، وقنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما سررت قط سروري في أيام ثلاثة : كنت في سفينة ،
 وفيها رجل مضحك ، كان يلعب لأهل^(١) السفينة ، فيقول : كننا نأخذ العناج من بلاد
 الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسي فيهزني ، فسررت ذلك ، لأنه لم يكن في تلك السفينة
 أحقر مني في عينه . وكنت طليلاً في مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

(١) في الأصول : د أهل .

برجل وجرتني إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعلى قروء ، فظفرت إليه فم أميز بين الشعر وبين القتل لكثرة .

عرض على بعض الأمراء مملوك بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد : اشترى بأمولائي ، ففني خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن . قال : ما هي ؟ قال : لو قد متسنى على جميع ممالكك وخولقي بكل ممالك لم أغلظ في نفسي ، بل أعلم أني هبدك فاشتراء .

نشاكر أبو ذر وبلال ، فبدر أبو ذر بلالا بالتواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أبا ذر ، ما علمت أنه قد بقي في قلبك شيء من كبر الجاهلية . فالتقى أبو ذر نفسه ، وحلف ألا يحمل رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ؛ فارتفع رأسه حتى فعل بلال ذلك .

مر الحسن بن علي عليهما السلام بصبيان يلعبون موبين أيديهم كسر خبز يأكلونها ، فدعوه فزلا وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم ، لأنهم لم يحدوا غير ما أطعموني ، ونحن نحد أكثر مما أطعمناهم .

• • •

ومنها مخالفة النفس ، وذكر محبوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

• • •

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ وَاوْمَنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ ^(١) ، قال كثير من المفسرين : هي القناعة . وفي الحديث النبوي - وبالله إنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا يفقد » .

وفي الحديث النبوي أيضا : « مَن ورِعاً تَكُنْ عَبْدَ النَّاسِ ، وَكُنْ قَنوعاً تَكُنْ أَشْكُرَ النَّاسِ ، وَأَحَبَّ النَّاسِ مَاتِعِبَ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً ، وَأَحْسَنَ مَجَاوِرَةً مَّنْ جَاوَرِكَ تَكُنْ مُسْلِماً ، وَأَقْلَ الضَّحِكِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تَمِيتُ الْقَلْبَ » .
 وكان يقال : التَّقَرُّاءُ أَمْوَاتٌ إِلَّا مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَرْءٍ الْقَنَاعَةِ .
 وقال أبو سليمان الداراني : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا أول الرضا . وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .
 وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ^(١) ﴾ : إنه القناعة .
 وقال أبو بكر الرازي : العاقل مَن دَبَّرَ أَمْرَ الدُّنْيَا بِالْقَنَاعَةِ وَالنُّسُوفِ ؛ وَأَنْكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ خَلْفٍ ، فَقَالَ : الْقَنَاعَةُ تَرْكُ النَّسُوفِ بِالْمُنْقُودِ ، وَالِاسْتِغْنَاءُ بِالْمَوْجُودِ .
 وكان يقال : خرج المرء والغنى بمولان ، فلقها القناعة ، فاستقرأ .
 وكان يقال : مَن كَانَتْ قَنَاعَتُهُ مَتَبَعَةً طَابَتْ لَهُ كُلُّ مَرْقَةٍ .
 مرَّ أَبُو حَازِمٍ الْأَمْرَجُ بِقَصَبٍ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَقَالَ : لَيْسَ مَعِيَ حَرَمٌ ، قَالَ : أَنَا أَنْظِرُكَ ، قَالَ : هُمَّى أَحْسَنَ نِظْرَةً لِي مِنْكَ .
 وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع : المرء في الطاعة ، والعدل في العصية ، والهيبة في قيام الليل ، والحكمة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة .
 وكان يقال : اتَّقِمْ مِنْ فُلَانٍ بِالْقَنَاعَةِ ، كَمَا تَتَّقِمْ مِنْ فُلَانٍ بِالْقَصَاصِ .
 ذو النون للصري : مَن قَنَعَ اسْتِرَاعَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَاسْتَطَالَ عَلَى أَقْرَانِهِ .
 وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بِالْفَقْرِ مِنْ يَوْمٍ عَارٍ يُقَالُ بِهِ الْغِنَى ، كَرَمٌ وَجُوعٌ

ورأى رجل حكياً يأكل ما تسقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم تَحْتَجَّ إلى أكل هذا ، فقال : وأنت لو قنعت بهذا لم تَحْتَجَّ إلى خدمة السلطان .

وقيل : المُقَابِرُ في مطاره ، لا نسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع في جيفة عِلقت على حباله ، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة .
وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ، قال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ^(١) ، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ^(٢)
وفسر مفسر قوله : ﴿ هَذَا لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِندِي ﴾ ^(٣) ، فقال : مقاماً في القناعة لا ييلعه أحد .



وصها التوكل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٤)
وقال سهل بن عبد الله : أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى ، كالميت بين يدي الماسل ، يقبضه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَفِي خَزَائِنِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا كِيفَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال أصحاب هذا الشأن : التوكل بالقلب ، وليس بنافيه الحركة بالجسد ، بعد أن يتحقق العبد أن التقدير من الله ، فإن تضرر شيء فبتقديره ، وإن تسهل فبتقديره .

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨

(٢) سورة ص ٣٥ .

(٣) سورة الطلاق ٣ .

(٤) سورة النافلون ٧ .

وفي الخبر النبوي أنه عليه السلام قال للأعرابي الذي ترك ناقته مهملة فندت ، فلما قيل له ، قال : توكلت فتركتها ، فقال عليه السلام : « اعقل وتوكل » .

وقال ذو النون : التوكل الامحلاع من الحول والقوة ، وترك تدبير الأسباب وقال بعضهم : التوكل ردة الميش إلى يوم واحد بإسقاطهم غدري .

وقال أبو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل وهو أدناها ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص .

حاء رجل إلى الشئ يشكو إليه كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت .

وقال سهل بن عبد الله : من طمأن في التوكل فقد طمأن في الإيمان ، ومن طمأن في الحركة ، فقد طمأن في السنة .

وكان يقال : التوكل كالطفل لا يعرف خبثا يأوي إليه إلا يهتدى أمه ، كذلك التوكل لا يهتدى إلا إلى ربه .

ورأى أبو سليمان الداراني رجلا يملكه لا يتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم ، فمضت عليه أيام ، فقال له يوما : أرايت لو عارت - أي زمزم - أي شيء كنت تشرب ا فقام وقبل رأسه ، وقال : جزك الله حيرا حيث أرشدتني ؛ فلما قى كنت أعبد زمزم منذ أيام . ثم تركه ومضى .

وقيل : التوكل من الشكوك ، والتفويض إلى مالك الموك .

ودخل جماعة على الجنيد ، فقالوا : نطلب الرزق ؛ قال : إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله ذلك ، قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، قالوا : اندخل البيت فتوكل ، قال : التجربة شك ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقيل : التوكل الثقة بالله واليهاس عما في أيدي الناس .

•••

ومنها الشكر ، وقد تقدم منا ذكر كثير مما قيل فيه .

•••

ومنها اليقين وهو مقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا لَا يَعْلَمُ اللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ بِهِ وَيَسْرِ لَكُمْ إِلَهَاتُكُمْ وَالْآصْنَامُ أَكْثَرُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما اردت يقينا .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى إلى غير الله .

وذكر لهنى صلى الله عليه وآله ما يقال من عيسى بن مريم عليه السلام أنه مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لشي على الهواء .

وفي الخبر الرفوع عنه صلى الله عليه وآله ، أنه قال لعبد الله بن مسعود : « لا ترضين أحدا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدا على فضل الله ، ولا تدين أحدا على ما لم يؤتك الله . واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره ، وأن الله جميل الروح والفرج في الرضا واليقين ، وجميل المم والحزن في الشك والسخط » .

•••

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (٢) .

وقال علي عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وسئل الفضيل عن الصبر ، قال : تخرج المارة من غير تمبيس .

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

(١) سورة البقرة ٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٧ .

وقال علي عليه السلام : للصبر مطبة لا تكبو .

وقف رجل على الشبلي ، فقال : أي صبر أشد على الصابرين ؟ قال الشبلي : الصبر في الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فأى شيء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشبلي صرخة عظيمة ، ووقع . ويقال إن الشبلي حُبس في المارستان ، فدخل عليه قوم ، فقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا : محبوك جندك زائرین ، فرماهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبائي ، لصبرتم على بلائي .

وجاء في بعض الأخبار ، عن الله تعالى : يسبي ما يتحمل المتحملون من أحلى .

وقال مر بن الخطاب : لو كان الصبر والشكر ميراثين لم أهمل أيهما ركبت .

وفي الحديث للرفوع : « الإيمان الصبر والسخاء » .

وفي الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق والده ، والبر آخوه ، والصبر أمير جنوده ، قالوا : فناهيك بشرف خصلة تتأثر على هذه الخصال ! والمعنى أن الثبات على هذه الخصال واستدامة التخلق بها إنما يكون بالصبر ، فلذلك كان أمير الجنود .

ومنها المراقبة ، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله : أن سائلا سأله عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم للعبد باطلاع الرب عليه ، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحق ، وهو أصل كل خير ، ولا يسكاد يصل^(١) إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت ،

(١) كذا في ١ ، وفي ٢ : « يوصل » .

ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس ، راقبه تعالى في عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله . وَمَنْ تَعَاوَلَ عَنْ هَذِهِ الْجِلَّةِ ، فَهُوَ يَعْزِلُ عَنْ بَدَايَةِ الْوَصْلَةِ ، فكيف عن حقائق القربة !

ويعكى أن ملكا كان يتعطف جارية له ، وكان لوزيره ميل باطن^١ إليها ؛ فكان يسمى في مصالحتها ، ويرجح جانبها على جانب غيرها من حفاظا الملك ونسائه . فاتفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْنِ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ : أحدهما أغص من الآخر ، فمضى من وزيره ، فتعبرت أيها تأخذ ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس ، وحانت من الملك التفتنة ، فشهد بين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب ، فدى الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذي كان طرفه مائلا إليه ذلك اليوم ، أى كان^(١) ذلك خيفة . وهذا عزم قوى في المراقبة ، ومثله فليكن حال من يريد الوصول .

ويعكى أيضا أن أميرا كان له غلام بقيل عليه أكثر من إقباله على غيره من عماليكه ، ولم يكن أكثر مقيمة ، ولا أحسن صورة ، فقيل له في ذلك ، فأحب أن يبين لهم فصل العلام في التلذذة على غيره ، فكان يوما راكبا ، ومعه حشمه ، وبالهدم منهم حبل عليه تلج فنظر الأمير إلى التلج وأطرق ، فركض العلام فرسه ، ولم يعلم العلام لماذا ركض ! فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء ومعه شيء من التلج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى أردت التلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون إلا عن قصد . فقال الأمير لخدمته : إنما اختصه بكرامى وإقبالى ، لأن لكل واحد منكم شغلا ، وشغل مراعاة الخطاى ، ومراقبة أحوال .

وقال بعضهم : من راقب الله في خواطره ، عصمه الله في حوارجه .

ومنها الرضا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه ، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والمواحش ، أو سببها إلى الرب تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ^(٢) .

قال روبم : الرضا أن لو أدخلك هم لم سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد راضياً ؟ قال : إذا مرتته للصيبة ، كما مرتته للنصة .

قال الشهلي مرة - والجنيد حاصر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى أن قولك هذا ضيق صدر ، وضيق الصدر يحى من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارني : الرضا ألا تسأل الله الجنة ، ولا تسميذ به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ فِي الْأَصْدَقَاتِ فَإِنْ أَغْلُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُغْلُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴾ ^(٣) .

ثم نبه على ما حرّمه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ^(٤) ، وجواب « لو » هاهنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به .

(٢) سورة الإسراء ٣٨ .

(١) سورة الزمر ٢ .

(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩ .

وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « لرضى الله عنهم » ، ولما كان رضا من عباده مقاماً جليلاً جداً حذف ذكره ؛ لأن الله ذكره لا ينسئ عن كنهه ، وحقيقة فضله ، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلى الله عليه وآله قال : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنما قال : « بعد القضاء » لأن الرضا قبل القضاء لا يتصور ، وإنما يتصور توطين النفس عليه ، وإنما يتحقق الرضا بالشئ بعد وقوع ذلك الشئ .

وفي الحديث أنه قال لا ين عباس بوصيه : « اعمل لله باليقين والرضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإن في الصبر على ما تكره جبراً كثيراً » .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الذي بلغ بك سأري ؟ قل : المرض والحاجة ، قال : أولا أعطاك كلاماً إن أت قلت أذهب الله عنك ما بك ؟ قال : وأقدي نفسي بيده ما يسرني بحمل منها أن شهدت معك بدرأ والحديبية ؟ قال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بدر والحديبية ما للراضى والقانع ؟ »

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر والرضا .

قدم سعد بن أبي وقاص مكة بعد ما كفت بصره ، فأتاه الناس عليه يسألونه الدماء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عم إنك تدعو للناس فيستجاب لك ، هلا دعوت أن يرد عليك بصرك ؟ فقال : يا بن أخي ، قضاء الله تعالى أحب إلي من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر .

وكان يقال : الرضا أطراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القدر حقاً كان سخطه حقاً .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِي . ومن أطرح الاقتراح ، أفلح واستراح .
وكان يقال : كُنْ بِالرِّضَا عَامِلًا ، قبل أن تكون له معمولًا ، وسر إليه عادلًا وإلا
سرت نحوه معدولًا .

وقيل للحسن : من أين أتيت الخلق ؟ قال : مِنْ قَلَّةِ الرِّضَا عَنْ اللَّهِ ، فقيل : ومن أين
دخلت عليهم قَلَّةُ الرِّضَا عَنْ اللَّهِ ؟ قال : مِنْ قَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ
وقال صاحب^(١) " سلوان الطامع " في الرضا^(٢) :

يا مفرغى فيا يحس وراحي فيا مغي
عندي لما تقصيه ما برضيك من حسن الرضا
ومن القطيعة أشتبهت مصر حاومر رضا
وقال أيضا^(٣) :

كن من مدبرك الحكيم قلا وجبل على وجل
وارض القضاء فإنه حتم أجل ، وله أجل
وقال أيضا^(٤) :

يا من يرى حاله وأن ليس له في غير قرى منه أوطار^(٥)
وليس له ملتحد دونه ولا عليه لي أصار
حاشا لذل العز والفضل أن يهلك من أنت له جار
ولن تشأهلكي فهب لي رضا بكل ما تقضى وتختار

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن ظفر المكي ، المتوفى سنة ٥٦٥ .

(٢) سلوان الطامع ص ٦٦

(٣) سلوان الطامع ص ٦٦

(٤) سلوان الطامع ص ٦٦ ، ٦٧

(٥) في سلوان الطامع : في غير ما يرضيه أوطار .

عندى لأحكامك يا مالكي قلب كما أمنت صباراً^(١)
كل عذاب منك مستمدبٌ مالم يكن سخطك والنار^(٢)

• • •

ومنها المبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التعبد والتذلل ، قالوا : العبادة للعوام
من المؤمنين ، والعبودية للخواص من السالكين
وقال أبو على الدقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين .
وسئل محمد بن خميف : متى تصح المبودية ؟ فقال : إذا طرح كله على مولاه ،
وصبر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبودية معاقبة ما أمرت به ، ومفارقة ما زجرت عنه .
وقيل : العبودية أن تسلم إليهم كفاك ، ويحمل عليه كفاك .
وفى الحديث الرفوع : « تسب عبد الديار ، وتسب عبد الطبيعة » .
رأى أبو يزيد البسطامي رجلاً ، فقال له : ما عرفتك ؟ قال خرّ بنده ، قال : أمان الله
جارك ؛ لتكون عبداً لله ، لا عبداً للعباد .

وكان بعداد فى رباط شيخ الشيوخ ، صوفى كبير اللحية جداً ، وكان مفرى ،
ومعنى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرحها ، ويحملها ليلاً عند نومه فى كبس ، فقام بعض
المریدین إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصريم .
وأصبح الصوفى شاكياً إلى شيخ الرباط ، فجمع الصوفية وسألهم ، فقال المرید : أما قصتها ،
قال : وكيف فعلت ، وبلك ذلك ! قال : أيها الشيخ ، إنها كانت صمته ، وكان يعبدها
من دون الله ، فأكرت ذلك بقلبي ، وأردت أن أجعله عبداً لله لا عبداً للتحية .

(١) هذا البيت ساقط من المصنوع .

(٢) فى المصنوع : بسخطك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في ذكر النبي صلى الله عليه وآله آية للمراج ، وكان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ^(٢) ؛ فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به .
وأشدوا :

لاندعنى إلّا يساعدها فهذه أشرف أناني

ومنها الإرادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(٣) .

قالوا : الإرادة هي بدء طريق السالكين وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله ، وإنما سُميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا الشأن أول الأمور من تلك طريق الله متى إرادة ، تشيهاً له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدمتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق : مَنْ له إرادة ؛ ولكن المريد في هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له ، فما لم يتحرّد عن إرادته لا يكون مريداً ، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً .

وقد اختلفوا في المراتب الثلاثة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم ، فقال بعضهم : الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب التعرّيج على أوطان العقلة ،

(١) سورة الإسراء : ١ .

(٢) سورة النجم : ١٠ .

(٣) سورة الأنعام : ٥٢ .

والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاق إلى مادت إلى النية ، والمريد هو المتسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادة نهوض القلب ، في طلب الرب ؛ ولهذا قيل : إنها لومة تهوتن كل روعة .

وقال : أبو علي الدقاق : الإرادة لوعة في الفؤاد ، ولذعه في القلب ، وغرام في الصمير ، وانزعاج في الباطن ، ونيران تأجج في الفلوب .

وقال عمشاذ الدينوري : طبعت أن أحوال الفقراء جيد كملها لم أمارح فقيراً ، وذلك أن فقيراً أقدم على ، فقال : أيها الشيخ ، أريد أن تتعذلي عصبدة ، فخرى على لاني «إرادة وعصبدة» ، فآخر الفقير ولم أشعر ، فأمرت باتخاذ عصبدة ، وطلبت فلم أحده ، ففكرت خبره ، فقبل : إنه انصرف من موره ، وهو يقول «إرادة وعصبدة» ، وإرادة وعصبدة ، وهام على وجهه ، حتى خرج إلى البادية ، وهو بكسر هذه الكلمة ، مما زال يقول ويرددها حتى مات .

وحكى بعضهم ، قال : كنت بالبادية وحدي . فصاق صذري ، فصحت : يا إلهي كلموني ، يا جن كلموني ، فهتف هاتف : أي شيء ناديت ؟ قلت : الله ، فقال الهاتف : كذبت ، لو أردته لما ناديت إلاس ، ولا الجن .

فالمريد هو الذي لا يشغله عن الله شيء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار ، فهو في الظاهر بمنزلة المجاهدات ، وفي الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ، ولازم الانكماش ، وتحمل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانى الأهوال ، وفارق الأشكال ، فهو كما قيل :

تم قطعت الليل في مهمل لأسلأ أخشى ولا ذيباً

بمخفى شوقى فأطوى الشرى ولم يزل ذو الشوق مضطرباً
وقيل : من صفات المريدين التصبب إليه بالتوكل ، والإخلاص فى نصيحة الأمة ،
والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإبصار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل
المجهود فى محبته ، والتعرض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة بالتحول ، وعدم الفرار من
القلب ، إلى أن يصل إلى الرب .

وقال بعضهم : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكثرة الحديث ، والأسفار .
وقيل : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وأكله فاقة ،
وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيصدم مع الإشارة ، قيل له : وأى
شئ يستوعب الإرادة ؟ فقال : أن يحمل الله بلا إشراك .

وسئل الحنيد : ما للمريدين وجميع القصص والحكايات ؟ فقال : الحكايات جرد
من جند الله تعالى ، يقوى بها قلوب المريدين . فقبل له : هل فى ذلك شاهد ؟ فتلا قوله
تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَنِّيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّيْتُ بِرَفْءِ أَدَاكِ ﴾ ^(١) .

وقال أصحاب الطريقة : بين المريد والمراد فرق ، فالمريد من سلك الرياضة طلباً
للوصل ، والمراد من فاضت عليه العناية الإلهية ابتداءً ، فكان محطوباً لا خاطباً ، وبين
الخاطب والمحطوب فرق عظيم .

قالوا : كان موسى عليه السلام مريداً ، قال : ﴿ رَبِّ أُنْشِخْ لِي صَدْرِي ﴾ ^(٢) وكان
محمد صلى الله عليه وسلم مراداً ، قال له : ﴿ أَلَمْ تُنْشِخْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ^(٣) ؛ وسئل الجليل عن

(١) سورة هود ١٢٠ .

(٢) سورة طه ٢٥ .

(٣) سورة الفرق ١ .

المرید والمراد ، قتل : المرید سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحق السائر الطائر !
أرسل ذو النون للمصري رجلاً إلى أبي يزيد ، وقال له : إلى متى النوم والراحة !
قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخي : الرجل من بنام الليل كله ، ثم يصبح
في المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هبنا له ! هذا الكلام لا تهلفه أحوالنا .

وقد تكلم الحكماء في هذا المقام ، فقال أبو علي بن سينا في كتاب "الإشارات" :
أول درجات حركات العارفين ما يسمونه "م" الإرادة ، وهو ما يعتري المتقصر باليقين
البرهاني ، أو الساكن النفس إلى العقد الإيماني ، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى ،
فيتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه ،
فهو مرید .

ثم إنه لمحتاج إلى الرياضة والروضة : طوعة إلى ثلاثة أعراض :

الأول : تنقية ماديون الحق من سائر الإشارات .

والثاني : تطهير النفس الأتارة لنفس الطمئنة ، لتنجذب قوى التخليل والوهم إلى
التوهمات المناسبة للأمر القدسي ، منصرفاً من التوهمات المناسبة للأمر السفلي .
والثالث : تلطيف السر لنفسه .

والأول يعين عليه الزهد الحقيقي ، والثاني يعين عليه عدة أشياء : العبادة المشقوقة
بالفكرة ، ثم الألحان المستعدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول
من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي ، بمهارة بليغة ، ونعمة رخيمة ،
وسمير رشيد . والثالث يعين عليه المكر الطفيف ، والمشق العفيف ، القدي تكأثر فيه
شمائل العشوق ، دون سلطان الشهوة

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدوام والاستمرار على الحال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ^(١) .

وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة ، قال : قد ذكر الله ذلك في كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَدْنِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث للرفوع : « شَيْئَتْنِي هُود » ، فقبل له في ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا ﴾ ^(٤) ، فلم يقل « سقيهم » بل « أسقيهم » ، أي جعلنا لهم سقيا دائمة ، وذلك لأن من دام على الخدمة دامت عليه النعمة .

ومنها الإخلاص ، وهو إيراد الحق خاصة في الطاعة بالقصد والتقرب إليه بذلك خاصة ، من غير داء ومن غير أن يمازحه شيء آخر من تصنع لخلق ، أو اكتساب تحميدة بين الناس ، أو تحية مدح ، أو مدح من الناس ، ولذلك قال أرباب هذا الفن : الإخلاص نصفية العمل من ملاحظة المخلوقين .

وقال الخواص من هؤلاء القوم : نقصان كل مخدع في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاص عبدا سقط من إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصا لا مخلصا .

وجاء في الأثر عن مكحول : ما أحاط عبدا لله أربعين صباحا ؛ إلا ظهرت بينايم الحكمة من قلبه على لسانه

(٢) سورة النحل ٩٢
(٤) سورة الجن ١٦ .

(١) سورة ص ٣٠ .
(٣) سورة هود ١١٢ .

ومنها الصدق ، وبطاق على معنيين : تحب الكذب ، وتجنب الرياء ، وقد تقدم القول فيهما .

• • •

ومنها الحياء ، وفي الحديث الصحيح : « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » .
وفي الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ^(١) ، قالوا : معناه ألم يستحي !

وفي الحديث أنه قال لأصحابه : « استمعوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا لنستحي ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استعيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر ثلوث طول الليل ، وليترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استعيا من الله حق الحياء » .

وقال ابن عطاء : العلم الأكبر المهبة والحياء فإذا ذهبا لم يبق خير .
وقال ذو النون : الحب ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يثقل .
وقال السري : الحياء والأس بطرقة القلب ، فإن وجد فيه الزهد والورع حقا ، وإلا رَحَلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقى الدين ، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمرءة حتى فنيت المرءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قل الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرغبة .

وقال الفضيل : خسر من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجهود المين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

وفسر بعضهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَّ وَهَمٌ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾^(١) أنها كان لها ضم في زاوية البيت ، فمضت فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ما هذا ؟ قالت : أستعني منه ، قال : فأنا أولى أن أستعني من الله !

وفي بعض الكتب القديمة : ما صنعتني عهدي ايدعوني فاستعني أن أأرده ، وبمصنفي وأنا أراه ، فلا يستعني مني .

• • •

ومنها الحرية ؛ وهو ألا يكون الإنسان بقلبه رقاً شيء من المخلوقات ؛ لا من أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لا يستره عاجل دنيا ، ولا آجل مآ ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرب .

قال له صلى الله عليه وآله بعض أصحاب الصفة : قد مررت نقيي يا رسول الله من الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها وحجرها . قال : صرت حراً .

وكان بعضهم يقول : لو صحت صلاة بمر قرآن ، لصحمت بهذا البيت :
أغنى عني الزمان^(٢) محالاً أن ترى مقلتي طلعة حمر^(٣)
وسئل الجنيد عن لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مصر نواة فقال : المكاتب عهد ما بقي عليه درهم .

• • •

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾^(٤) .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) ب : « من الزمان » ، وما أثبت من .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال : ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأركاها عند خالقكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير من إعطائكم للذهب والفضة في سبيل الله ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » ، قالوا : ما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله » .

وفي الحديث للرفوع : « لا تقوم الساعة على أحدٍ يقول : الله الله »

وقال أبو علي الهذلي : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنصور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : ذكر الله تعالى بالقلب سيف للريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم ، وإن الهلاك إذا أظلم المبدع ففرع بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه .

وفي الخبر للرفوع : « إذا مررتُم رياض الجنة فارتعوا فيها » ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

وفي الخبر للرفوع : « أما حليسٌ من ذكرني » .

وسمع الشبل وهو يُنشد :

ذكرتك لا أني سبتك لحنة	وأبسر ما لي الله ذكر ذكر لسان
فكلمت بلا وجدي أموت من الهوى	وهمام على القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد أنك حاضري	شهدتك موجوداً بكل مكان
تخطبت موجوداً بغير تكلم	ولاحظت معلوماً بغير بيان

ومنها الفتوة ، قال سبطهاته غمراً عن أصحاب الأصنام (قَالُوا تَتَّبِعُونَ فِتْنًا يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ)^(١) .

وقال نسائي وأصحاب الكهف : (إِيَّاهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذَّاهُمْ هُدًى)^(٢) .
وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي ؟ فقال بعضهم : الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

وقالوا : إنما هف للثك يوم أحد بقوله .

لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي

لأنه كسر الأصنام ، فسمى بما سمي به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجمعها جُذَازاً .
قالوا : وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه قد كسر صنمته ، فاستحق أن يطلق عليه لفظ الفتوة .

وقال الخارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تُنْتَصَف .

وقال عهده بن أحمد بن حنبل : سئل أي من الفتوة ، فقال : ترك ما نهوى لما نهى .

وقيل : الفتوة ألا تدخر ولا تستدر .

سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ما تقول أنت ؟ قال : إن أعطيتنا شكرنا ، وإن مُنِعنا صبرنا . قال : إن الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أعطيتنا آثرنا ، وإن مُنِعنا شكرنا .

• • •

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .

(٢) سورة الكهف ١٣ .

ومنها الفراسة ، قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ذَلِكَ لَا بَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(١) .
 أى للمتفرسين . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لا تخطئ » .
 قيل : الفراسة سواطع أنوار لمحت في القلوب ، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهداها
 الحق بإها ، وكل من كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة .
 وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى معها صاحبها إلى المشاهدة .



ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين ، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال :
 ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) .
 وقيل له صلى الله عليه وآله : أى للزمن أفضل إيماناً ؟ فقال : أحسنهم خلقاً ،
 وبأنخلق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بحلقه مشهور بمخلقه .
 وقال بعضهم : حسن الخلق استعصار ما منك ، واستعظام ما إليك .
 وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إلكم كنتم تشعرون الناس بأموالكم ، فمعوهم
 بأحلافكم » .

قيل لدى النون : من أكر الناس هم ؟ قال : أسوأهم خلقاً .
 وكان يقال : ما تخلق أحد أرسن صباحاً بمخلق إلا صار ذلك طبيعة فيه .
 قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَنَبَأُكَ فَطَمَرٌ ﴾ ^(٣) أى وخلقك لحسن .
 شتم رجل الأحنف بن قيس ، وجعل ينبعه وبشتمه ، فلما قرب الحى وقف ، وقال :
 يا فتى ، إن كان قد بقى في قلبك شيء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحى فيحبوبك .

(١) سورة الحجر ٧٥ .

(٢) سورة القلم ٤ .

(٣) سورة النور ٤ .

وبقال : إن معروفًا الكرخي^(١) نزل دجلة لبسبح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتها ، فتبعها ، وقال : أما معروف الكرخي ، فلا بأس عليك ! أله ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : أفلك بمل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الثياب . قيل لبعضهم : ما أدب الخلق ؟ قال : ما أدب الله به نبيه في قوله : ﴿ خُذِ الصُّفُوفَ وَأَمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٢) . يقال : إن في بعض كتب النبوات القديمة : يا عهدي اذكرني حين تعصب ، اذكرني حين أغضب .

قالت امرأة لما لك بن دينار : يا مرأتى اتقال : لقد وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة .

قال بعضهم - وقد مثل من علام سوءه : ﴿ لَمْ يَمْسِكْهُ ﴾^(٣) قال : أنعم عليه الخلم . وكان يقال : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : الخليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَسَخَّ عَنْكُمْ نِعمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾^(٤) : الظاهرة نسوة الخلق ، والباطنة نصية الخلق .

الفضيل : لأن يصعبني فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصعبني عابد سيء الخلق .

خرج إبراهيم بن آدم إلى بعض البراري ، فاستقده جندي فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى القبرة ، فضرب رأسه فشجّه وأدماه ، فلما جاوزه قيل له : إن ذلك إبراهيم بن آدم

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .

(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهد خراسان فردا إليه يعتذر . فقال إبراهيم : إنك لما ضربتني سألت الله لك الجنة . قال : لم سألت ذلك ؟ قال : علمت أني أوحى على ضربك لي ، فلم أرد أن يكون نصيب منك الخير ، ونصيبك مني الشر .

وقال بعض أصحاب الجنييد أقدمت من مكة ، فبدأت بالشيخ كي لا يقمى إلى ، فسلمت عليه ، ثم مضيت إلى منزل ، فلما صليت الصبح في السعد ، إذا أنا به خلق في الصف ، قلت : إنما جئتكم أميس لثلاثين فقال : ذلك فضلك ، وهذا حقك . كان أبو ذر قلى حوض يسقى إليه ، فزاحه إنسان فكسر الحوض ، فجلس أبو ذر ثم اضطجع فقبل له في ذلك ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع .

دعا إنسان بعض مشاهير الصوفاة إلى ضيافته ، فلما حضر باب داره رده واعتذر إليه . ثم قبل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصور لا ينصب ، ولا يضجر ، فدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخلق ، فقال : إنما نعدحن على خلقي تجمد مثله في الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته ازجر .

مر بعضهم وقت المهاجرة بسكة ، فالتقى عليه من سطح طست رماد ، فنضب من كان في صحبته ، فقال : لا تنضبوا ، من استعق أن يصب عليه النار فصول على الرماد ، لم يجر له أن ينضب .

كان لبعض الخياطين جار يدفع إليه ثيابا فمخيطها ، ويدفع إليه أجرها دراهم زبوا ، فيأخذها ، فقام يوما من حانوته ، واستخلف ولده ، لحاء الجار بالدرهم الزائفة ، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها ، فأبدلها بدرهم جيدة ، فلما جاء أبوه دفع إليه الدرهم ، فقال : ويحك ! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضر الدرهم زبوا ، فردتها فأحضر هذه ،

فقال : بئس ما صنعت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه ، وألقيها في
بئر ، كي لا يفرّ غيري بها !

وقيل : الخلق السيّء هو أن يصيب قلب الإنسان عن أن يتسع لغير مآربه النفس
وتؤثره ، كالسكان الضيق لا يسع غير صاحبه .

وكان يقال : من سوء الخلق أن تقف على سوء خلق غيرك وتنبه به .
قيل لرسول الله : ادعُ الله على المشركين ، فقال : « إنما بعثت رحمةً ،
ولم أبعث عذاباً » .

دعا على عليه السلام غلاماً له مراراً ؛ وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع
يا غلام ! قال : بلى ، قال : فما جعلك على ترك الجواب ؟ قال : أمتي لعقوبتك ، قال : اذهب
فأنت حرّ .



ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على أموركم
بالكتمان » .

وقال السري : علامة الحب الصبر والكتمان ، ومن باح بسرنا فليس منا .
وقال الشاعر :

كتمتُ حُبَّكَ حقَّ مِنْكَ نَكِيرَةً ثم استوى فيك إسراري وإعلاني
كأنه غاض حقّ قاض عن جَسَدِي فصار سقي به في جسم كِتَابِي
وهذا ضدّ ما يذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عنز لأصحاب السرّ والإعلان .
وكان يقال : المحبة قاضعة ؛ والجمع تَمَام .

وقال الشاعر :

لا جَزَى الله دمع عيني خَيْراً وجزى الله كلَّ خيرٍ لَمَانِي

فاض دمي فليس بكم شيئا ووجدتُ اللسانَ ذا كتمان
يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتمان ما يطلع عليه من الحال ، فلما شاهد
الأمر غلب ، فكان يطلع في بئر في موضع خالٍ ، فيحدثها بما يشاهد ، فثبتت في تلك البئر
شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ ، كما يحكي الصدا كلام المتكلم ، فأسقط
بذلك من ديوان الأولياء .

وأشدوا :

أبدا تمنى إليكم الأرواح ووصالكم ربحاتها والراح
وقلوب أهل وداكم تشاقكم وإلى لقاء جالك تروح
وارحة للماضين تمسكوا ثقل الخسة والهوى فصاح
بالسر إن باعرا تباح ومازمت جعدا دماء البائعين تباح
وقال الحسين بن منصور الجلاجي :

إني لأكتم من على جواهره كي لا يرى العلم ذو جهل فوفيتنا
وقد تقدمني فيه أبو حسن إلى الحسين ، وأوصى قلبه الحسن
يارب مكنون علم لو أبوح به ثقل لي أنت ممن بعد الوثنا
ولاستعمل رجال صالحون دمي يرون أقبع ما يأتونه حسا

• • •

ومنها الجود والتعاضد والإيثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١) :

وقال النبي صلى الله عليه وآله : اتخى قريبا من الله ، قريبا من الناس ،

والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيدٌ من الناس. وإنَّ الجاهلَ السخىَّ أحبُّ إلى الله من العابدِ البخيلِ. قالوا : لا فرق بين الجود والسَّخاء في اصطلاح أهل العربية ، إلا أنَّ الباري سبحانه لا يوصف بالسَّخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عَقِيب التردد في ذلك ، وأمَّا في اصطلاح أرباب هذه الطريقة ، فالسَّخاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء ، ومن أعطى الأَكْثَرَ وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود ، والذي قامى الضَّرَّاء وآثر غيره بالْبُلْغَةِ فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن حارِجة المزاري : ما أحبُّ أنْ أَرِدَ أحداً من حاجة طلبها ؛ إن كان كريماً صُنْتُ عِرْصَةً عن الناس ، وإن كان لثيماً صُنْتُ عنه مرضى .

كان مؤزق المعلِّ يقاطف في برِّ إخوانه ، يضع عندهم المحرَّم ، ويقول : امسكوها حتى أعود إليكم ، ثم يرسل إليهم : أنتم منها في حلٍّ .

وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول

وكان أبو الحسن البوشنجي في الخلا ، فدعا تلميذاً له ، فقال اخرج معي هذا القصيص وادعه إلى فلان ، فقيل له : هلا صبرت ! فقال : لم آمن على نفسي أن تغير على ما وقع لي من التخلُّق معه بالقصيص .

رُئِيَ على عليه السلام يوماً باكياً ، فقيل له : لم تبكي ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهانني .

أصاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن قرأه ، فلما أراد أن يرتحل لم يمنه غلامانه . فسئل عن ذلك ، فقال لهم إنما يصنون من نزل علينا ، لا من ارتحل عنا .

• • •

ومنها الغيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحدٌ أغيرُ من الله ، إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته » .

وفي حديث أبي هريرة : « إِنَّ اللَّهَ لِيَغَارُ وَإِنَّ التَّوَّابِينَ لِيَغَارُوا » .

قال : والمعبرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقلك .

وقيل : الغيرة الألفية والحية .

وحكى عن السري أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةٍ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ .

فقال لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغيرة ، ولا أحد أعبر من الله .

قالوا : ومعنى حجاب الغيرة ، أنه لما أمر الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو علي الدقاق : إن أصحاب الكسل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان ، فاختر لم البعد ، وأخروهم من كحل القرب ، وقدك تأخروا .
وفي معناه أنشدوا فقالوا : -

أَنَا صَبٌّ مِنْ هَوْبَةٍ وَلَكِنْ مَا أَحْيَا لِي فِي سُوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي !

وفي معناه قالوا : سقيم لا بقاء ، ومريد لا يراد .

وكان أبو علي الدقاق : إذا وقع شيء في خلال المجلس بشوش قلوب الحاضرين ، يقول : هذا من غيرة الحق ؛ يريد به ألا يتم ما امتناه من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا في معناه :

قَهْتُ بِأَتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَاةِ نَهَاهَا وَجْهُهَا الْحَسَنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن نراه ؟ قل : لا ، قبل : لم ؟ قال أنزه ذلك الجلال عن

نظر مثل . وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَلَىكَ حَتَّى أَغْضُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ

وأراك تخطِر في شماتتك التي هي فتنى ، فأغار منك عليكاً

وسئل الشَّيْطَانُ : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أرك ذاكراً .

وقال أبو علي الدقاق في قول النبي صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابي

وأنه استغاله فأقاله ، فقال الأعرابي : عرك الله ، من أنت ؟ قال صلى الله عليه وآله :

« أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعض الصحابة من الحاضرين للأعرابي : كفاك جفاءً ،

ألا تعرف نبيك ؟ فكان أبو علي يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غيرةً ونوعاً

من الأنفة ، وإلا فقد كان الواجب عليه أن يعرف لكل أحد أنه من هو ، لكن

الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله : « كفاك جفاءً

ألا تعرف نبيك ! »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحد من المخلوق لا تحقق في قلبك توجب للأخرة

منه تعالى .

أذن الشَّيْطَانُ مرة ، فلما انتهى إلى «شهادتين» ، قال : وحقك لولا أنك امرئتي

ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجلٌ رجلاً يقول : جلَّ الله ! فقال له : أحب أن تجمه من هذا .

وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من

خُرْط الأذن .

وقيل لأبي الفتح السهروردي - وقد أخذ بحلب ليصل على خشبة : ما الذي

أباحهم هذا منك ؟ قال : إن هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكاً لله في الربوبية ،

فلم أفعل ، فقتلوني .

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) ، فاستوقف من عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصلاح .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَحْمِلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) ، فبحث على تأكيد الرجاء بقوله : ﴿ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

ولما فوض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله وقاه ﴿ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) كما ورد في الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحق سبحانه ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) ، فأسس التفويض ولها بحث عليه هو اعتقاد المحرر عن مغالبة القدر ، وأنه لا يكون في الخير والشر - أعني الرخص والصحة وسعة الرزق والبلايا ، والأمراض والعِلل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبي صلى الله عليه وآله في التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقُلْ حُكْمُك ؛ ما قدر أناك وما لم يقدِرْ لم يَأْتِك ؛ ولو جهد الخلق أن ينفَعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » .

(٢) سورة النساء ١٩ .
(٤) سورة التوبة ٥١ .

(١) سورة البقرة ٢١٦ .
(٣) سورة طه ٤٥ .

وفي صحيح مسلم بن الحجاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له : « فإن أصابك شيء فلا تقل : لو فعلت كذا لكان كذا ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان ، ولكن قل : ما قدر الله وما شاء فعل » .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن البراء بن عازب : « إذا أخذت مضجعتك قل كذا... » إلى أن قل : « وجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا ملجأ منك إلا إليك » .

وكان يقال : معارضة المريض طبيبه ، توجب نذيبه وكان يقال : إنما الكيس الماهر من أمسى^(١) في قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت معاملة القدر مستحيلة ، فما من أعوان تقوده إلى الهيلة .
وكان يقال : إذا التبت المصادر ، تقو من إلى القادر .
وكان يقال : من الدلالة على أن الإنسان مصرف مطلوب ، ومدبر مربوب ، أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب ، ويمشي عليه الصواب المطلوب .
وإذا كان كذلك ، فرتما كان تدميره في تدميره ، واغتياله من احتياله ، وهلكته من حر كته .

وفي ذلك أشدوا :

أبا مَنْ يَحوُلُ في الشِّكَايَاتِ	قَلَى مَارَآءَ وَمَا دَبَّرَهُ ^(٢)
إذا أَعْضَلَ الْأَمْرُ فَاغْزَعْ بِهِ	إِلَى مَنْ يَرَى مِنْهُ عَالَمَ تَرَهُ
تَكُنْ بَيْنَ عَظْفٍ يَقيِلُ الْخَطُوبَ	وَلَطْفٍ يَهْوِي مَاقْصِدَهُ
إذا كُنْتَ فَجْهَلٌ عَشَى الْأُمُورِ	وَمَتَّكَ حَوْلَ وَلَا مَقْدَرَهُ
فَلَيْمَ ذَا لَمَنَّا ، وَعَلَامَ الْأَمْسَى	وَمِمَّ الْحِجَارِ ، وَفِيمَ الشَّرَةِ أ

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « استسلم » .

(٢) الأبيات لأبي ظهير ، وهي في كتابه سلوان للضاح .

وأنشدوا في هذا المعنى :

يَا رَبِّ مُغْتَبِطٌ وَمُعْبُوطٌ بِأَمْرِ فِيهِ هُنُكَةٌ (١)
وَمُنَافِسٌ فِي مُلْكٍ مَا يُشْقِيهِ فِي الدَّلِيلَيْنِ مُلْكُهُ
عَلَّمَ الْمِرَاقِبَ دُونَهُ سِتْرٌ ، وَلَيْسَ بِرَأْمٍ هَتِكُهُ
وَمُعَارِضُ الْأَقْدَارِ هَالِ آرَاءُ سَوَى الْحَالِ خُنُكُهُ
فَكُنْ أَمْرًا مَحْصَنَ الْبَيْتِ نِ وَزَيْفَ الشُّبُهَاتِ سَبْكُهُ
تَفْوِضُهُ تَوْحِيدُهُ وَعِنَادُهُ الْمُقْدَارِ شِرْكُهُ

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيها
ومنها الدعاء ، والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ اذْعُوْنِي اُحْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢)
وفي الحديث المرفوع : « الدعاء مع العبادة » .

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ،
ومستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطربين ، ومتنفس ذوي المآرب .
وقد ذم الله تعالى قوما فقال : ﴿ وَبَغِيضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (٣) ففسروه وقالوا : لا يمدونها
إليه في السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التستري : خلق الله الخلق ، وقال : تاحروا في ، فإن لم تفعلوا
فاسمعوا مني ، فإن لم تفعلوا فكونوا بياني ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي .
قالوا : وقد أنشأ الله على نفسه ، فقال : ﴿ أَمَنْ يُحِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (٤) ، قالوا :
الدعاء إظهار فاقة العبودية .

(٢) سورة غافر ٦٠
(٤) سورة النمل ٦٢

(١) لابن طبر ، سلوان الطامح ٨
(٣) سورة التوبة ٦٢ .

وقال أبو حاتم الأعمرج : لأن أحرَمَ الدُّعاء أشدَّ على من أن أحرَمَ الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والخمود تحت جريان الحكم والرضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أولى ؛ ولهذا قال الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل ، خير لك من معارضة الوقت .

وقال النبي صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شَهِدَ ذِكْرِي مِنْ مَّائَةِ مَائَةٍ أَطْلَعْتُهُ مَا أَعْلَى السَّائِلِينَ » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحب دهاء بلسانه ، وصاحب رضاء بقلبه ، ليأتي بالأمرين جميعاً .

وقال قوم : إن الأوقات تختلف ، ففي بعض الأحوال يكون الدعاء أفضل من السكوت ، وفي بعض الأحوال يكون بالعكس ، وإنما يعرف هذا في الوقت ، لأنَّ علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى ، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم وأولى .

وجاء في الخبر : « إِنْ أَتَى الْعَبْدَ الْمُبْدَى فَيَسْرِعُ إِجَابَتَهُ بِنَفْسٍ لِسَمَاعِ صَوْتِهِ ، وَاتَّهَ بِحَبِّ الْعَبْدِ فَيُؤَخِّرُ إِجَابَتَهُ حَبّاً لِسَمَاعِ صَوْتِهِ » .

ومن أدب الدعاء حضور القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إِنْ أَتَى الْعَبْدَ لَمْ يَسْتَجِبْ دُعَاؤُهُ قَلْباً لَمْ يَسْمَعْ » .

ومن شروط الإجابة طيب الطعمة وحل للكسب ؛ قال صلى الله عليه وآله لسمعت ابن أبي وقاص : « أَطِيبُ كَسْبِكَ تُسْتَجَبُ دَعْوَتُكَ » .

وينبغي أن يكون الدعاء بعد العرفة ، قبل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ما ألتا نذمو فلا يستجاب لنا قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

كان صالح المري يقول كثيرا : ادعوا : فن أذن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذا تقول ؟ : أغنيق هذا الباب حتى يستفتح فقال صالح : شيخ جهل ، وامرأة حلت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق ، وإلا فلرب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامة بالأحوال ، ودعاء العابد بالأعمال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ما يهيج الأحران والوجد .

وقيل : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء المضطرب : لقوله تعالى : ﴿ أَمِّنْ بِحَبِيبِ الْمَضْطَرِ إِذَا دَعَا ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : السنة للبتدين أبواب الإرادة منطلقة بالدعاء ، والسنة المحققين الواصلين قد خرس من ذلك .

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوته منذُ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوا لي أحد .

وقيل : الدعاء سلم للذنبين .

وقال من قال بنقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جليل بعد .

وقالوا : السنة للذنبين دعوهم .

وكان أبو علي الدقاق يقول : إذا بكى للذنب فقد راسل الله .

وفي معناه أنشدوا :

دُمُوعُ الْفَقَى عَمَّا يَمِينُ تَرَجُمُ وَأَخْلَاسُهُ تَبْدِينُ مَا الْقَلْبُ يَكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أدمُ لي ، فقال : كفارك من الإجابة ألا تجعل بينك وبينه واسطة .

ومنها الناس ، قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(١) أى فى مصابه وما نيل منه فى نفسه وفى أهله يوم أحد ، فلا تجزعوا إن أصيب ببعضكم . وجاء فى الحديث المرفوع : لا تنظروا إلى من فوقكم ، وانظروا إلى من دونكم ، فإنه أجدر ألا تزددوا نعم الله عليكم .
وقالت الخنساء ترى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْهَائِكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَائِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي^(٢)
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَسَكِنْ أَعْرَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ

وحقيقة الناس تهوين المصائب والخرائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفعُ محلاً منك .

وقد نشر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٣) ؛ قال : إنه لا يهون على أحدٍ من أهل النار عذابه ، وإن تأتى بنوره من المعذبين ، لأن الله تعالى جعل لهم الناسى نصيباً فى الدنيا ، ولم يجعله نافعاً لأهل النار مبالغة فى تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

(٢) ديوانها ١٥٢

(٣) سورة الزخرف ٣٩

ومنها الفقر ، وهو شعار الصالحين ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهم احببني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني مع المساكين » .

قال لعلي عليه السلام : « إن الله قد زينك زينة لم يزبن العباد بأحسن منها ، وهب لك حب المساكين ، لعلك ترضى بهم أتباعا ، ويرضون بك إماما » .

وجاء في الخبر المرفوع : « الفقراء الصبر جُلساء الله يوم القيامة » .

وسئل يحيى بن معاذ عن الفقير فقال : ألا تستحي إلا بالله .

وقال أبو الذرداء : لأن أقع من فوق قصر فأعظم أحسب إلى من يجالس الفقير

لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إياكم ومجالسة الموتى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الأغنياء .

قيل لربيع بن خثيم : قد غلام السمر ، قال نعم أهون على الله من أن يجمعنا ، إنا نجمع أوليائه .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر .

وقال الشبلي : أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لواحد فأفقتها في يوم

واحد ، ثم خطر بباله : « لو أمسكت منها قوت يوم آخر » ، لم يصدق في فقره .

سئل ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت ثم ذهب قليلا ، وعاد فقال : كانت عندي أرامدة

دوانيق فضة ، فاستحييت من الله أن أنكلم في الفقر وهي عندي ، فذهبت فأخرجتها ، ثم

قدمت فكلم في الفقر .

وقال أبو علي الدقاق في تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَاضَعَ لِعَلَى ذَهَبٍ

ثَلَاثًا دِينَهُ ، إِنَّ الْمَرْءَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، فَمَنْ تَوَاضَعَ لِفَقْرٍ بِلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، ذَهَبَ ثَلَاثًا

دِينَهُ ، فَإِنْ تَوَاضَعَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ ذَهَبَ دِينُهُ كُلَّهُ .

ومنها الأدب ، قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(١) : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق بلقاع الدي أوصّل إليه ليلة شاهد للصدر ، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشرىون .

وفي الحديث للرفوع : « أدبى رضى فأحسن تأدبى » .

وقيل : إن الحفيد لم يمدّ رجلاه في الخطوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أولى من الأدب مع الخلق .

وقال أبو على الدقاق : من صاحب الملوك تغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل . ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط ، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدواب .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب ، وعصى أن الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثورى : من لم يتأدب للوقت ، فوقته مقت .

وقال أبو على الدقاق في قوله تعالى ، حكاية عن أيوب : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيءٌ فَظِرٌّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢) . قال : لم يقل : « فارحني » لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك قال في قول عيسى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ ﴾^(٣) ، قال : لم يقل : « لم أفل » رعاية لأدب الحضرة .

• • •

(١) سورة النجم ١٧

(٢) سورة الأنبياء ٨٣

(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبة ، وهي مقام جليل ، قالوا : المحبة أن نهب كلك لن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء .

وقيل لبعض العرب : ما وجدت من حب فلانة ؟ قال : أرى القمر على جدارها أحسن منه على جذران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : المحبة أن تنظر على محبوبك أن يحبه غيرك .

وقال النصراني : المحبة نوحان : نوح بوحب حقن الدماء ، ونوح بوحب سفك الدماء .

وقال يحيى بن معاذ : المحبة الخالصة ألا تنقص بالبغاء ، ولا تزيد بالبر .

وقيل للنصراني : كيف حالك في المحبة ؟ قال : عدتُ وصال المحبين ، ورزقتُ

حسراتهم ، فهو ذا أبا أحترق فيها . ثم قال : المحبة مجانبة السلوة على كل حال .

وأنشدوا :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْمَوَى ذَائِقِ سَلْوَةٍ فَإِنَّهُ مِنْ لَيْلَى لَهَا عِبْرٌ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلَّكَ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانٌ لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقِ

وجاء في الحديث الرفوع : « للره مع مَنْ أَحَبَّ » ؛ ولما سمع سمعون هذا الخبر ،

قال : فاز المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأنهم مع الله تعالى .

وفي الحديث الرفوع : « لأصطفى الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله »

ورسوله ، وهذا يتجاوز حد الجلالة والشرف .

وكان يقال : الحب أوله حقل ، وآخره قتل .

قيل : كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من محبتك ، فكتب

إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض ، وما روى ببد ، ولسانه خارج ،

وهو يقول : هل من مزيد !

وأشد:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ حَبِيْبِي وَهَمَلْتُ أَنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسِيتُ !
شَرِبْتُ الْحَبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأْسٍ لَمَّا نَفِدَ الشَّرَابُ ، وَلَا رَوَيْتُ
وَقِيلَ : الْحَبَّةُ سُكْرٌ لَا يَصْغُو صَاحِبُهُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ مَحْبُوْبِهِ ؛ ثُمَّ السُّكْرُ الَّذِي يَحْصُلُ
عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ لَا يُوْصَفُ .

وَأَنشِدُوا :

فَأَسْكُرُ الْقَوْمَ دَوْرُ كَأْسٍ وَكَأَنِّي سَكْرِي مِنَ الْمُدْبِرِ

• • •

ومنها الشوق ، جاء في الخبر المرفوع : إِنَّ الْبَعْدَ لَشَتَّى إِلَى ثَلَاثَةِ : عَلَى ،
وَسَلْمَانَ ، وَحَمَارَ .

والشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . سئل ابن عطاء : الشوق
أَعْلَى أَمْ الْحُبُّ ؟ فَقَالَ : الْحُبُّ ، لِأَنَّ الشُّوْقَ مِنْهَا يَتَوَلَّدُ .

ومن الأدعية النبوية الماثورة الدماء التي كان يدعُو به حمار بن بأسر رضى الله عنه :
« اللَّهُمَّ بَعْلُكَ بِالْغَيْبِ ، وَغَدَرْتُكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيَيْتَ مَا عُلِمَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّيْتَنِي
مَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حَشِيَّتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ
الْحَقِّ فِي الرِّحَا وَالْمُنْضَبِ ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَنَى وَالْفَرَى ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيًّا لَا يَبِيدُ ، وَفِرَّةً عَيْنٍ
لَا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّحَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْمَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى
وَجْهِكَ » وَالشُّوْقُ إِلَى قَائِكَ ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ . اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا
هَدَاةً مُهْتَدِينَ . »

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وَطَى قَدْرُ الْحُبِّ يَكُونُ الشُّوْقُ ،
وَعَلَامَةُ الشُّوْقِ حُبُّ الْمَوْتِ .

وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنُّوا أَلَمْ تَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) أى أن من كان صاحب محبة يتمنى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة .
قيل لبعض الصوفية : هل تشاقق إليه ؟ فقال : إنما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يفتيب .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ ﴾^(٢) : إنه تطيب لقلب المشتاقين .

ويقال : إنه مكتوب في بعض كتب السموات القديمة : شوقناكم فلم نشعاقوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ، وخوفناكم فلم ترهبوا ، ونحنا لكم فلم تحزنوا .

وقيل : إن شعيبا بكى حتى عى ، فردّه الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عى ، فردّه عليه بصره ، ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : ﴿ كَمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْبُكَاءُ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ فَقَدْ أَبْغَتْهَا لَكَ ، وَإِنْ كَانَ خَوْفًا مِنَ النَّارِ فَقَدْ أَحْرَتْكَ مِنْهَا ﴾ . فقال : وحقتك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقًا إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أحضرتك نبي وكيلى عشر سنين » .



ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبعمه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٣) .

وجاء في الخبر أن يوسف عليه السلام كان بمحوم في سبي الجندب ، فقيل له : انجموع وأنت على خزائن مصر ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجيع .

وكذلك قال علي عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا الهالك ، وهذا ما كوكك ، وأنت أمير

(١) سورة البقرة ٩٤

(٢) سورة النكبات ٥

(٣) سورة طه ١٣١

للمؤمنين ! فقال : نعم ، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم كسيفة الناس ،
كثيلاً يبيع^(١) بالفقر فقره .

ومنع عمر بن الخطاب نفسه عام الرمادة للدم ، وقال : لا آكله حتى يصيبه
للسلمون جميعاً .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تسماً ؛ قبل أن يلي الخلافة ، قومت ثيابه
حينئذ بألف دينار ، وقومت وهو يخطب الناس أيام خلافته بثلاثة دراهم .

• • •

واعلم أن بعض هذه الراتب والمقامات التي ذكرناها تقوم قد يكون متداخلاً في
الظاهر ، وله في الباطن عديم فرق يبره من يأس مكثهم ، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم
وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية .

(١) يبيع به فقره : أي يخله ويحسه على الفقر .

(٢١٨)

الأمنل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلامذه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ^(١) .
أَذْهَبَ مَسْئُولٌ حُجَّةً ، وَأَفْطَحَ مُعْتَرٍ مَعْدِرَةً . لَقَدْ أَهْرَاحَ جَهْلُهُ بِنَفْسِهِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أَسَاكَ
بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ !

أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ تَوَلُّكِ كَقَطَّةٍ ! أَمَا تَرَاهُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرَاهُ
مِنْ غَيْرِكَ ! فَكَلِّبْنَا تَرَى الصَّاحِي مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ قَطِطُهُ ، أَوْ تَرَى الذَّنْبِي بِالْمِ عَمْسُ
جَدُّهُ قَتْبِي رَحْمَةً لَهُ !

مَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَخَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَهَزَّأَكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ،
وَهِيَ أَعْرُ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نَفْسِكَ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطَتْ
عَمَامِيهِ مَدَارِجُ سَعْلَوَاتِهِ !

فَتَدَاوَى مِنْ دَاءِ الْعَذْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِمَزِيئَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْهَمَلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِهَقْفَةٍ ،
وَكَنْ فِيهِ مُطِيبًا ، وَبِذِكْرِهِ آيَا .

وَتَحْتَلُّ فِي حَالِ تَوَلُّكِ عَنْهُ ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ ، بِدَعْوِكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَتَعَبُّدِكَ
بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

فَتَعَالَى مِنْ قُوَى مَا أُكْرِمَهُ ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أُجْرَأَكَ عَلَى مُصِيبَتِهِ !
وَأَنْتَ فِي كَتَفِ سِرِّهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ ، وَتَمَّ يَهْتِكُ
هَبْكَ سِرُّهُ ، بَلْ لَأَنْتَ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرُفٌ عَيْنٍ ؛ فِي نَيْتِهِ يُحَدِّثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيْتِهِ
يَسْتَرْهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ بِصَرَفِهَا عَلَيْكَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطْلَعْتَهُ .

وَأَيْتُمُ اللَّهُ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَفَتِّحِينَ فِي الْقُوَى ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ ،
لَكُنْتُ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ يَذِمُّمُ الْأَخْلَاقَ ، وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ .
وَحَقًّا أَقُولُ أَمَا اللَّهُ نَبَا غَرَمْتُكَ ، وَلَكِنْ بِهَا اخْتَرْتُ ، وَلَقَدْ كَاشَفْتُكَ الْغِطَاطَ ،
وَأَذْنَتَكَ عَلَى سَوَادٍ .

وَأَيُّ يَمَانِيدِكَ مِنْ نَزُولِ الْبَلَاءِ بِحَبْسِكَ ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ ، أَمْ صَدَقَ وَأَوْفَى مِنْ
أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَعْرِكَ . وَلَرُبُّ نَاصِحٍ لَهَا مِنْكَ مُنْهُمْ ، وَصَادِقٍ مِنْ
حَبْرٍهَا مُكْذِبٌ .

وَلَكِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَأَرُ بَوَاحِ أُنْجَالِيَّةٍ ، تَتَحَدَّثُهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكُّرِكَ ،
وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ ، بِمَعْلَةِ الشُّفِيقِ هَذِيكَ ، وَالشُّجْعَرِ بِكَ أَوْلَيْمَ دَارٍ مَنْ لَمْ يَرْضَ
بِهَا دَارًا ، وَتَحَلَّ مَنْ لَمْ يُوَظَّنَّهَا تَحَلًّا !

وَإِنَّ السُّدَّاءَ بِالدُّنْيَا غَدَا هُمُ الْهَارُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، إِذَا رَجَفَتِ الرَّاحِفَةُ ، وَخَفَّتِ
بِحَلَالِيلِهَا الْقِيَامَةُ ، وَلِخَلْقٍ يَكُلُ مَنْسِكَ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبْدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ
أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يَجْرِ فِي هَذِهِ وَقِطْعَةٍ بَوْمِئِذٍ خَرَقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا هَمْسُ
قَدِيمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَسَكَمَ حُجَّةَ يَوْمٍ ذَلِكَ دَاحِضَةٌ ، وَهَلَاثِي عُدْرٍ مُنْقَطِعَةٌ !
فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عَذْرُكَ ، وَتَنَبَّأَتْ بِحُجَّتِكَ ، وَخَذَّ مَا يَبْقَى لَكَ
يَمَّا لَا تَبْقَى لَهُ ، وَتَيَسَّرَ لِسْفَرِكَ ؛ وَشِمَّ بَرَقَ الْمَجَازِ ، وَارْحَلْ مُطَالِيَا النُّشِيرِ .

السنخ :

لقائل أن يقول: لو قال : « ما غرك بربك العزيز أو المتقم » أو نحو ذلك ، لكان أولى لأنّ للإنسان الماتب أن يقول : غرتي كرمك الذي وصفت به نفسك !

وجواب هذا أن يقال : إن مجموع الصفات صار كشيء واحد ، وهو الكريم الذي حانتك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ربك . والمعنى : ما غرك بربك هذه صفته ، وهذا شأنه ، وهو قادر على أن يحسبك في أي صورة شاء . فما الذي يؤمنك من أن يحسبك في صورة القرّة والخنازير ونحوها من الحيوانات النجس . ومعنى الكريم هاهنا : الفياض على المواد بالصور ، ومن هذه صفته ينبغي أن نحذف منه تبديل الصورة .

قال عليه السلام : « أدع من سئل حجة » المتدا محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذرة بكسر الهمزة : العذر .

ويقال : لقد أبرح فلان جهالة ، وأبرح ثوماً ، وأبرح شجاعة ، وأتى بالبرح من ذلك ، أي بالشديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرح من هذا ، أي أشد ، وقتلوه أبرح قتل . وجهالة منصوب على التمييز .

وقال الفجاءة الراوندي : معقول به ، قال معناه : جلب جهالة إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدى هاهنا وإنما يتعدى « أبرح » و موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أي أحبه ، والآخر أبرح ريداً هراً ، أي أكرمه وعظمه .

قوله : « ما جرك » بالهمزة ، وفلان حريء للقوم ، أي مقدمهم .

وما أنك بالتشديد ، وروى : « ما آسك » بالمد ؛ وكلاهما من أصل واحد ، وتأنست

بفلان واستأست بمعنى ، وفلان أنيس ومؤنس ، وقد أنسى وأنسى كله بمعنى ،
أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والهؤل : مصدر بل الرجل من مرضه ، إذا برى ، ويموز « أبل » ، قال الشاعر :

إذا بل من داء به ظن أنه نحاوبه الداء الذى هو قاتله^(١)

والضاحي لحر الشمس : البارز . وهذا داء ممض ، أى مؤلم ، أمضى الجرح إمضاضاً ،

ويموز « مضي » .

وروى : وجلدك على مصائبك ، صيغة الجمع .

وبيات نقة بفتح الباء : طروقها ليلاً ، وهى من ألقاظ القرآن العزيز^(٢) .

وتورط : وقع فى الورطة ، يتسكين الراء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرض مطمئنة

لا طريق فيها ، وقد أورتك ، وورطه تورطاً ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمساكن ، ويموز انتصاب « مدارج » هاهنا ، لأنها مفعول به

صريح ، ويموز أن ينتصب على تقدير حرف الحذف وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .

قوله : و « تمثل » أى ونصوّر .

ويشتدك بفضل ، أى يترك سفوه ، وتسمى النفو والصفح فصلاً ؛ تسمية

لأنهم بالجنس .

قوله : « مطرف عين » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرفها : إطباق أحدها

(١) الصحاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير لغة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ .
سورة الأعراف .

جفتها على الآخر ، وانتصاب «مطرف» هاهنا على الظرفية ، كقولك : وردت مقدم الحاج ،
أى وقت قدومهم .

قوله : « متوازيين فى القدرة » ، أى متساويين ، وروى : « متوازيين » بالنون .
والمطات : جمع مطّة ، وهو منصوب على نزع الخافض ، أى كاشتكت بالمطات ، وروى
« المطات » بالرفع على أنه فاعل . وروى : « كاشتكت المطاء » .
وآذنتك ، أى أعلمتك .

وعلى سواء ، أى على عدل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية ^(١) .

والراجفة : الصيحة الأولى ، وحقت يجللها القيامة ، أى بأمرها المظالم . والنيك :
للوضع الذى تذبح فيه النساك ، وهى ذبائح اقتران ويجوز فتح السين ، وقد قرئ بهما
فى قوله تعالى : ﴿ يَكُلُّ أُمَّةٌ حِمْلًا مِّنْكَ ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : إذا كان يلحق بكلّ عبود عبديته ؛ فالنصارى إذن تعلق بيسى ،
والغلاة من المسلمين بعل ، وكذلك لللائكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التعلق هؤلاء بعبوديتهم ، ومعنى الالتحاق أن يؤمر الأتباع فى
الوقف بالتحيز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟
فحينئذ يشهدون منهم ، فينحو الرؤساء ، وتهلك الأتباع ، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِنَّمَا كُنَّ
كَا نُؤَا بَعِبُدُونَ ۖ قَالُوا لَسُبْحَانَكَ أُنْتُمْ وَلَهُنَّ مِّنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَا نُؤَا بَعِبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ
يَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣) ، أى إنما كانوا يعبدون الشياطين للصلة لهم ، فعبادتهم فى

(١) منه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٌ فَأَنذِرْ لَهُم مِّن قَوْلِكَ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

٥٨ سورة الأتفال .

(١) سورة الحج ٦٧ .

(٢) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لآلنا ، وإلهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) من تخصيص المسموم بالآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ يَمُنُّونَ ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : فما قولك في اعتراض ابن الزبيري على الآية ، هل هو وارد ؟ قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِيَّاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يقل ، فلا يرد عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة : والذي قاله المفسرون من تخصيص المسموم بالآية الثانية تكلف غير محتاج إليه .

فإن قلت : فما الفائدة في أن قرآن القوم بأصنامهم في النار ؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والنسب ؟

قلت : لأن النظر إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب ، وإنما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلوا بها ، فكلما رأوها معهم زاد غمهم وحسرتهم . وأيضا فإنهم قدروا أن يستشقوا بهاني الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغض إليهم منها .

قوله : « فَمِ يَجْرُ » قد اختلف الرواة في هذه اللفظة ، فرواها قوم « فَمِ يَجْرُ » وهو مضارع « جَرَى يَجْرِي » ، تقول : ما الذي جرى للقوم ؟ فيقول من سألته : قديم الأمير من السفر ، فيكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يشعّد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلا بالحق والإنصاف . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ »

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب ^(١)، ورواها قوم « فلم يحز »، مضارع « جاز يحوز »، أى لم يسغ ولم يخص ذلك اليوم لأحد من المكلفين في حركة من الحركات المحقرات للمستصرات؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يحوز فعل مثلها. ورواها قوم: « فلم يحز » من « جار »، أى عدل عن الطريق، أى لم يذهب عنه سبيله، ولم يضل ولم يشذ عن حسابه شيء من أمر محقرات الأمور إلا بحقه، أى إلا مالا فائدة في إثباته والحاسبة عليه، نحو الحركات اللهاة والعينية التي لا تدخل تحت التكليف.

وقال الراوندى: « خرق بصر » مرفوع لأنه اسم مالم بسم فاعله، ولا أحرف لهذا الكلام معنى.

والهمس: الصوت الخفي.

قوله: « فصر من أمرك »، تحريت ككبا، أى توخيت وقصدته واعتدته.

قوله: « وتيسر لسفرك »، أى هي أسباب السفر، ولا تترك فذاك ماها.

والشيم: النظر إلى البرق.

ورحلت مطيقي، إذا شددت على ظهرها الرحل، قال الأعشى:

رَحَلْتُ سُمَيَّةَ غَدَوَةَ أَجْهَالَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بِذَلِكَ ^(٢)

والتشير: الجدة والانكاش في الأمر.

ومعاني الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطيلها وتدل عليها بما لو أراد للفسر أن

يعبر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أولى أن يكون تفسيراً

لكلام ذلك المفسر.

(١) سورة عافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته، ديوانه ٢٢.

(٢١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيِّتَ عَلَى حَاكِ السَّعْدَانِ مُسَهِّدًا ، أَوْ أُجَرُّ فِي الْأَعْلَالِ مُصَفِّدًا ،
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِبًا لِبَعْضِ
مِنَ الْمُطْلَمِ ، وَكَغَيْفِ أَظْلَمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قَوْلُهَا ، وَيَطُولُ فِي
النَّزَمِ حُلُولُهَا !

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَمِيلاً وَقَدْ ائْتَمَرَ حَقِّي ائْتِمَاعِي مِنْ بُرْكَكُمْ صَاعًا ، وَرَأَيْتُ
صَبِيَاءَهُ شَمَّتِ الشُّعُورَ ، عَبَّرَ الْأَلْوَانُ لِبَيْنِ قَهْرِهِمْ ، كَأَنَّهَا سُوِّدَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعَظِيمِ ،
وَمَا وَدَّعِي مَوْكِدًا ، وَكَرَّرَ عَلَى الْقَوْلِ مُرَدَّدًا ، فَأَصْبَحْتُ إِلَيْهِ تَمِيمِي ، فَظَنُّ أُنَى أَبِيهِ
دِينِي ، وَاتَّبَعْتُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقِي ، فَأَحْبَبْتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَذِنْتُهَا مِنْ
جَسَمِهِ لِعَتِيرَتِهَا ، فَصَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَهَبٍ مِنْ أَمِيهَا ، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَبَسَمِيهَا ،
فَقُلْتُ لَهُ : فَكَيْلَتِكَ النَّوَاكِلُ بِاعْقِيلُ ! أَتَيْنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَجَاهَا إِنْسَاسُهَا لِلْعِيهِ ،
وَتَجَرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جِبَارُهَا لِعَصِيهِ ! أَتَيْنُ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتِينُ مِنْ لَفِي !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِفُ طَرَفًا بِمَعْقُوفَةٍ فِي رِمَاسِيهَا ، وَمَنْجُونَةٍ شَيْئَتُهَا ؛ كَأَنَّمَا
عَجِنَتْ بِرِيْقِ حَبِّهِ أَوْ قَيْئِهَا ، فَهَتَتْ : أَمِيلةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ
عَلَيْنَا أَهْلُ الْيَتْرِ ائْتَمَالَ : لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَتَسْكِيهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَيْبَتُكَ الْهَبُولُ !
أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَذِّعَنِي ! ائْتَمِطْ أَمْ ذُو جَنَفٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ
الْأَقَالِيمَ السَّيِّئَةَ يَمًا تَحْتَ أَفْلَاسِكَا ، عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي قَمَلَةٍ أَسْلُبَهَا جُلُبَ شَعِيرَةٍ

مَا فَسَلَتْهُ ؛ وَإِنْ دُنِيََا كَمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضِيهَا .
مَا لِي لِي وَلَيْسَ يَفْقَى ؛ وَلَذَلِكَ لَا تَقِي أَسْوَدُ يَا اللَّهُ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ ، وَقُبْحِ
الزَّلَلِ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

• • •

البُزْخُ :

السَّعْدَانُ : نَبْتُ ذُو شَوْكٍ ؛ يُقَالُ لَهُ : حَكَّ السَّعْدَانُ وَحَسَّكَ السَّعْدَانُ ؛ وَتَشَبَّهَ
بِهِ حَلْمَةُ النَّدَى ، فَيُقَالُ : سَعْدَانَةُ التَّنْدُوفِ ، وَهَذَا الْقَبْتُ مِنْ أَفْضَلِ مِرَاحِي الْإِبِلِ ، وَفِي
الْثَّلِ « مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ » ؛ وَنُونُهُ زَائِدَةٌ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ « قَلَالٌ » خَيْرُ
مَضَاعِفَ ، إِلَّا « خَزَّعَالٌ » وَهُوَ ظُلْعٌ يَلْحَقُ النَّاظَةَ ، وَ« قَهْقَارٌ » ، وَهُوَ الْحَجَرُ الصَّلْبُ ،
وَ« قَسْعَالٌ » وَهُوَ الْفَنَارُ .

وَالسَّيْدُ : الْمَنُوعُ النَّوْمُ ، وَهُوَ السَّيَادُ .

وَالْأَغْلَالُ : الْقَيْدُ . وَالصَّفْدُ : الْقَيْدُ . وَالْخَطَامُ : حُرُوفُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُهَا ، شَبَّهَ
لُزُومَهُ وَسُرْعَةَ فَنَائِهِ بِمَا يَصْعَلَمُ مِنَ الْعِيدَانِ وَيَتَكَسَّرُ .

ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَظْلَمَ النَّاسُ لِأَجْلِ خُشْيِ تَمُوتِ سَرِيحًا - بِمَعْنَى تَقَرُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ !
فَإِنْ قُلْتُ : أَلَيْسَ قَوْلُهُ : « عَنْ نَفْسِي بِسَرِيحٍ إِلَى الْبَيْتِ قُتُولَهَا » يُشِيرُ بِمَذْهَبٍ مِنْ
قَالَ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ ، لِأَنَّ الْقُقُولَ الرَّجُوعَ ، وَلَا يُقَالُ فِي مَذْهَبِهِ لِلْمَسَافِرَةِ : قَائِلَةٌ إِلَّا إِذَا
كَانَتْ رَاجِعَةً .

قُلْتُ : لَا حَاجَةَ إِلَى الْقُقُولِ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ مَحَافِظَةً عَلَى هَذِهِ الْإِنْفِظَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ
النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ حَادِثَةً قَدْ كَانَ أَصْلُهَا الْعَدَمَ ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عَدِمَتْ نَفْسُهُ فَرَجَعَتْ
إِلَى الْعَدَمِ الْأَصْلِيِّ ، وَهُوَ الْمَبْرُ عَنْهُ بِالْبَيْلِ .

وأملق : افقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(١) .
 واستأخنى : طلب منى أن أعطيه صاعاً من الخنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمدُّ
 رطل وثلاث ، فجموع ذلك خمسة أرطال ، وثلاث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن
 شئت همزت . والصواع لغة في الصاع ، ويقال : هو إناء بشرب فيه .
 والمِظْلَم ، بالكسرة في الحرفين : ثبت يصنع به ما يراد أسوداده ، ويقال :
 هو الوسمة :

وشمت الألوان ، أى غُبر .
 وأصغيت إليه : أملتُ سمى نحوه .
 وأتبع قياده : أطبعه وأتقاه له .
 وأحجبت الحديدية في النار ، فعى محجاة ، ولا يقال : حجبت الحديدية .
 وذى ذف ، أى ذى سقم مؤلم .
 ومن ميسمها : من أثرها في يده .
 ونسكتك التواكل ، دعاء عليه ، وهو جمع ناكلة ، وفواهل لا يجرى إلا جمع
 للثوات إلا فيما شذ ، نحو فوارس ، أى نسكتك نسوك .
 قوله : « أحماها إنسانها » ، أى صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنه يريد أن يقابل
 هذه اللفظة بقوله : « جبارها » .

وسجّرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسجور ما يسحر به التنوير .
 قوله : « مملوكة في وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الخلواء
 تأتى فيه ، وكان عليه السلام يُعصّ الأشعث ، لأن الأشعث كان يُبيضه ، وظنّ الأشعث
 أنه يستعمله بالمهاداة لفرض ديوى كانت في نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

عليه السلام بفطن لذلك وعلمه ، وذلك ردة هدية الأسمث ، ولولا ذلك لقبها ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قبل الهدية ، وقد قبل على عليه السلام هدايا جماعة من أصحابه ، ودعا بعض من كان يأنس إليه إلى حلّوا معها يوم نوروز فأكل وقال : لم هيأت هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فصحك . وقال : نورزوا لنا في كل يوم إن استطعتم . وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسعاحة الشيم على قاعدة محبة جملة ، ولما كان يفر عن قوم كان يعلم من حالهم الشدة له ، وعن يحاول أن يصانه بذلك عن مال المسلمين ، وهيأت حتى يلين لضرر الناس الجبر .

وقال : بمفوفة في وعائها ، لأنه كان طبق منطى .

ثم قال : « ومعهونة شنتها » ، أي أنصتها ونفرت عنها . كأنها مجت بريق الحية أو بقيتها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من الماء كقول . وقال الراوندى : وصفها بالعلاقة فقال : كأنها عجنّت بريق الحية ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصيلة » ، أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت ، الصلاة : العطية لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرب إلى الوصول ، وأكثر ما تفعل للذكور والصيت . والزكاة : هي ما يجب في النصاب من المال . والصدقة ها هنا هي صدقة التطوع ، وقد تسمى الزكاة الواجبة صدقة ، إلا أنها هنا هي النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوع ، ولا قبول الصلوات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاص الخمسة : محمدا ، وعليها ، وفاطمة ، وحسنا ، وحسينا

عليهم السلام، فهو لاء خاصة دون غيرهم من بنى هاشم، محرم عليهم الصلاة وقبول الصدقة، وأما غيرهم من بنى هاشم فلا يحرم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصة .

فإن قلت : كيف قلت : إن هؤلاء الخمسة يحرم عليهم قبول الصلوات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صيغة معاوية ؟

قلت : كلاً لم يقبل صلته ، ومما ذاقه أن يقبلاها ! وإنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال ، فإن سهم ذوى القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز ، ولما غير سهم ذوى القربى سهم آخر للإسلام من المناسم .

• • •

قوله : « هبلك الهول » أى هكلك أمك هو الهول التى لها عادة بشكل الولد .
فإن قلت : ما الفرق بين محنيط ، ودى جنة ، ويهجر ؟

قلت : المحنيط : المصروع من قلبة الأحلاط السوداء أو غيرها عليه ، وذو الجنة من به من الشيطان . والذى يهجر هو الذى يهذى فى مرض ليس بصرع كالحموم والمبرسم ونحوهما .

وجلب الشعيرة ، بضم الجيم : قشرها ، وأجلب وأجلبة أيضا جليدة نملوا الجرح عند البرء ، يقال منه : جلب الجرح يجلب ويحلب ، وأجلب الجرح أيضا ، ويقال للجليدة التى تجعل على القتب جلبة أيضا .

وتقضمها بفتح الضاد ، وللأضى قضم بالسكس .

• • •

[نبذ من أخبار عقيل بن أبي طالب]

وعقيل ، هو عقيل بن أبي طالب - عليه السلام - بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمه وأبيه ، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب ، وهو أسن من عقيل بمشتر سنين ، وعقيل وهو أسن من جعفر بمشتر سنين ، وجعفر وهو أسن من علي بمشتر سنين ، وعلي وهو أصغرهم سناً ، وأعظمهم قدراً ، بل وأعظم الناس بعد ابن عمه قدراً .

وكان أبو طالب يحب عقيلاً أكثر من حبه سائر بنيه ، فلذلك قال للذي صلى الله عليه وآله ولعباس حين أتياه ليعتصما بنيه عام المثل ، فبخشنا عنه ثقلهم : « دُعُوا لِي عَقِيلًا ، وَحَدُوا مَن شِئْتُمْ » ، فأخذ العباس جعفرًا ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام .

وكان عقيل يكره أبا يزيد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا يزيد ، إني أحبك حبين : حباً لقربائك مني ، وحباً لما كنت أعلم من حبتي إياك » .
أخرج عقيل إلى مكرهاً كما أخرج العباس ، فأسير وفدي ، وعاد إلى مكة ، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية ، وشهد غزاة مؤتة مع أخيه جعفر عليه السلام ، وتوفي في خلافة معاوية في سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالديرة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من حروبه أيام خلافته ، وعرض نفسه وولاه عليه فأعفاه ، ولم يكلفه حضور الحرب .

وكان أسب قريش وأعلمهم بأيامها ، وكان مفضلًا إليهم ، لأنه كان يمدّ مسلوئهم .

وكانت له طينفة تطرح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيصلى عليها ،
ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب نصره ، وكان
أسرع الناس جوابا ؟ وأشدهم عارضة .

كان يقال : إن في قريش أربعة يُبتعاهم إليهم في علم النسب وأيام قريش ، ويرجع
إلى أولهم : عقيل بن أبي طالب ، ومحرمة بن نوفل الزهري ، وأبو الجهم بن حذيفة
المدوي ، وحويط بن عبد المزي العاصري .

واختلف الناس في عقيل ؛ هل النحق بمعاوية وأمير المؤمنين حي ؟ فقال قوم : نعم ،
وروي أن معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أتي خير له من أخيه
لما أقام عندنا وتركه . فقال عقيل : أحي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ،
وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يبد إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلوا
على ذلك بالسكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافه ، والجواب الذي أجابه عليه السلام ،
وقد ذكرناه فيها تقدم ، وسيأتي ذكره أيضا في باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو
الأظهر عندي .

• • •

وروي اللدائي ، قال : قال معاوية يوما لعقيل بن أبي طالب : هل من حاجة فأقضيها
لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت على وأبي أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفا ، فأحب
معاوية أن يمازحه فقال : وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفا وأنت أعمى تجزى
بجارية قيمتها خمسون درهما قال : أرجو أن أطاها فخلد لي غلاما إذا أغضبتني بضرب
عقك بالسيف . فضحك معاوية : وقال : ما زحكتك يا أبا يزيد ! وأمر فأتيتم له الجارية

التي أولدها منها مسلماً ، فلما أتت على مسلم ثمانى عشرة سنة - وقد مات عقيل أبوه - قال معاوية : يا أمير المؤمنين ، إن لي أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أعطيت بها ثلث ألف ، وقد أحيت أن أبيعك إياها ، فادفع إلى ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكذب إلى معاوية : أما بعد ، فإنك غررت علامة من بني هاشم ، فاجتعت منه أرضاً لا يملكها ، فاقبض من الفلام ما دفعته إليه ، واردد إلينا أرضنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : اردد علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنك نعت بالأملاك ، فقال مسلم : أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية صاحكاً يصرب رجله ، فقال : يا بني ، هذا والله كلام قاله لي أبوك حين اجتعت به أملاكك .

ثم كتب إلى الحسين : إنى قد رددت عليكم الأرض ، وسوَّغتُ مسلماً ما أخذ . فقال الحسين عليه السلام : أيتم يا آل أبي سفيان إلا كرموا .

•••

وقال معاوية لعقيل : يا أبا يزيد ، أين يكون حثك أبو لهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعاً لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يا بني هاشم ، لا يجهنم قلبى أبداً ، أين قفى ؟ أين أخى ؟ كأن أعناقهم أباريق القنصة ، ترى آناقهم للاء قبل شفاههم ، قال : إذا دخلت جهنم ، تخدري على شملاك .

سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديثة الممثلة للذكورة ، فبكى وقال : أما أحدثك يا معاوية عنه ، ثم أحدثك عما سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستلف درهما اشترى به خبزاً ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم ، أن يفتح له زقاق من زقاق غسل جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلاً ، فلما طلبها عليه السلام ليقسها ، قال : يا قنبر ، أعلن أنه حدث بهذا الرق حدث ! فأخبره ، فغضب عليه السلام ، وقال : عليّ بحسين أفرغ عليه القدرة ، فقال : بحق عمي جعفر - وكان إذا سئل بحق جعفر سَكَن - فقال له : ما حملك أن أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إن لنا فيه حقاً ، فإذا أعطيتاه رددناه ، قال : فذاك أبوك ! وإن كان لك فيه حق ، فليس لك أن تنزع بحقك قبل أن ينتزع المسلمون بحقوقهم ! أما لولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل ثنيتك لأوجعتك ضرباً ، ثم دفع إلى قنبر درهما كان معروراً في رداءه ، وقال : اشتر به خبزاً عليّ تقدر عليه .

قال عقيل : والله لكأن أنظر إلى يدي عليّ وهي على فم الرق ، وقنبر يقبل الغسل فيه ، ثم شدته وجعل ييكى ، ويقول : اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم !

قال معاوية : ذكرت من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فلقد سبق من كان قبله ، وأهجر من يأتي بعده أهل حديث الحديثة .

قال : نعم ! أقوى وأصابني مخصّة شديدة ، فسأته فلم تند صفاً ، فجمعت صبياني وجنته بهم ، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم ، فقال : اتقوا عشيّة لأدفع إليكم شيئاً ، فجمته يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتمتع ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت - حريصاً قد غلبني الجشع ، أغلقتها صرّة - فوضعت يدي على حديثة تلهب ناراً ، فلما قبضتها نبذتها ، وخرت كما يخور النور تحت يد جازره ، فقال لي : تكلمت أمك ! هذا من حديثة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبى غداً إن سلكنا فى سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
(إِذَا الْأَعْلَالُ فِي أَغْنَائِهِمْ وَالسَّلَإِلُ يُسْعَبُونَ)^(١) .

ثم قال : ليس لك عندى فوق حقتك الذى فرضه الله لك إلا ما ترى ، فانصرف
إلى أهلك .

فجمل معاوية يتمجب ، ويقول : هيهات هيهات ! حققت النساء أن يلدن مثله !

(٢٢٠)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهم صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِفْتَارِ ، فَاسْتَزِقْ طَائِلِي رِزْقِكَ ،
وَأَسْتَمِطِفْ شِرَارَ خَلْقِكَ ، وَأَبْتَلِي بِحَمْدِكَ مَنْ أُعْطَايَ ، وَأَفْتِنَنِي بِذِمَّتِكَ مَنْ مَنَعَنِي ،
وَأَمْتَنِي مِنْ وَدَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُؤْتِيَ الْإِعْطَاءَ وَالنَّعْمَ ؛ (إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

• • •

الشرح :

صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، أى استره بأن رزقي يساراً وثروة ، أَسْتَمِطِفْ بِهَا مِنْ
مَسْأَلَةِ النَّاسِ .

وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِفْتَارِ ، أى لا تسقط مروءتى وحرمتى بين الناس بالفقر الذى أحْتَاجُ
مَعَهُ إِلَى تَكْفِيفِ النَّاسِ .

• • •

وروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رَفَّتْ حاله في آخر عمره ،
لأنَّ عبد الملك جفأ ، فراح يوماً إلى الجمعة ، فدعا فقال : اللهم إِنَّكَ عَوَّدْتَنِي عَادَةً
جَرِيتُ عَلَيْهَا ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ انْقَضَى ، فَاقْبَضْنِي إِلَيْكَ . فلم يلحق الجمعة الأخرى .
وكان الحسن بن علي عليه السلام يدعو فيقول : « اللَّهُمَّ وَسِّعْ عَلَيَّ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُنِي
إِلَّا الْكَثِيرُ » .

• • •

قوله: « فاسترزق » منصوب لأنه جواب الجاء ، كقولهم : ارزقني بغير فاعل عليه .
بين عليه السلام كيفية تبذل جاهه بالإفطار ، ومستره فقال : بأن أطلب الرزق ممن يطلب
منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من الناس ، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، وبإذن من ذلك
أمران محذوران :

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطي .

والآخر أن أفتن بدم المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من ور » ذلك كله « مثل يقال للمحيط بالأمر ،
القاهر له ، القادر عليه ، كاتقول للملك العظيم : هو من وراموزرائه وكتابه ، أي مستعذمتي
لتقبيهم ونقبيهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطتهم بها وإشرافه عليها .

وولي ، مرفوع بأنه خير المبتدأ ، ويكون خيراً بحد خبر ، ويجوز أن يكون
« ولي » هو الخبر ، ويكون « من » وراء ذلك « ، جملة مركبة من جار ومجرور
منصوبة الوضع ؛ لأنه حال .

(٢٢١)

الأسفل :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارُ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوقَةٌ ، وَبِالنَّدْرِ مَعْرُوقَةٌ . لَا تَدُومُ أَسْوَالُهَا ، وَلَا يَسْكُنُ رُزَالُهَا .
أَسْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّقَةٌ ، الْعَبَسُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا ^(١) مَقْدُومٌ ،
وَأَنَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدِفَةٌ ، تَرْيِيسٌ بِسَهَامِهَا ، وَتُقْدِيمٌ بِحِمَامِهَا .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ
مَضَى قَبْلَكُمْ ، يَمُنُّ كَانَ أَعْلَى مِنْكُمْ أَهْلًا ، وَأَعْمَرُ دِيَارًا ، وَأَبْنَى آثَارًا ؛
أَصْبَحَتْ أَسْوَابُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ حَالِيَةً ،
وَأَنَارُهُمْ عَامِيَةً ، فَاسْتَبَدُّوا بِالْقُصُورِ لِلشَّيْخَةِ ، وَبِالسَّارِقِ لِلْمَهْدَةِ ؛ الصُّخُورُ
وَالْأُخْبَارُ الْمُسْتَعْدَّةُ ، وَالْقُبُورُ اللَّالِئَةُ الْمُلْحَدَّةُ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ بِنَاوُهَا ،
وَشُيِّدَ بِالْخَرَابِ بِنَاوُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقَرَّبٌ ، وَمَا كَيْهَا مُقَرَّبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَخْلَقٍ مُوَحِّشِينَ ؛
وَأَهْلٍ فَرَاحٍ مُتَشَاعِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ ،
عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ ، وَدُنُوِّ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَعَنَهُمْ
بِكُلِّكَ الْيَلِ ، وَأَسْكَتَهُمُ الْجَنَادِلُ وَالنَّهْرُ !

وَكَانَ قَدْ مَرَّ مِنْهُ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَكَ ذَلِكَ الْمَضْعُ ، وَضَمَّكُمْ
ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ .

فَكَيْفَ يَكُنْ لَوْ تَفَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ ، وَبُغِزَّتِ الْقُبُورُ : (هُنَالِكَ تَبْلُغُ

(١) ب : دِيَارُهَا .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ .

التلويح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كل جانب .

وتارات : جمع تارة ، وهي المرة الواحدة . ومتصرف : متقلبة متحولة .

ومستهدفة بكسر الدال : متعصبة مهتأة للرئى ، وروى : « مستهدفة » بفتح الدال على المنقولية ، كأنها قد استهدفتها غيرها ، أى جعلها أهدافاً .

ورباحهم راكدة : حاككة . وآثارهم عافية : مندرسة .

والقصور المشيدة : العالية ، ومن روى : « المشيدة » بالتعريف وكسر الشين ، فمعناه

المسورة بالشيد ، وهو الجمر .

والنارقي : الواسد .

والقبور الملعدة : دوات العود .

وروى : « والأحجار المسدة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُني على الخراب فناؤها » أى بنيت لالتسكن الأحياء فيها

كما بنى منازل أهل الدنيا .

والكلكل : الصلر ؛ وهو هاها استعارة .

والجنادل : الحعارة . وبمثر القهور : أثيرت .

وتبلوكل نفس ما أسلفت : نخب وتلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

قرأ : « تلو » بالتاء بنقطتين ، أى تقرأ كل نفس كتابها وضلّ عنهم ما كانوا يفترون : بطل عنهم ما كانوا يدّعون ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا]

ومن كلام بعض العلماء في ذم الدنيا : أت بعد ، فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرفها ، وأبيات عن مساوئها بما أظهرت من مصارع أهلها ، ودلت على عورتها شتم حالاتها ، ونطقت ألسنة العير فيها زواجا ، وشهد اختلاف شئونها على فئائها ، ولم يبق لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر في عواقبها شك ، بل عرفها جلّ من عرفها معرفة يقين ، وكشفوها أوضح كشف ، ثم احتلّ بهم الأهواء من ماصع العلم ، ودلتهم الآمال بمرور ، فلعجت بهم في غمرات العمر ، فسبحوا في بحورها سواقين ناهلّة ، ورتعوا في حراسها طرفين بالخذعة ، فكان يمينهم شكاً ، وعلمهم حملاً ، لا بالعلم اتفقوا ، ولا بما طابوا اعتبروا . قلوبهم عالة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة نائبة ، حتى طرقتهم للنية ، فأجهلهم عن الأمنية ، فبغتتهم للقيامة ، وأورثتهم الدامة ، وكذلك الهوى حلت مذاقته ، وسمت عاقبته ، والأمل يُنسى طويلاً ، وبأخذ وشيكا ، فاتفق امرؤ بطله ، وجاهد هواه أن يضله ، وجانب أمه أن يفرّه ، وقوى يقينه على العمل ، وبقي عنه الشك بقطع الأمل ، فإن الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين سرّعا ، وإذا تعاوما على ذى غلبة خدعا ، فصربهما لا ينهص سالما ، وخدبهما لا يزال نادما ، والقوى من قوى عبيها ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا الله وإياكم جنة السلامة ، ووقانا وإياكم سوء العذاب

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس فقضاء قرا : ﴿ أَقْرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ • ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَحِنُونَ ﴾ ^(١) .

قال منصور بن عمار لأهل محله : ما أرى إساءة تسكر على عفو الله فلا تيأس ، وربما آخذ الله على الصغير فلا تأمن ، وقد علمت أنك تطول عفو الله عنك عثرت بحال الافتقار به ، ورضيت لنفسك للقيام على سخطه ، ولو كنت تعاقب نفسك بقدر تجاوزه عن سيئاتك ، ما استمر بك لعاج فيما نهيت عنه ، ولا قصرت دون اللبالة فيه ، ولسكنك رهين فقلتك ، وأسير حيرتك .

• • •

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا بعبادان راهب من الشام ، ونزل ديرا بن أبي كبشة ، فذكروا حكمة كلامه ^(٢) فخلق ذلك على لقاؤه ، فأتيته وهو يقول : إن لله عبادا سميت بهم همهم فهووا عظيم الدخار ، فالتسوا من وصل سيدهم توفيقا يبيلمهم سموهم ^(٣) الهم فإن استطعت أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا بهمهم أسرهم ، فإهم قوم قد ملكت ^(٤) الآخرة قلوبهم ، فلم تجمد الدنيا فيها ملبسا ، فالحزن بهم ، والدمع راحتهم ، والدموب وسيلتهم ، وحسن الفلز قربانهم ، يحزنون بطول السكت في الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسحونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سميت موعظة كانت أضع لى منها .

• • •

ومن جيد شعر أبي نواس في الزهد ^(٥) :

يا بني النقص والنسيان وبني الضعف والخلو
وبني البؤس في العال ع على القرب في العلو

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) ديوانه ١٩٥ .

وَالشُّكُولُ الَّذِي نَبَا بِنُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ
 أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ دَوَى الْأَسِّ وَالْخَطَرِ
 سَابِقُوا عَنْهُمْ الْمَدَاثِينَ وَاسْتَبْعَثُوا الْخَبَرَ
 سَبَقُونَا إِلَى الرَّحِيلِ وَإِنَّا لِبَالَأَثَرِ
 مَنْ مَضَى حَبْرَةً لَنَا وَغَدَا نَحْنُ مُعْتَبِرُ
 إِنْ لَمُوتَ أَحَدُكُمْ نَسْبِقُ الْقَمَحَ بِالنَّصْرِ
 فَكَأَنِّي بِكُمْ قَدْ بَدَأْتُ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَدَرِ
 قَدْ هَلَلْتُمْ مِنَ الْقُصُوفِ رَأَى ظِلَّةَ الْحُسْفَرِ
 حَيْثُ لَا تَضْرِبُ الْقَبَا بِطَبِيعِكُمْ وَلَا الْحَبْرُ
 حَيْثُ لَا تَطْرِبُونَ مِنْهُ رِقَابُكُمْ وَلَا تَمَرُ (١)
 رَحِمَ اللَّهُ مَسْلِكًا دَحْرَ الْمَوْتِ فَازْدَجَرُ !
 رَحِمَ اللَّهُ مُؤَمِّلًا خَائِفًا فَاسْتَشْمَرَ الْحَذَرُ !

• • •

وَمَنْ جِيَدَ شَعْرِ الرُّضَى أَمْرَ الْحَسَنِ رَحِمَ اللَّهُ فِي ذِكْرِ الدُّنْيَا وَقَلْبِهَا بِأَهْلِهَا (٢) :
 وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا مَرَامِي السَّمَاءِ مِ يَغْفِرُهَا نَابِلٌ دَائِبٌ (٣)
 نَسْرُهُ إِذَا جَازَنَا طَائِشٌ وَمَحْزَعٌ إِنْ تَسَنَّا صَائِبٌ
 فِي يَوْمِنَا قَدَرٌ لَا بَدَّ وَعِنْدَ قَدَرٍ قَدَرٌ وَائِبٌ (٤)

(١) رواية الديوان :

حَيْثُ لَا تَطْرِبُونَ فِي رِقَابِكُمْ وَلَا تَمَرُ

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الميراث أبا علي الحسن بن جعفر .

(٣) النابيل : صاحب النبل . والدائِب : المجد .

(٤) لا بد : مقم .

طرائد تطردُها الثنايات ولا مد أن يترك الطالبُ
أرى للراء بفعل فعل الحديب وهو غداً حراً لازباً^(١)
حواري من سلب الهالكين بمد يداً نحوها السالبُ
لنا بالردى موعد صادق ونيل المني موعد كاذبُ
حبائلٌ للدهرٍ مبثوثة بُردت إلى جذبيها الهاربُ
وكيف مجاوز غاياتنا وقد بلغ اللورد القاربُ^(٢)
نصبح بالكأس مجدحة^(٣) دُعافاً ، ولا يعلم الشاربُ^(٤)

• • •

وقال أيضاً ، وهي من محاسن شعره :

ما أقلّ اشتهارنا بالزمان ما أشدّ اغترارنا بالأمان^(٥)
وقفاتٌ على عرورٍ ، ^{كما على مُرُقي من الحدثان} ^{الوقت}
في حروب مع الردى فكأننا لا ^{يوم} ^ي ^{هذه} ^{مع} ^{الزمان}
وكفانا مذكراً بالنساء ^{فلما} ^{أنا} ^{من} ^{الحيوان}
كل يوم رزية جلان ووقوع من الردى بعلان
كم ترائي أضلّ ضاً والهو فكأنى وثقت بالوجدان
قل لهذا الهوامل استوقي التيسر أو استنثدي عن الأعطان
واستغني قد ضحك القمّ النهمج ، وغنى وراءك الحاديان^(٦)

(١) الحنا : الطين الأسود للثفن واللاب : السلب اللازم .

(٢) اللورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذي يطلب الماء .

(٣) نصبح : نؤتي بها وقت الصبح . ومجدحة : مخلوطة .

(٤) رواية الديوان :

• ولا علم لي أينما الشاربُ •

(٥) ديوانه لوحة ١٥٥ ، يرث صديقاً له من بني الساس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .

(٦) القم : معظم الطريق .

كم تحمداً عن الطريق وقد خرّج خَلْجُ البُزَى وجذب العِيران
 نثى جازعين من عُدوة الدهر رِ وترتاع للمسايا الرّواني
 جفلة الشرب في الظلام وقد ذُء ذع روعاً من عُدوة الذّوبانِ
 ثم نثى جرح الحسام وإن كان رغباً ياقرب ذا النسيانِ
 كل يوم تزايل من خَلِيط بالردى ، أو تباعد من دان^(١)
 وسواء مضى بنا الفسدر الجذ عجولاً ، أو ماطل العُصرانِ

• • •

وأبضا من هذه القصيدة :

قد مررنا على الدّيار حُشوماً ورايها النّاء ، فأين الهاني !
 وجهلنا الرّسوم ثم عَلِمنا هذ كُونا الأوطار بالأوطانِ
 التفتنا إلى القرون الخوالي حل نرى اليوم غير قرين فانِ !
 أين رب السدير فالخيرة اليهضاء ، أم أين صاحب الإيوانِ !
 والسيف الحداد من آل بدرٍ والقنا العم من بني الرّبانِ
 طردتهم وقائع الدهر عن لسلع طرد السّاف عن تحرّاتِ
 والمواضي من آل جفنة أرمى طنباً ملكهم على الجولانِ
 بكرعون الثّمار في فلق الإبريز كزغ الطّاء في المُذرّانِ^(٢)
 من أباء الآمن الذين يُحيون ن بها في معاقب التّيجانِ
 تراءاهم الوفود بهيلاً ضارين الضدور بالأذقانِ

(١) الخليط : المديق ، والداني : القريب

(٢) الفلق : القطعة من الجفان

في رياض من السّاح حَوَالِي وَجِبَالٍ مِنَ الْحِمْيَرِ رِزَانٍ
وَمُ الْمَاءِ لَذٌّ لِلنَّاسِ أَهْلُ الطُّنْجَانِ يَرْتَدُّوْنَ وَالنَّارُ لِلْحَبِيرَانِ
كُلُّهُ مَسْتَقْطِرُ الْعَنَانِ إِذَا أَطْلَمَ لَيْلُ النُّوَامَةِ لِلْبَطْنَانِ
يَعْتَدِي فِي السَّهَابِ غَيْرَ شَجَاعٍ وَيُرَى فِي التَّرَالِ غَيْرَ جَبَانِ
مَائَتٌ عَنْهُمْ لِلنُّونِ بَدَأُ شَوْ كَاءُ أَطْرَافُهَا مِنَ الرِّانِ (١)
عَطَفَ الدَّهْرُ فَرَعَهُمْ فَرَأَاهُ نَعْدَ مَسَدِ الذَّرَا قَرِيبَ الْجَبَانِ
وَنَثَمَهُ بِمَسَدِ الْجَمَاحِ لِلنَّبَايَا فِي عَيْنَانِ الْقَسِيمِ وَالْإِدْعَانِ
عُطِلَتْ مَعَهُمُ الْقَارِي وَبَاخَتْ فِي حَامِمْ مَوَاقِدُ التَّيَرَانِ (٢)
لَيْسَ يَنْتَقِي عَلَى الرِّمَانِ أُخْرَى فِي إِبَاءٍ أَوْ حَاجِزٍ فِي هَوَانِ
لَا شَبُوبٍ مِنَ الصُّوْلَةِ وَلَا أَمْسَقُ يَرْمِي مَنَابِتَ الْعِلْجَانِ
لَا وَلَا خَاصِبٍ مِنَ الرِّهْطَةِ بِمَحْضٍ سَلِ بِرَيْطِ أُمِّ غَيْرِ عِيَانِ (٣)
يَرْنَمِي وَجْهَةَ الرَّمَالِ إِذَا آتَسَ لَوْنُ الْإِغْلَامِ وَالْإِدْجَانِ
وَعُقَابُ الْمَلَامِ تُلْعَمُ فَرُخَانُهَا يَزْلِقُ زَلُولُ الْقِنَانِ
مَائِلًا فِي مَطَامِعِ الْجَوِّ هَاتِبًا لَكَ وَذَا فِي مِهَابِطِ النَّبْطَانِ

وهذا شعر نصيح نادر معرق في العربية .

• • •

(١) الرّان : الرماح .

(٢) باخت : خدمت .

(٣) الرهط : جمع رهطة .

ومن شعره الجيد أيضا في ذكر الدنيا ومصائبها (١) :

أو ما رأيت وقائع الدهر	أولا تسيء الظن بالعمير
يبدى الفتى كالطود تكفه	هضبانته ، والمضب ذى الأثر
يا بلى الديبسة في مشيته	ويجاذب الأبدى على الفخر
وإذا أشار إلى قبائله	حشيت عليه بأوجر غر
يترادفون على الرماح فهم	سبل يمس وعارس بسرى
إن نهنيوا زادوا مقاربة	فكأنما يدعون بالزجر
عند النجوم إذا دعى بهم	يتزاحون تزاحم الشر
مقدوا على الجلى ما زرعهم	سبلى الأنامل على الشر
زل الزمان بوطء أخميم	وموا على الأقدام للمسر
نزع الإباء وكان شملته	وأقر إقرارا على حفر
صدع الردى ، أحيانا تلاحه	من ألم الصدقين بالقطر
جر الجياد على الوثقى ومضى	أماما يلقى السهل بالوخر
حتى التقي بالشمس ممددة	في قمر منقطع من البحر
ثم انشئت كيف للنون ربح	كالصفت بين الناب والظفر
لم تستعبر منه الرماح ولا	رد القضاء بماله الدهر
جمع الجنود وراءه فكأنما	لافتة وهو مضيق الظفر
وبقى الحصون تمثما فكأنما	أسمى بمضمة وما يدري
وبقى للمايل ليدا فكأنما	لحمية كان للذى يدري

(١) من قصيدة يرثي بها أبا الحسن عبيدة بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

إن التوفى فرط متعجزة فدم الغطاء يقدّ أو يغري
وحى للظلم البقا وذى السآجال ملء مروجها تجرى
لو كان حفظ النفس بنفعا كان الطيب أحق بالممر
الموت داء لا دواء 4 سيان ما هو وما يمرى

وهذا من حر الكلام وفصيحه وناديه ، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة ،

وهذا النفس من تلك النار !

(٢٢٢)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَسُ الْآيِسِينَ لِأَوْلِيَانِكَ ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ
عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتُطْلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ
بَصَائِرِهِمْ ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ ، إِنْ أَوْحَشْتَهُمُ الْفُرْبَةَ ؛
أَنَسَهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ اللَّصَائِبُ لَجَّارًا إِلَى الْأَسْبَعَارَةِ بِكَ ؛ عَلِمَا بِأَنَّ
أَرِمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَصَائِكَ .
اللَّهُمَّ إِنْ فَهِمْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلَبَتِي ، فَذَلِّلْنِي عَلَى مَصَالِحِي ، وَخُذْ
بِقَلْبِي إِلَى مَرَاثِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِبُكَرٍ مِنْ هِدَايَاكَ ، وَلَا يَبْدِعُ
مِنْ كِفَايَاكَ .

اللَّهُمَّ أَحْيِلْنِي عَلَى عُنُوكَ ، وَلَا تَحْيِلْنِي عَلَى مَذَلِّكَ .

•••

الشرح :

أنت : ضد وحشت ، والإيساس : صد الإيماش ، وكان القياس أن يقول :
إِنَّكَ آتَسُ لِلْوَسِينِ ، لأنَّ للآس « أفل » وإما الآسون جمع آس ، وهو الفاعل من
أنت بكذا ، لأن « أنت » ؛ فالرواية الصحيحة ، إذن « بأوليائك » أي أنت أكثرهم أنا
بأوليائك وعطفًا ونحوًا عليهم .

وأحضرهم بالكفاية ، أي أبلغهم إحضار الكفاية للتوكلين عليهم ، وأقومهم بذلك

تشاهدكم في سرائرهم ، أى تطلع على غيبهم ، والبصائر : المرأى ، فذلت بصيرته في كذا ، أى حق عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفيهت عن سألتي ، بالكسر : هييت ، والفهة والقهاهة : التى ، رجل أفه ، ورجل فة أيضا ، وامرأة فهة ، قال الشاعر :

لم تُلْفَى فَهَا ولم تُلْفِ حَاحِي مَلْجَبَةً أَنَّى لَهَا مَنْ يَقِيمُهَا ^(١)

وقد فهيت بأرجل فها ، أى هييت ، ويقال سفه فيه ، وفهه الله ، وخرجت الحاجة فأفنت عنها فلان ، أى أنانيها .

ويروى : « أو عميت » مالهاء والهم المكسورة ، والعمه : التصير والقرود ، عمه الرجل ، فهو عمه وعاميه والجمع عمه ، وأرض قهواء : لا أعلام بها .

والنكر . العجب واليذع للبتدع ، ومنه قوله تعالى . « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ أَرْسُلٍ » ^(٢) ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احسني على عفوك ، ولا تحملني على عدوك » قول الروائية الهاشمية لما قتل سروان في خير تد اقتصاصه قديما . لبسنا عدلكم ، قالت الهاشمية . إذن لا يبقى منكم أحدا ، لأنكم حارتم عليا عليه السلام ، وتمسك الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضررتم علي بن عبد الله ، وخفتم إبراهيم الإمام في جراب النورة .

قالت . قد لبسنا عفوك ، قالت . أما هذا فنم .

(١) الصحاح ١٧٤٠ من غير نسبة .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي]

ومن الدعوات الفصيحة للتحسنة فصول من كلام أبي حيان التوحيدي قلها .
 فيها : اللهم إني أبرأ من الثقة بآلائك ، ومن الأمل بآلائيك ، ومن التسليم لآلائك ،
 ومن التفويض لآلائيك ، ومن التوكل لآلائيك ، ومن الطلب لآلائيك ، ومن الرضا
 لآلائيك ، ومن الدلة لآلائيك طاعتك ، ومن الصبر لآلائيك ، وأسألك أن تجعل
 الإخلاص قرين عقيدتي ، والشكر على نعمك شماري ودثاري ، والنظر إلى ملكوتك
 دأبي وديدي ، والالتفات لك شأني وشغلي ، والخوف منك أمني وإيماني ، والآباد بذكرك
 بهيقي وسروري .

اللهم تقاع برك ، واتصل بغيرك وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ،
 وبرز قسرك ، وعمت فواصلك ، وتمت توافيك ، ولم تهت حاجة إلا وقد قضيتها ، أو تكففت
 بقضائها ، فآختم ذلك كله بالرضا والصفرة ؛ إنيك أهل ذلك ، والقادر عليه ، والملي به .

• • •

ومنها : اللهم إني أسألك خفايا لطعت ، وفوائح توفيفك ، ومألوف برك ، وعوائد
 إحسانك ، وجاء القديسين من ملائكتك ، ومرة المصطفين من رسلك ، ومكاثرة الأولياء
 من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحسبك ، والفرادة عن محظورك ، والورع في
 شبهاتك والقيام بحسبك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال
 على ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى أتمد الحق حجة عندما خفت وتقل ، والصدق
 سنة فيها عسر وسهل ، وحتى أرى أن شمار الزهد أعز شمار ، ومنظر الباطل أشوء منظر ،

فأنبخترفي ملكوتك بفضاض الرداء بالذَّعَاء إليك ، وأبلغ الغاية التصوي بين خلقك
بالتثناء عليك .



ومنها : اللهم إليك أرفع مجرري ومجرري ، وبك أستمع في عُسري ويُسري ،
وإنيك أدعو رَقَبًا ورَهَبًا ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ،
ومصرف الدهر ، وتلون المصديق ، وباتحة النِّفَّة ، وقنوط القلب ، وضعف اللِّفَّة ،
وسوء الجزع .

فَقِي اللهم ذلك كله ، واجمع من أمرى شمله ، واعلم من شأني شتيته ، واحرُسني عند
الغنى من البَطَر ، وعند الفقر من الضَّجَر ، وعند السَّكَايَةِ من العَفَلَةِ ، وعند الحاجة من
الحُسرة ، وعند الراحة من الفُسُوءَةِ ، وعند الطَّلَب من الخِيبَةِ ، وعند المنازلة من العُطْيَانِ ،
وعند البعث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك .

وأسألك أن تجعل صدري خِزَامَةً توحيدك ، ولساني مفتاح تمجيدك ، وجوارحي
خَدَمَ طاعتك ؛ فإنه لا عزَّ إلا في القلِّ لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمان إلا في
الخوف منك ، ولا فرار إلا في القَتْلِ نحوك ، ولا روح إلا في الكرب لوجهك ، ولا ثقة
إلا في تهمة خلقك ، ولا راحة إلا في الرضا بقُصْمِكَ ، ولا عيش إلا في جوار المقربين عندك .



ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ؛ صلِّ على محمد نبي الرحمة ،
وقائد الأُمَّة ، وإمام الأئمَّة ، واحرس على إيماني بك بالتسليم لك ، وخفف عني مؤنة الصبر
على امتعائك ، وواصل لي أسباب الزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمري في
غنى عن خلقك ، ورضا بالمقدَّم من رزقك .

اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْتَ الأرض بنا ، وإن جازيتنا هل ظلمنا قطعت دوابنا، فأبكتك قلت: ﴿ فَتَقَطِّعْ دَايِرَةُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١).
اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا؛ وغل صدورنا؛ وحنّة أنفسنا، وطموح أبصارنا، ورفق أسننتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحش حاجتنا ، وقبح دعوانا، وثقل أشرارنا، وخبيث أخيارنا ، وتلرق ظاهرتنا ، وتمزق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحس إلينا، وتجاوز عنا، واقبل اليسور منا ، فإننا أهل عقوبة ، وأنت أهل مغفرة ، وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمّنا به أنفسنا ، فإن في ذلك ما اقترن بكرمك ، وأذى إلى حقك . ومن قبل ذلك وبعد ، فأرب عبثا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كد الأمل في خلقك ، وخذ بأزمقتنا إلى بابك ، وآله قلوبنا عن هذه الدار القامية ، وارزق فيها حنة الدار الباقية ، وقبّلنا على بساط لطفك ، وحُتّنا بالإحسان إلى كرمك ، ورقمنا من التماس ما عند غيرك ، وانغصم هيوتنا عن ملاحظة ما حجب من غيرك ، وحيل بيننا وبين الرضا عنك ، وارفع عنا مؤنة العرض عليك ، وخفف علينا كل ما أوصلنا إليك ، وأذقنا حلاوة قربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُبّك ، ووكل بنا الحفظة ، واررقنا الليقطة ، حتى لا نعرف سيئة ، ولا نفارق حسنة ، إنك قائم على كل شيء بما كسبت ، وأنت عما نحق وما أعلن خبير بصور .

• • •

ومنها : اللهم أنت الحي القيوم ، والأول الهائم ، والإله القديم ، والبارئ المصور ، والخالق المقدس ، والجبار الرفيع ، والقيّار المبيح ، والملك الصفوح ، والوهاب المنوح ،

والرحمن الرؤوف ، والحنّان المطّوف ، واللّذان الطّيف ، مالك القوائيم والنّواميس ، وحافظ
الأداني والأفاميس ، ومصرف الطّيع والعاميس .

اللهم أنت الظّاهر الذي لا يمحّذك جاحد إلا زابتك الطّمانينة ، وأسله اليأس ،
وأوحشه القنوط ، ورحلت عنه المصيبة ، وتردد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق ، وأمل قد
حقت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التّكذيب ، وسرّ قد أطاف به الشّقاء ، وعلانية
قد أناف عليها الهلاء ، موهون المنة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدة ، نشوء العين ،
وتقلبه النفس ، حقله عقل طائر ، وله لب حائر وحكه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا
أزحج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا أرتجح دونه ، ولا يقتبس ضمرا إلا أجيح عليه ، عثرته
موصولة بالثرة ، وحسرتة مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيف ، وإن قال حرف ،
وإن قضى خرف ، وإن احتج زخرف ، ولوّاه إلى الحقّ لوجد ظله ظليلا ، وأصاب
نحته شوى ومقيلا ،

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيه من
نور إلهيتك ، وعزّ سلطانك ، وهجيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب خيوبك ،
وخفي شألك ، ومخوف سطوتك ، ومرجوت إحسانك ، ما يردّه خاسئا من مرزحه من
الغاية ، خجلا متهورا ، ويردّه إلى هجره ، ملتصقا بالندم ، مرتددا بالاستعانة ، راجعا إلى
العفّار ، موقوفا مع القلّة . فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطراب ، وباطنك يحير فيك لاسعة
قضاء الاعتبار ، وضك بدل عليك الأسعاع والأبصار ، وحكتك تعجب منك الألباب
والأسرار . لك السلطان والمملكة ، وبيدك النّجاة والمهلكة ، فإليك للقرّة ، ومعك
للقرّة ، ومعك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصح سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ،
وأتم إخلاص ، وأشرف همة ، وأفضل نية ، وأظهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّ عني

كل ما يصدّ عنك ، وتصلني بكل ما يصل بك ، وتحبب إليّ كل ما يحبب إليك ، فإنك الأول والثاني ، ولشار إليّ في جميع المعاني ، لا اله إلا أنت .

• • •

ومنها : اللهم إني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وصلاحاً عربياً من الرياء ، وقولاً موشعاً بالصواب ، وحالاً دائراً مع الحق ، وفطنةً عقل مضروبة في سلامة صدور ، وراحةً جسم راجعةً إلى روح بال ، وسكوناً نفس موصولاً بنبات يقين ، وصحةً حجةً بعيدةً من مرض شبهة ، حتى تسكون غايقي في هذه الدنيا ، ووصولاً بالأمثل فالأمثل ؛ وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه .

اللهم لا تحبب رجاء هو منوط بك ، ولا تحصر كفاً في محدودية إليك ، ولا تمذهب حيناً فتحتمها بنعمتك ، ولا تدلّ نفساً في عزّة بعمرك ، ولا تسلب مفلاً هو مستغنى . بنور هدايتك ، ولا تحرس لساناً حوذاً في اختيار عليك . فكما كنت أولاً بالتوصل ، فكأن آخراً بالإحسان .

الخاصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخبر متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك .

أليس في هذه الحياة البائدة ثوب العيشة ، وحلّى في تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائدة ، وأجبرني على المادة الفاضلة ، ولا تجعلني ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقي من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من عنده ، والسعيد من آوئته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش في الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

• • •

ومنها : اللهم اجعل خدونا إليك مقروناً بالتوكل عليك ، ورواحنا عنك موصولاً
(١٨ - نهج ١١)

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راحة إلى التهاك فيك ، وذكركنا إياك منوطا بالسكون
معك ، وثقتنا بك هادية إلى التوكل إليك ، ولا نخلفنا من يد استوعب الشكر ،
ومن شكر يمتري خلف للربد ، ومن مزيد يسبق اقتراح للفرحين ، وصنع يفوق
ذرع الطالبين ، حتى نلقاك مبشرين بالرضا ، محكمين في اللهي ، غير مناقشين
ولا مطرودين .

اللهم أعِزنا من جشع الفقير ، ووربة المنافق ، وتجليح^(١) المعاند ، وطيشة المجهول ، وفقرة
الكلان ، وحملة السند وفقر العقل^(٢) ، وخبرة الحرج ، وحسرة الهوى ، وفلتنة
الذهول ، وحرقة الشكول^(٣) ، ورقة الخاف ، وطأينة المروور ، وعفلة العرور .

واكفنا مؤنة أخ يرصد مكرونا إليه ، ويمكر موثوقا به ، ويخيس^(٤) ممتدا عليه .
وصل الكفاية بالسورة من هذه الدنيا ، واحمل التهاونا عليها حيننا إلى دار السلام ،
ومحل القرار ، وعذب إيماننا بالتوب على جهتنا باليمين ، واحرصنا من أنفسنا ، فإنها بنا بيع
الشهوة ، ومفاتيح الهوى .

وأرينا من قدرتك ما يحفظ علينا هبتك ، وأوضح لنا من حكمتك ما يقبلنا في
مكتوتك ، وأسبغ علينا من نعمتك ما يكون لنا ، ونأمل طاعتك ، وأشبع في صدورنا
من نورك ما نتعل به حقائق توحيدك .

واجعل ديدنا ذكرك ، وعادتنا الشوق إليك ، وعلمنا النصيح لخلقك ، واجعل غابتنا
الاتصال بك ، واحجبنا عن قول بيري من رضاك ، وحمل بعضي صاحبه عن هداك ، وألف
بيننا وبين الحق ، وقربنا من معادن الصدق ، واحصنا من بوائق الخلق ، واتقنا من
مضايق الرقي ، واهدنا إلى فوائد الحق .

اللهم إنك بدأت بالصنع وأنت أهله ، فمُذ بالتوفيق فإنك أهله .

(١) جليح في الأمر : ركب رأسه .

(٢) العقل : العقل .

(٣) الشكول : وما أجهل من .

(٤) يخيس : يفتد .

(١) جليح في الأمر : ركب رأسه .

(٢) العقل : العقل .

(٣) الشكول : وما أجهل من .

(٤) يخيس : يفتد .

اللهم إنا نتضائلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونذلُ عليك عند تواتر بركك، ونذلُ لك عند ظهور آياتك، ونلجُ عليك عند علمنا بمجودك .

ونسألك من فضلك ما لا يرزؤك ولا يسكوئك، ونعوتلُ إليك بتوحيده لا ينتمى إليه خلق، ولا يفارقه حق .

ومنها : اللهم عليك أنوكلُ ، وبك أستعين ، وفيك أوالى ، وبك أنسب ، ومنك أفرق ، وبك أستأس ، ولك أبحد ، وإليك أسأل : لساناً تنمى بالصدق، وصدراً قد ملئ من الحق ، وأملاً منقطعاً عن الخلق ، وحالاً مكنونها بيوتى الجنة ، وظاهراً يحقق للذة ، وعاقبة تنسى ما سلف ، وتتصل عما يشقى ويؤكف .

واسألك اللهم كبداً رجواً حثوثاً ، ودعاً ما نطوفاً شوقاً إليك ، ونسأله زوقاً إذعاً لك ، وسراً ما نطقاً بيزد الإيمان بك ، ونهاراً مشتملاً على ما أكسب من مرحاتك ، وليلاً ما لنا بما أزلف لديك .

أشكو إليك اللهم تنهى على ما يفونى من الدنيا ، وأنتى فى طاعة الهوى ؛ جاهلاً بحقك ، ساهياً عن واجبك ، ناسياً ما تكرره من وعظيك وإرشادك ، وبها نك وتنبهك حتى كأن حلاوة وعدك لم تدب أذنى ، ولم تبشر فؤادى ، وحتى كأن مرارة عتابك ولائمتك لم تهتك حجابى ، ولم تعرض على أوصائى .

اللهم إليك المفر من دارٍ منهومها لا يشبع ، وحائتها لا ينفع ^(١) ، وطالبتها لا يبرع ، وواجدها لا يقنع ، والعيش عليك رقيق ، والأمل فيك تحقيق .

اللهم كما ابتليت بمكنك الحفية التى أشكلت على المقول ، وحارت معها البصائر ، فغاف برحمتك اللطيفة التى تطاولت إليها الأعناق ، ونشوقت نحوها للسرائر ، وخذ معنا بالفضل الذى إليك هو منسوب ، وعنك هو مطلوب ؛ وافطم نفوسنا من رضاع الدنيا ،

(١) الخائم : الطعان . ولا ينفع : لا يردى .

والطف بما أنت له أهل ؛ إني كل شيء قدير .

اللهم قدما بأرمة التوحيد إلى محضر طاعتك ، واخيلنا في زمرة المخلصين قد كرك ،
واجعل إجابتك من قبيل ما يتصل بكرم عفوك ، ولا تجعل خيبتنا من قبل جهلنا بقدرتك ،
واضربنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوج منا ، ولا مستول أجود منك .

اللهم احمر بيننا وبين كل ما دل على غيرك بيبامك ، ودعا إلى سواك ببرهامك ،
واقلنا عن مواطن المعر ، مرتقيا بنا إلى شرفات الدر ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت
النفس ، وساءت المادة ، وكثر الصادون عنك ، وفل الداعون إليك ، وذهب المراءون
لأمرك ، وفقد الواقفون عند حدودك ، وملت ديار الحق من سكتانها ، وسيع دينك
بيع الخلق ، واستهري بناصر محلك ، واقص التوسل بك .

اللهم فأعد نصارة دينك وأيض بين حنك بركات إحسانك ، وامدد عليهم
خل توفيك ، واقع ذوي الاعتراض عليك ، وأحلف المفتحين في دقائق غيبك ، واحتك
أستار الماسكين لستر دينك ، ولتقار عين أموات بك ؛ القاسين بينك وبين حلقك
اللهم إني أسألك أن تحصي بإلهام أفتس الحق منه ، وتوفيق بصحفي وأصحي ،
والطف لا يغيب عني ولا أغيب عنه ؛ حتى أقول إذا كنت لوحك ، وأسكت إذا سكت يادك ،
وأسأل إذا سألت بأمرك ، وأبين إذا أبنت بحضتك ، وأمدد إذا مدت بإحلالك ، وأقرب
إذا قربت برحمتك ، وأعبد إذا عبدت مخلصك ، وأموت إذا مت منتقلا إليك .

اللهم فلا تسكني إلى غيرك ، ولا تؤتني من غيرك .

ومنها : اللهم إنا بك نمر كما أنا بغيرك نذل ، وإياك نرحو كما أنا من غيرك نياس ،
وإليك نفوس ، كما أنا من غيرك نعرض ، أذنت لنا في دعائك ، وأديتنا إلى فيناك ،
وهياتنا لمطائلك ، وخصصتنا بمجائلك ، ووسمتنا بولائلك ، وعصمتنا بآلائك ، وغسقتنا
في نعمائك ، وناغيتنا بالسني ما يكونك عن دعتن ما في عالمك ؛ ولا طفتنا بظاهر قولك

وثوليتنا بباطن فعلك ، فسمت نحموك أبصارنا ، وشامت بروق جودك بصائرنا ، فلما استقر ما بيننا وبينك ، أرسلت علينا سماء فضلك مفرارا ، وفتحت لنا مآ أسماعا وأبصارا ، فربنا ما طاح منه تحصيلنا ، وسعنا ما فارقتنا عنده نصيلنا ، فلما سیرنا إلى خلقك من ذلك ذروا^(١) ، اتخذونا من أجله لها وهزوا فبقدرتك على بلوانا بهم ، أرنا بك الذي عنهم . اللهم قیض لنا فرجا من عندك ، وأنج لنا مخلصا إليك ، فإننا قد تمينا بخلقك ، ومجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في معالفتك أقرب منا إلى منابذتهم في موافقتك ، لأنه لا طاقة لنا بدعائهم ، ولا صبر لنا على بلوائهم ، ولا حيلة لنا في شفائهم ، فسالك بالغمرة العتامة وبالإحلاص المرفود ، إلا أخذت ما يدبنا ، وأرسلت رحمتك علينا ، فما أفدرك على الإجابة ، وما أجودك بكل مصون ؛ يا ذا الجلال والإكرام !

ومنها : اللهم إنا قرُبنا بك فلا تنفينا عنك ، وظهرنا لك فلا تبطئنا عنك ، ووجدناك عما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعرفنا من كل حالوانا عن بابك ، ووثقنا بكل ما وعدتنا في كتابك ، وتوكلنا بالسر والعلن على لطيف صمدك .

اللهم إليك نظرت العيون فسادت خاستة عتري ، وفيك تقسمت الظنون فانقلبت لئسة حسري ، وفي قدرتك حارت الأبصار ، وفي حكمتك طاحت البصائر ، وفي آلائك غرقت الأرواح ، وعلى ما كان منك تقطعت الأنفاس ، ومن أجل إعراضك التهمت الصدور ، ولما ذكر ماضي منك هلت الدموع .

اللهم تولنا فيما وليتنا حتى لا نقول عليك ، وأمانا عما حوتفنا حتى نقر معك ، وأوسعنا رحمتك ، حتى نطمئن إلى ما وعدتنا في كتابك ، وفرق بيننا وبين المل حتى لا نعامل به خلقك ، وأغنيا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك ، فإنك إذا بستر أمرائيسر ؛ ومها بلوتنا فلا تنبئنا بهجرك ، ولا تجرنا مرارة سُخطك . قد اعترفنا برؤيتك

عبودية لك ، فعرفنا حقيقتها بالمفروغنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يا رحيم !



ومنها : اللهم إن الرغبات بك منوعة ، والوسائل إليك متدركة ، والحاجات ببابك مرفوعة ،
والشفقة بك مستحصنة (أى مستحكمة) ، والأخبار بمجودك شائعة ، والآمال بمحوك نازعة ، والآمانى
وراءك منقطعة ، والثناء عليك متصل ، ووصفك بالكرم معروف ، والخلائق إلى لطفك محتاجة ،
والرجاء فيك قوى ، والظنون بك حميلة ، والأعناق لمرك خاضعة ، والنفوس إلى مواصلتك
مشغوفة ، والأرواح لمظلمتك مبهوتة : لا اله الا الله العظيم ، والرب الرحيم ، والجواد الكريم ،
والسميع العليم ، تملك العالم كله ، وما سده وما قبله ، ولك فيه تصريف القدرة ، وخفيات
الحكمة ، ونوامذ الإرادة ، ولك فيه مالا تدربه مما تخفيه ولا تهديه ، جللت عن الإجلال ،
وعظمت عن التعظيم ، وقد أرف (ررودنا عليك) ، ووقرنا بين يديك ، وغلطنا ما قد علمت ،
ورجأونا ما قد عرفت ، فكن عند غلطنا بك ، وحق رجاءنا فيك ، فإنا خائفناك جراءة عليك ،
ولا عصيانك تقصفا في سخطك ، ولا اتهمنا هوأنا استهزاء بأمرك وسهرتك ، ولكن غلبت
علينا جواذب الطيبة التي هبنا بها ، ونذور الفطرة التي أبتنا منها ، فاسترخت قهودنا
من ضبط أنفسنا ، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا ، ولسنا ندعى حجة ، ولكن
فساك رافة ، فبترك السابغ الذبال ، وفصلك القى يستوعب كل مقال ، إلا تمت
ماسكف منك إلينا ، وعظمت بمجودك الفياض علينا ، وجذبت بأضباعنا ، وإقررت
عهورنا ، وحقت آمالنا ! إلك أهل ذلك ، وأنت على كل شيء قدير !



ثم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب

الصفحة

- ١٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في أن الدنيا دار مجاز . ٣
- ١٩٧ - من كلام له كان ينادى به أصحابه ، وفيها بذكرهم بأمر الموت . •
- ١٩٨ - ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير عندما قُتلا عليه ٨٠٧
- عدم الرجوع إليهما في الرأي .
- ١٩٩ - ومن كلامه عليه السلام وقد سمع قوماً من أصحابه يستنون أهل الشام أيام حربهم بصعين . ٢١
- ٢٠٠ - ومن كلام له عليه السلام في نص أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام . ٢٥
- ٢٠١ - ومن كلام له عليه السلام لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة ٢٩
- ٢٠٢ - ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلماء من ريادة الحارثي ، وهو من أصحابه ، بمودته . ٣٢
- ٢٠٣ - ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع ، وحما في أيدي الناس من اختلاف الخبر . ٣٩ ، ٣٨
- ٢٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله ووصف خلق الأرض . ٥١

٢٠٥ - من خطبة له عليه السلام فيمن أعرض عن النصيح ، ونكص عن
نصرة الله

٦٠

٢٠٦ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتمظيمه

٦٣، ٦٢

٢٠٧ - من خطبة له عليه السلام في ذكر النبي عليه السلام ، وأنه

٦٦، ٦٥

خير خلقه

٨٤

٢٠٨ - من كلام له عليه السلام كان يدعو به كثيرا

٩٢-٨٨

٢٠٩ - من خطبة له عليه السلام خطبها بصفين

٢١٠ - من كلام له عليه السلام ردّ فيه على رجل من أصحابه أكثر

١٠٢، ١٠١

التناء عليه

١٠٩

٢١١ - من كلام له عليه السلام يشكو فيه أسير قريش معه

٢١٢ - من كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه

١٢٢، ١٢١

عليه السلام

٢١٣ - من كلام له عليه السلام لساير بطليحة بن عبيد الله وعبد الرحمن

١٢٣

ابن عتاب بن أسيد ، وهما قتيلان يوم الجمل

١٢٧

٢١٤ - من كلام له عليه السلام ، يصف فيه أحوال تقي عارف بالله

١٤٢

٢١٥ - من كلام له عليه السلام بحث فيه أصحابه على الجواد

١٥٢-١٤٥

٢١٦ - من كلام له عليه السلام قال بعد تلاوته : ﴿ الهاكم للشكائر ﴾

٢١٧ - ومن كلام له عليه السلام قال عند تلاوته : ﴿ يستبح له فيها

١٧٧، ١٧٦

بالقدر والأصاال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾

٢١٨ - من كلام له عليه السلام قال عند تلاوته : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك

٢٣٩، ٢٣٨

بربك الكريم ﴾

- ۲۱۹ - من كلام له عليه السلام في تهويل الظلم وتبرئه منه ويبدأ
صفر الدنيا في نظره
۲۴۶، ۲۴۵
- ۲۲۰ - من دعاء له عليه السلام
۲۶۶-۲۵۵
- ۲۲۱ - من خطبة له عليه السلام في ذم الدنيا ووصف سكان القبور
۲۵۸، ۲۵۷
- ۲۲۲ - ومن دعائه عليه السلام أيضا
۲۶۷



مرکز تحقیقات تاریخ و فرهنگ اسلامی

• فهرس الموضوعات

صفحة	
١٠ - ٢٠	من أخبار طليعة والزبير
٣٤ - ٣٧	ذكر بعض مقامات العارفين والزهاد
٤١ - ٤٢	ذكر بعض أحوال المناقضين بعد وفاة محمد عليه السلام
٤٣ - ٤٨	ذكر بعض ماضي بن آل البيت من الأذى والاضطهاد
٤٨ - ٥٠	فصل فيما وضع للشبهة والبكرية من الأحاديث
٦٧ - ٧٢	ذكر بعض الطاعن في النسب وكلام الجاحظ في ذلك
٧٢ - ٨٠	ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء
٩٣ - ٩٧	فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح لذلك
٩٧ - ١٠٠	الآثار الواردة في العدل والإنصاف
١١٥ - ١٢٠	فصل في أن جعفرا وحمزة لو كانا حين لبابما عليا
١٢٣ - ١٢٤	عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد
١٢٥	بنو جع
١٢٧ - ١٣٣	فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار
١٣٤ - ١٣٦	فصل في الرياضة النفسية وأقسامها
١٣٧	فصل في أن الجوع يؤثر في صفاء النفس
١٣٧ - ١٤١	كلام للفلاسفة والحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة

١٥٩ - ١٥٦	بعض الأشعار والمحكايات في وصف القبور والموتى
١٧٥ - ١٦٨	إيراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال الموتى
٢٢٧ - ١٨١	بيان أحوال العارفين
٢٥٤ - ٢٥٠	نہذ من أخبار عقيل بن أبى طالب
٢٥٩	ذكر الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا
٢٧٨ - ٢٧١	أدعية فصیحة لأبى حیان التوحیدى



مرکز تحقیقات و اسناد اسلامی